عبد الكريم غلاب

عضو أكاديمية المملكة المغربية

سفر التكوين

رواية - سيرة ذاتية

سِفْرُ التَّكْوِينِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1996

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، شارع برلين
بناية برج الكارلتون
ت: 807900/1 ص.ب.: 11-5460
تلكس: LE/DIRKAY 40067 برقيًا: موكيالي

دار الفارس للنشر والتوزيع
عمان، الشميساني، شارع عبد الحميد شومان
عمارة بترا سنتر، فوق (مطعم بيتزاهت)
ت بم605432 فاكس: 685501
ص.ب.: 9157 عمان 11191

عبد الكريم غلاب

عضو أكاديمية المملكة المغربية

سفر التكوين

الجديد 95

رواية - سيرة ذاتية

1

لا يدري متى تعرّف على الحياة أو تعرّفت عليه

ولكن الذي يدريه أن يدين بضّين تميلان كثيراً إلى السمن كانتا تختفيان تحت غطاء من صوف امتدتا تطلبان منه في استجداء أن يسرع . في حنو كان صوتها الجميل يهتف بالإنشاد

ـ يا لَنْبِي . . . يا لَلاَ بِنْت النّبي

ويخفت الإنشاد قليلاً لتصدر تعليماتها

ـ يا الله ياللا . . . ازحَم . . . ساعدني قليلاً

ويصدر صوت من الأعماق في صيحة ألم مُمِضّ

وتعود « أمي الطالبية » ـ هكذا كان يناديها الكبار والصغار على السواء ـ لتنشد

ـ أَنْفيسا طال بها النَّفَاس . . . يَا ربي واعْطيها الْخْلاَص

يطول الإنتظار بأمي الطالبية . يولّول الصوت المرعب من الألم . نساء يتحلّقن حول الموقف . بنت صغيرة مذعورة في عينيها الصغيرتين دمعتان حائرتان ، ترفع يديها الصغيرتين إلى وجهها ، وكأنها تحاول أن تحجب عن عينيها السوداوين الصوت المنادى في تضرّع

ـ . . . ويا ربـ . . . ي . . . ويا للاّبنت النبـ . . . ى

وتصدر تعليمات أمي الطالبية

ـ أخرجي يا بنتي . . . أَخْرِجوا البنت من هنا . . . ليس جيداً أن تفتح عينيها الصغيرتين على المنظر المؤلم

وتطل سيدة نَصَف خلف الستار تسأل في ترقّب

ـ ما تزال . . . ؟

ـ ما تزال . . . ؟

ويجيب صوت الألم الصاعد من الأعماق

ـ ويا ربـ . . . ى قلبـ . . . ى

تحاول أمي الطالبية أن تخفف من حدة الألم بكلمة لطيفة وسط الدعاء والإستغفار

ـ أنت التي جنيت على نفسك . كان يمكنك أن تذكري هذه الساعة في الساعة الأخرى . . وتضحك بملء فيها وهي تعابث النفساء في أحرج ساعات الألم

تنتزع الأم نَفَساً من آلامها وتصيح وهي تواري ابتسامة لم تستطع أن تطفو على شفتيها

ـ آمى الطالبية خليني لهمي . . . أتركيني لمحنتي

ـ لا ياللا . لا محنة ولا شقاء . بعد دقائق سيأتيك الفرج

يعبق جو الغرفة الفسيحة بدخان خليط الرائحة : سرغينة الجاوى . . . حصالبان ، شمعتان تنفثان ، على جانبي فراش الحدث ، ضوءً باهتاً في الغرفة المقفلة . خادمة سوداء ، تجاوزت مرحلة الفتوة بقليل ، تقف في انتظار ما تطلبه أمي الطالبية . وتصدر التعليمات

ـ آجوهرة اجلسي خلف ظهرها . . . إسنديها بصدرك

ويستمر الألم يمزّق أحشاءها وينبعث الصوت المتقطّع من جديد

ـ يا ربي . . . يا رضا الوالدين . . . يا مولاي ادريس

يتردد صدى الصوت في أعماق سيدة الدار الكبيرة . تهمس لنفسها ، وقد أفجعها الألم كأنما لم تمر بتجارب عديدة

ـ شيء مؤلم . . كأنما هو نفاسها الأول

تفكّر قليلاً مهمومة القلب

ـ خذي هذه البركة . . . أدى الوعدة إلى مولاي ادريس

هكذا خاطبت اليقوتَ خادمتَها وهي تعطيها بضعة قروش . أضافت

ـ مُري في طريق عودتك بدار سيدي إبراهيم . أطلبي منه أن يدعو جده ليغيث النفساء

تدخل سيدة أخرى غرفة الألم ، يفتنها الصياح المتقطّع . تقول ، دون أن تعي ، تريد أن تعبّر عن شيء

ـ لو كان الرجال هنا لطلبنا منهم أن يستنجدوا بفقيه المسيد ليرسل تلاميذه إلى الشارع يطلبون الخلاص

وكانت قد شاهدت قريباً ، في طريقها إلى الحمام ، مجموعة تلاميذ «المسيد» يتجولون في الشارع وهم يمسكون بأطراف إزار أبيض في وسطه بيضة وبضعة قروش يرمي بها المارة أملاً في إصابة البيضة في الصميم فتنكسر قشرتها ليكون ذلك بشيراً بوضع النفساء وليدها . كانوا ينشدون ويرددون

أنفيسة طال بها الأنفاس . يا رب واعطيها الخلاص . بحرمة طه نبينا . والقرآن حكيمنا

رمت سيدة بقرش . أصاب البيضة فانفجرت . هلل التلاميذ وهم يستبشرون . طووا إزارهم على ما جمعوا من قروش . عادوا إلى المسيد يبشرون الفقيه . كانت بشرى باهتة . ما جمعوه لم يكن ليرضيه

ردت أمي الطالبية على السيدة المذعورة

ـ فال الله ولا فالك . . . الأمر لا يحتاج إلى طلب الخلاص . . . ساعة أو بعضها ويأتي الفرج

يشتد الألم . تفهم أمي الطالبية أن الفرج قريب . تهمس في صوت مسموع

ـ آمولاي علي الشريف . . . آغياث أصحابه في الضّيقات . . . آولد

النبي تْشَفَّعْنَا بك

يعبق الجو بالألم ، بالصيحات تولول في جو الغرفة المكتوم ، بدخان الجاوى وسرغينه ، وحصنبال . تحاول أمي الطالبية أن تخفف من ضغط الجو المشحون بالألم فتنشد

مولانا نسعوا رضاك وعلى بابك واقفين

لا من يرحمنا سواك يا أرحم الراحمين

تنزل كلمات الرحمة برداً وسلاماً على قلب النفساء . تحاول أن تردد مع أمي الطالبية . ينتزع الألم منها المحاولة فتصيح

ـ يا ربي . . . ياللابنت النبي

اليدان البضتان مبسوطتان في استجداء . لا تريمان مكانهما ، لا تبذلان أي مجهود . الدعوات الصالحات تنطلق بطيئة سريعة كلما راود القلق أمي الطالبية . تشعر اليدان الخبيرتان بقطرة ساخنة لزجة تداعب أصابعها . يتبدد القلق ، يفتر ثغرها عن ابتسامة ، لا تلبث أن تتسع دائرتها ، والقطرة تصبح قطرات . يعلو صوتها هاتفاً

ـ صلوا على النبي . . . الفرجُ قَرَّب . . . ياالله ياللا . . . دفعة أخرى . . . أقوى قليلاً . . . رُشِمت ياللاّ . . . آجوهرة اسنديها جيداً

تعود أمي الطالبية إلى دعوات يسرع بها صوتها . تدفع قليلاً إلى أمام جلد الخروف الجاف « الهيضورة » حتى يمنع فراش النفساء أن يتلطّخ . تتسع الدائرة قليلاً قليلاً . . . تزداد قوة الدفع . . . يشتد الألم . . . يعلو الصوت المولول فيخترق الستارة . تطل السيدة النَّصَف مرة أخرى وانشاد أمي الطالبية يؤكد أن الفرج اقترب . تدفع الستارة . تدخل مشجعة على وجهها ابتسامة الأمل

ـ دفعتان أو ثلاثة وينته الأمر . قولي : يا ربي

لامست رأسُه الصغيرةُ اليدين المستجديتين في لزوجتهما . تتسع ابتسامتها . تهتف في عجلة

ـ صلوا على النبي . . . صلوا على النبي . . . سرغينة وحصالبان

وتدفع الأم دفعة قوية ، وقد أخذت تتخلّص من ثقلها . بدأ الألم يخف عن ظهرها ليتحوّل نمضاً إلى منطقة الإبداع . هنيهات وتصيح أمي الطالبية

ـ الصلاة على النبي . . . ثقلوا . . . زغرتوا . . . الحمد لله على الفكاك آبنتي

وتضج جنبات الغرفة بزغردة مبحوحة من صوت جوهرة . تتردد الزغاريد في أبهاء المنزل الكبير . . . تطفر الإبتسامة على الوجوه التي خيّم عليها ترقّب ممزوج بقلق . تهتف أخت لأختها

ـ وْلِيَّد أم بنيّة ؟

وتجيب الكبرى وكأنها كانت ستلقى نفس السؤال

ـ لا أحد يدري إلاّ « أمي الطالبية » . . . سنسمع البشرى قريباً

ـ أنا قلت وَلِيَّد

ـ أنا قلت بْنِيتَه

أمي الطالبية مضطربة وضعت الوليد على ظهر جلد الخروف وتبحث في اضطراب عن أدواتها : أين وضع الموسى ؟ اهتدت اليدان المضطربتان أخيراً إلى الموسى . قطعت حبل الصرة في سرعة . ربطت عنق حبل لصرة بفتيل من حرير . تبحث عن خرفة تلف فيها الوليد . انبعث صوت ناعم من تحتها ، يشكو من دنياه الضيّقة تلك . لعله كان خائفاً أن يعود إليها

الصيحة الأولى كانت احتجاجاً على سجن قضى فيه تسعة أشهر كاملات . الصيحة الثانية كانت احتجاجاً على اليدين البضتين تحاولان أن تمسكا بيديه أن يتحرّكا . الصيحة الثالثة كانت تطلعا إلى نور الحياة . ضاق بظلام الغرفة إلا من نور باهت تلفظه الشمعتان ، توالت الصيحات

ـ لا سيدي . . . لا سيدي هامّاً . . . ها ماما

قالت أمي الطالبية وهي متجهة إلى أمه تضيف

ـ يريد أن يرى أباه

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه النفساء ، لأول مرة منذ أسابيع هللت أمي الطالبية وهي تزغرد

ـ وليد . . . وليد . . . صلوا على النبي . . . ابشروا . . . رجل

اهتز كيان الأم دون أن تدري لماذا . كان لبشرى أمي الطالبية دَوِيٌّ في نفس الأم ا لشابة . قبل قليل كانت تفكّر

ـ ليتني لم . . . لا أريد أبناء . . . سأدفع عمري من أجل . . . ماذا ؟ طفل . . .؟ طفلة . . . ؟ لا هذه ولا تلك . . . كل النساء تلدن دون هذا العذاب ، إلاّ أنا . . . « عائشة » دفعت الثمن غالياً . . . ذهبت من نفاس وتركت « شامة » يلفها البؤس وتعيش مع زوجة الأب . « خيتي خدوج » ، سعيدة تقضي حياتها دون أن تعرف الزوج

ارتعبت وهي تذكر خيتي خدوج الطيبة ، الحنون ، بوجهها المتجذّر المنقّط ، وعينيها الحولاوين ، وصوتها الأجش ، لم تخطبها خاطبة ولا عرف رجل سبيله إليها . لم يمزق ألم الحمل أحشائها . سعيدة في بؤسها ووحدتها . . .

عادت إلى واقعها . هتفت لنفسها

ـ الحمد لله . . . تسعة أشهر مرّت كلمح البصر . ساعتان من ألم الطلق كأنهما دهر

ابتسمت من أعماقها

ـ سيكون سعيداً به . كان يرجوها ولداً . لم يكن سعيداً بالبشرى حملتها إليه أمه . سيستعيد ثقته في ، في الحياة

ذكرت حديثه ، الذي لم يكن يخلو من جفاف حينما ولدت بنتها الأولى

ـ الولد ابن أبيه . . . البنت بنت أمها

شعرت بالسعادة وهي تمنحه الولد . فكّرت

ـ أمه هي الأخرى كانت تريد الأولى ولداً

قالت وهي تستقبل البشرى

ـ كنا نريده ولداً . لكن (وصعدت تنهّدة من الأعماق) الحمد لله على ما أعطى العاطي

منذ علمت بأنها حامل وهي تذكرها في شبه وعيد

ـ نريده ولداً هذه المرة

تحلم بكل هذا الماضي كشريط لم ينتظم في ذاكرتها كما انتظم في ساعتها تلك ، وهي بين اليقظة والنوم . شعرت بإعياء رهيب يلف جسدها المرهق . أصوات النساء من حولها ـ يعلوها صوت أمي الطالبية ـ تخترق أذنيها وكأنها تأتيها من بعيد . شعرت بنوع من السعادة . تحللت من مشاغلها لأول مرة . هن يشتغلن بها ، بالوليد . همت أن تطلب رؤيته لم تستطع أن ترفع رأسها ، أن يعلو صوتها . لسانها يردد في حذر

ـ مكنيني من رؤيته آمي الطالبية

لم يتردد لصوتها صدى . أغمضت عينيها في شبه إغفاءة . صوت أمي الطالبية يأتيها من بعيد

ـ نامت . . . مسكينة قاست محنة شديدة

استدركت ، وكأنها تنفي عنها تهمة

ـ لم أر أسهل من وضعها . لو رأيتم المسكينة « للاالطام » أمس الأول ، الليلة بطولها والألم يمزّق أحشاءها

تتحدّث وتعمل بيديها وتزغرد في آن . الوليد بين يديها ككرة تقلبه ظهراً لبطن ، بطناً لظهر ، تنضو عنه بقايا دنياه حينما كان في عالم الأجنة

تعلن عن ابتهاجها بيديه الصغيرتين ، بعينيه السوداوين ـ زعمت أنهما سوداوان ـ تحاول أن تفك عقد أصابعه الصغيرة لتنظّف ما بين كفه وأصابعه ،

تمسّد فخذيه ورجليه وقدميه . أكبت على عضوه تطبع القبلة الأولى ، أصر على أن تذوق أمي الطالبية أول دفقة له في الحياة . قهقهت ضاحكة بصوتها الحني :

ـ سِرْ الله يَعْطِي لْحَنَّاك مَا تَأكُل وَمَا تَشْرَب

ضحكت النساء من حولها . جوهرة تضحك لأول مرة من أعماقها معبّرة عن فرحتها وابتهاجها

ـ هذا سيدك العزيز آجوهرة . إياك أن تعصي لها أمراً

فتحت أمي الطالبية رزمة ثياب الصغير : قميص وصدرية من صوف كانت أيام شتاء ، لفّت فخذيه في خرق بيضاء ، جسده في إزار أبيض حاذت يديه بفخذيه . سمطت جسمه بسماط من حرير . لعله شعر مرة أخرى بالقيد يحيط بيديه ورجليه وجسمه جميعاً . دهنت رأسه وجبهته بخليط من الشب والحرمل والحناء والنعناع وزيت الزيتون . عصبت رأسه بعصابة مطرزة كحلت حاجبيه بالكحل . أحاطته بإزار مطرّز بالحرير . صبّت في فمه ملعقة صغيرة من زيت الزيتون . الزيت أول طعام لامس شفتيه في دنياه . لا يدري أحد أكان طعماً مراً أو حلواً في مذاقه . عبّر عن اشمئزازه . لم يبتلع الزيت شرق ، عطس ، تطاير رشاش الزيت من فمه . بكى . حاولت الأم أن ترفع رأسها متجهة ناحية الصوت ، ما يزال رأسها ثقيلة . ما يزال الخدر يسري في كيانها . عادت فأغمضت عينيها مستسلمة لنعاس قهري

ـ تعالوا نَرَوا الَعْرِيس الَغْزَال . . . هذا الزِّين . . . هذا سيد الرجال

هتفت أمي الطالبية . أضافت تخاطب الوليد

ـ أنا حَنَّاك . أنا أمك ، أنا أمي الطالبية . إياك أن تَتَنَكَّر لي حينما تَكْبر وتُصْبِح رجلاً

أضافت في أسى أعرب عنه صوتها

ـ . . . كما فعل آخرون

حملته بين يديها ، تتفرّس عيناها في وجهه كما لو كان وليدها . طبعت قبلة على جبينه . أدارت يمناها دورات عديدة على رأسه وهي تقرأ الفاتحة

والمعوذتين بين شفتيها تلحن فيها وتخطئ ، ما شاءت لها أميتها أن تخطئ وتلحن . اتجهت نحو فراش النفساء

ـ آلاَّ النُّفيسة شُوفي هذا الْغَزال . خذيه إلى صدرك . أكرميه من ثديك

(ابتسمت ضاحكة وهي تضيف) : منذ مدة وهو يطلبك : ماما . . . ماما . . .

وضعته بين ذراعيها . ساعدتها على أن تلقي عليه أول نظرة . ابتسمت من أعماقها . طغت الإبتسامة على الخدر والنعاس وبقايا الألم . شعرت بدفء السعادة ، بالحنين ، بالحب ، بنبضة قلب لم تشعر بمثيلها منذ أن ضمّت فاطمة إلى صدرها وهي في مثل وضعها ذاك . حاولت أن تطبع قبلة على خده تفرّست عيناها المتعبتان في ما يبدو من وجهه : أنفه ، فمه ، عينيه ، ذقنه ، ابتسامة الغبطة والرضا طفرت من شفتيها وهي تتمتم

ـ الحمد لله

تلفتت نحو أمي الطالبية

ـ ما رأيك ؟ أهو زْوين ؟

ـ صلاة النبي عليه . أجمل من رأت عينان

الجدة تتحرّك في المنزل الكبير وعليها كل مسؤولية إعداد مرق الحمام للنفساء

ـ مسكينة . مرق الحمام بالبصل يقوي قلبها ، يعوضها عما ضاع من دمها ، يدر اللبن من ثديها

هكذا فكّرت وهي تعد كل ما يليق بيوم سعيد في حياة العائلة

ـ ويحي لم أزر بعد « الضَّويَّف » الجديد . لا شك أن أمي الطالبية أعدته لاستقبال الزوار

ابتسمت وهي تفكّر . دنياها مليئة بالسعادة . تحمل في قلبها سعادة الجد والأب والأم والعائلة جميعاً

أكبت على وجه الطفل تمنحه قبلة من بعيد

ـ لا يصح أن يقبّل الطفل في أيامه الأولى . لا يتحمّل أنفاس الكبار

تلك إحدى حكمها التي تنطق بها دون أن تسأل عن حكمة . أصبحت جدة حكيمة من كثرة ما سمعت وما رددت من حكم

داعبت خده الصغيرة بأصغر أصابعها . ربما كان خده لا يقوى على المداعبة بالسبابة

ـ غوغو . . . الحمد لله على حسن الخلقة

كذلك أجابت أمي الطالبية وهي تسألها

ـ كيف وجدت ابني

« حسن الخلقة » اعتادت أن تقوّم الأطفال الصغار بهذه الكلمة . تفكّر من خلفية مريرة . رأت في شبابها وليداً لقريبة لها . كان ـ فيما يدو ـ قبيح الخلقة أو مشوهاً ، لا أحد يدري ، فإنها لتأنف أن تدقق في الكلمات كما قصت القصة القديمة . لا تلبث أن تحمد الله على حسن الخلقة ـ ولا تزيد ـ كلما رأت وليداً مكتملاً أو جميلاً أو غير ذي عاهة

لعله كان أسعد أب . ولعل أباه كان أسعد جد . كان أول طفل تعرفه العائلة التي كانت فروعها محدودة العدد . والطفل سليل العائلة والطفلة تنمي عائلة الآخرين . اجتمع له مجد الأب والأم معاً ، فهما ينتميان لنفس العائلة والطفلة تنمي عائلة الآخرين . اجتمع له مجد الأب والأم معاً ، فهما ينتميان لنفس العائلة من أقرب عم . لم يكن للأب أن يرى الرضيع ، مشغول بالإعداد للحدث السعيد ، لا يزور زوجته في أيام أمومتها الأولى تلك ، الطفل لا يفارق الغرفة المقفلة الأبواب خوفاً من هبة نسيم لا يقوى على تحمّلها ، الأم لا تغادر فراشها إلاّ يوم السابع من ولادتها ، يوم يمنح المولود اسمه ، محجبة عن الهواء حتى لا تصاب بأذى . الطفل لا يبرح حضنها ، يرضع كلما حلا له أن يناغي أو يبكي ، لا يبكي إلاّ من جوع . أمي الطالبية تتردد على الأم تسقيها كل شراب مقوّي أو مدر للحليب ، تطعمها كل أكل مغذ « يقوّت » القلب ، يعوضها ما ضاع من دم الطلق . الفرحة الكبرى تغمر المنزل . الكبار والصغار

يترددون على غرفة الوالدة ليملأوا أعينهم من طلعة الوليد ، كل منهم يهتف باسم جديد يرضيه ، وهم يعرفون أن سر الإسم عند الجد ، وقد لا يسر به لأحد إلاّ ساعة ذبح الخروف صباح اليوم السابع . الأب والأم لا يعرفان ، وقد لا يسألان . الجد أول رجل يلتقي بالطفل ويتعرّف عليه ، يبتسم في وجهه ، يناغيه ، يصله بالإسلام فيؤذن أذان الصلاة ـ همساً ـ في أذنه يرجو أن يحفظ هذا الأذان عن ظهر قلب من يومه ذاك ،

ـ لا . . . لا تكسر الرأس بالشاقور . لا تحطّم قرنيه

كذلك هتف الجد بالجزار وهو يسلخ كبش التسمية . فكبش الطفل لا يشق رأسه ولا تحطّم قرونه ، ولا كذلك كبش البنت ، حتى لا يكبر جباناً مكسور الرأس خائر العزيمة

وتوالت الأيام

2

وجد نفسه بين أبهاء منزل بدا له متسعاً دون سعته « ساحة الصاغة » بشجرتها الفارعة المترامية الفروع المتنامية الأغصان المطلّة في سموقها على سطوح المنازل القريبة والبعيدة . كان المنزل قلعة تعلو سقوف غرفها المترامية المتكاثرة ، المتحلّقة حول عرصة فسيحة ازينت برخام وزليج ونقوش كتبت بها آيات قرآنية بخط جميل ، لا يُقرأ ، أملاً في أن تحفظ سكانها من شياطين الجن والإنس

ميز من بين هذه الرسوم ـ بعد أن أخذ يعي ـ تاريخ بناء المنزل ، بدا له بعيداً في أعماق التاريخ ، ولم يكن يبعد عن يوم ميلاده بأكثر من عقد إلاّ قليلاً

في هذا المنزل رأى النور وفيه تعرّف على الحياة ، وكان ، حتى رشد ، كل دنياه

كان المنزل يضم بضع عائلات ، أو هي عائلة من بضعة فروع ، تتساكن ، ثم لا تلبث أن تفترق . يبدو أن الأخوين الذين بنيا المنزل ، اجتمعا على بناء عش لهما ولأولادهما من بعدهما ، ثم لم يلبثا أن فرّق بينهما الموت ، فبقيت حصة أحدهما ، له ، ولأبنائه . وانتقل أبناء الذي استأثرت به الموت إلى دور أخرى ، وإلى أقطار أخرى بعيدة بعيدة ، بعد شرق المغرب عن شماله ، أو بعد وهران في غرب الجزائر عن « فاس » في وسط المغرب الشمالي

كان المنزل كل دنياه ، ولم يكن بهذه الدنيا أطفال ، إلاّ أخته التي تكبره قليلاً ، وأخوه الذي يصغره قليلاً . ولم يكن ، وهو وسط بين الأخ والأخت ، ليجد راحة اللعب معهما . فقد كانت أكبر منه لا يستريح لكبرها

ولا تستريح لصغره ، وكان ـ أخوه ـ أصغر منه لا يستريح لكبره ولا يستريح هو لصغره . لم ترتسم في ذاكرته كثير من ملامح اللعب والأنس بين هذا وتلك الطفلات يعشن وحيدات في بعدهن عن الأطفال ، ولو كن أخوات لأخوان

ـ البنات لا يلعبن مع الأطفال

وعت الذاكرة هذا التحذير الذي لم يكن من الضروري أن يتكرر . فقد كانت الكلمة يقولها الكبار للصغار مرة ، فتنطبع في الذاكرة والممارسة لتصبح حاجزاً صعب الاختراق ، يفصل بين عالمي الصبي والصبية ، يعلو ويقوى كلما علت سنهما ليصبح سداً منيعاً بين عالمي الرجل والمرأة حينما تَهبَ لهما الحياةُ الرجولةَ والأنوثة

غير أن فتاة ـ لا تسعفه الذاكرة بتقدير سنها آنذاك ـ أَبقَت ، تمرّدت على التعاليم . لم تكن من العائلة ، حتى اسم عائلتها بعيد عن اسم عائلته . لا يدري ، حتى الآن ، كيف أصبحت من بنات الدار . لعلها كانت يتيمة ، أمُّها الراحلة من الأقرباء فأضافتها والدته إليها لتكون مثل ابنتها ، تربيها وتعلّمها الطريز وعمل البيت إلى أن تشب فتزوجها . تلك زكاة كانت تؤديها العائلات المستورة برحابة صدر ، تجد في ذلك قرباً من الله وأداء لواجب إنساني

كانت الفتاة ترعاه . يبدو أنها كانت تأنس إليه ، فتصحبه في رحلاتها بأبهاء المنزل وغرفه العليا ، حيث الوحدة والفراغ والهروب من العمل والسكون ووشوشة شيطان المراهقة وهدير العزوبة الذي لا يرحم . . . أو تصحبه إلى السطح عشية يوم رائق . . . واصطدمت المراهقة العارمة بالطفولة البريئة وكان الإنتصار لذاكرة طفل لا يعفي عليها النسيان . . . في الصعود إلى سطح المنزل ، حيث يمكن أن تسفر السماء عن وجهها دون حجاب . ويبدو أنها كانت تحاول أن تكسر سجف وحدتها في صحبته ، ولو أنه لم يكن يستطيع مناغاتها إلا وهو يعد معها الدرج واحد ، إثنان ، ثلاثة

كان السكون يخيم على المنزل . لا تردد جدرانه السامقة صياح الأطفال ولا ضجيج الرجال والنساء . كلهن يقمن بعملهن في رتابة وهدوء لا تكاد تسمع لهن حديثاً ولا نقاشاً . يجتمعن حول المائدة ثلاث مرات في اليوم ، وقد

قامت إحداهن بواجبها في « نوبتها » الأسبوعية ، دون أن تسأل أحداً أو يسألها أحد ماذا تعد . فهي تعرف من « القفة » ما يأمر به رب المنزل أو سيد الدار وهي تتصرّف : تدبر ، وتعد الوجبات الضرورية بما يمكن إعداده من « صالة العولة » ، وما بقي لهن من وقت طويل بعد واجبات المنزل يقضينه بجانب «مرمة » الطرز أو « محول الحرير » أو « مغزل الصوف » أو « آلة الخياطة » . لا وقت لهن للفراغ ، لا وقت لهن للقراءة أو التفكير خارج القلعة المحصنة

غير أن بشائر الربيع وأيام الصيف اللاهبة كانت تدفع بهن ، الشابات منهن ، إلى سطوح القلعة الحصينة . لا تفتح إلاّ عندما ينشرن الغسيل ، أو يجففن القديد ، أو تهب بشائر الربيع أو تزفر جهنم زفرتها في صيف فاس القائظ ، أو يهل هلال رمضان فيصعدن للتبرّك برؤيته ، والصياح بزغرودة الإبتهاج والفرح بالشهر المبارك السعيد . في السطوح تشعر الفتيات والشابات بحريتهن . الشمس الغاربة تغازل أحلامهن بلألائها الذهبي ، القمر يخرج من غلالته ، يشعرهن بدفئه الفضي ، يعكس وجهاً آخر طالما حدثتهن عنه خرافات الجدات وقصص الخدم العُزب . النجوم وهي تشرق لتختفي ، تغمر ، مداعبة ، حشمتهن وخفرهن . صوت آخر من خلف السور ينادي ، يفرّ من الوحدة ، من سجن قلعة أخرى مجاورة ، في شوق ليتحدّث ، فتتطاول القدود القصيرة فوق الأحجار لتتصل هذه بتلك . تتحدّثن في غير موضوع حديثاً يكسر حدّة الصمت الذي فرضته التقاليد . أذان المغرب يبشّر بالليل . تتصاعد أصوات الأمهات من صحن المنزل

ـ يا فاطمة . . . يا مينة . . . انزلن . . . ها هو ذا الليل قد أقبل أبوكم اقترب موعد عودته

اسم الأب ينتزعهن من أحلامهن . يود عن السطوح كارهات كما يودع الأحرار حريتهم

ومع أحلام مينة نظرة تطفح بها عينا فتى كان يقف خلف السور الحاجز إلى جانب أخته طامى : إبن الجيران

ـ اسكت « أبٌ سيدي » نائم

ـ تحرّك بهدوء . أبوك يصلي

ـ ما هذا الضجيج ؟ ألا تحتشمون ؟

ويغرق البيت الكبير في الصمت . لا يكاد يقترب من لِداته أبناء وبنات الضيفة التي حلت بالمنزل . لا يكاد يتحدّث إليهم إلاّ همساً

ويتحوّل الصمت إلى خوف أو رعب من أن يقترب الصغار من الكبار ، لكل عالمه ، مناسبة وحيدة تتاح له لكي يقترب من جده أو والده ، حينما يلتقيان في ممشى البيت أو يبدو له من بعيد فيسرع لينكب على يده يقبّلها ، ثم ينسحب ، كما لو كان وجوده الصامت قد يحدث ضجيجاً . وتتنامى غريزة الوحدة في نفسه مثل ما يتنامى الميل إلى الصمت ليطبعا حياته بالفردية والعزلة والخوف من الآخر

في المسيد يبهره الضجيج ، ضجيج الأطفال وكل منهم يقرأ لوحته ، أو يصطنع قراءة لوحة لا يستطيع فك رموزها . وتثير نظرات شزراء تصدر عن الفقيه أصوات الصغار وهم يخشون أن تتحوّل النظرات الشزراء إلى الفعل . عود السفرجل يحن إلى رأس كل منهم ، وكأن له معه ترة

لا يدري كيف تعلّم هذه الحروف التي ما تزال تغريه بصداقة أبدية . ما من شك في أن الفقيه كان يرسم (يحنش) له ـ بمؤخر قلم القصب ـ الكلمات على الصلصال اليابس في صفحة اللوحة ليقلد بيده المرتجفة كتابة الحروف بقلمه المغموس في صمغ أسود . لا يدري كم استغرقت منه هذه العملية ليتقن رسم الحروف وليعرف أسماءها . غير أنه متأكد من أن قضيباً صغيراً كان يراوح القلم على أصابعه الصغيرة فيلفها بضرباته اللاذعة كلما اعوج القلم فيها ، أو كلما نقط الباء من فوقها والتاء من تحتها . . . وما يزال يتردد في مسمعه نشيد كان يردده كل الأطفال : الذين يعرفون والذين لا يعرفون

ـ الألف ما ينقط . . . الباء وحدة من تحت . . . التاء زوج من فوق

لم يكن يميز بين الألف والباء والتاء . ولكن « كثرة التكرار تعلّم الحمار » كما كان يردد فقيه المسيد للذين كانت تحجب البلادة عنهم التعرّف إلى كلمات

كان والده يصحبه إلى مسيد الفقيه الحياني قريباً من المنزل مقابل «درب حجر النار » حيث يثوى في منتصفه البيت الكبير . يصحبه في الصباح ويعود به عند الضحى ليتناول فطوره ، ثم يصحبه بعد نحو من ساعة حتى منتصف النهار ليتناول غداءه . ثم يصحبه بعد ذلك إلى المساء قريباً من صلاة المغرب جوهرة تنوب عن والده إذا شغله شاغل ، تلميذ أكبر منه سناً يصحبه من المنزل إلى المسيد أو من المسيد إلى المنزل . التلاميذ الكبار كانوا يقومون بعملية إحضار صغارهم ، والرواح بهم إلى منازلهم . التلميذ المكلّف به كان أيضاً يحمل النفقة إلى منزل الفقيه . فقد كان « مشمعاً » كما يناديه الفقيه . كان يدرك من سنه العالية أنه لن يفلح ، فقد ختم الله على عقله بالشمع الأحمر ، أو الأبيض لا أحد يدري . ولكنه ميئوس منه . ولذلك فهو المكلّف بتكتيف أقدام التلاميذ بالفلقة كلما هم بهم قضيب الفقيه . وهو المكلّف باستقدام صغارهم والرواح بهم ، وهو المكلّف بملء غراف الفقيه بالماء البارد من سقاية « سيدي أحمد التجاني » أو « مولاي ادريس » كلما عطش الفقيه ، وهو يعطش عشرات المرات في أيام الصيف القائظة ، وهو المكلّف بتدريب صغار التلاميذ على محو لوحاتهم وصحبتهم لتجفيفها أمام فرن « السفاج » في أصباح الشتاء القارسة

ـ آذاك « المشمع . . . »

كلمات ترن أو تضج في أذنيه عشرات المرات ، وقد أصبحتا متأهبتين للاستجابة كلما نطق بها الفقيه فيرمي باللوحة في سرور إلى جاره ويقف مستعداً لتلقي الأوامر . ولكن لقب « المشمع » لم يكن يعفيه من قضيب الفقيه في آخر النهار حينما يطلبه ليعرض ، عن ظهر قلب ، ما حفظ من لوحته . كان الفقيه يعرف أنه ما حفظ ولن يحفظ ، ليس لأنه « مشمع » ، وليس لأن والده فقير لا يؤدي للففيه واجب يوم الأربعاء ، ولكن لأن أشغاله اليومية ـ فاعلاً ومستعداً للفعل ـ تمنعه من التركيز . وكان عقاب المساء ، كل مساء ، درساً لكل التلاميذ ، كانوا من « المشمعين » أو من الموهوبين

ـ إضرب الكبير يخاف الصغير

كان الفقيه يؤكد فلسفته هذه لكل الذين يزورونه من أصدقائه أو آباء التلاميذ يجهر بها مفتخراً « بالنظرية » التي تجعله يسيطر على « القطيع » و« المشمع » أحد الكبار الذين يضربون ليكونوا عبرة . يضرب على رأسه باللوح ، غير المحفوظ ، لتشج الرأس فيسيل دمها ويداوي بنسيج العنكبوت ، ويرفع اللوح بقوة ليصطدم بصفحة وجهه حتى ليسيل الدم من أنفه أحياناً ، فلا يجف إلاّ بكومة أخرى من نسيج العنكبوت الرمادية أو السوداء . وحينما تتكرر أخطاء « المشمع » يأتي القضيب ليؤدي دوره ، لا على القدمين كما يفعل مع صغار التلاميذ ، فليس من كبارهم من يستطيع أن يكتفه ، ولكن على الرأس والوجه والكتفين واليدين والظهر جميعاً . ويلعب المشمع مع الفقيه لعبة استعراض العضلات ، يفر من ضرباته لتخطئه الثانية إذا ما أصابته الأولى . حتى إذا اشتد عوده وقويت صلابته أصبح يقفز بكامل قامته ليحتمي بجدران المسيد حتى إذا اقترب من الباب أفلت من معركة غير متكافئة

ويرضى الفقيه بهذه النهاية فقد استطاع من خلال المعركة أن يصب الرعب في قلوب كل التلاميذ . و الذي احتفظ منهم ـ في ظلال الرعب ـ ببقية من حافظة يستطيع أن يعرض اللوحة ، عن ظهر قلب ، بقليل من الأخطاء والذين لا يستطيعون يؤجلون إلى الصباح بعد ضربتين أو ثلاث ، كل حسب منزلة والده في الحومة

يبدو أن سنه تلك لم تمكّنه من أن يفتح الله عليه بحفظ شيء من القرآن سوى القصار من سوره . ويبدو أنها مكّنته من أن يتعرّف على معظم الحروف ، وإن كان ما يزال يخلط بين بعضها . حتى إذا انتقل إلى « المدرسة » كان بين الذين يرجى لهم مستقبل ملحوظ

3

المدرسة إسم لم يكن يتردد كثيراً . اقترن بالمجتمعات التي يسكنها الطلبة الكبار ، لا سكنى لهم في المدينة . يترددون على القرويين ، ويسكنون «المدرسة » ويراجعون دروسهم في مسجدها . حتى إذا أسست إدارة الحماية مدرسة هنا وأخرى هناك من أنحاء المغرب تعتمد الحرف اللاتيني واللغة الفرنسية أو الإسبانية ، وتستقطب إحداها ـ ولعلها الوحيدة في المدينة ـ « أبناء الأعيان » فكرت نخبة من الوطنيين ، قبل أن تصبح الوطنية حركة ، في تأسيس مدارس أولية تعتمد الحرف العربي واللغة العربية ترتفع « بالمسيد » إلى مستوى قريب من المدرسة ، فيه « فقيه القرآن » ، و « فقيه العلم » يصطنع الأول اللوحة ويصطنع الثاني السبورة والدفتر ، يصطنع الأول الصمغ السائل وقلم القصب ، ويصطنع الثاني قلم الجبس الأبيض للسبورة وقلم الرصاص للدفتر ، يعتمد الأول خطاب الذاكرة يكلّفها ما تطيق وما لا تطيق ، ويخاطب الثاني العقل يقوده في توأدة إلى الفهم وإدراك الحقائق . يأخذ الثاني من وقت التلاميذ على قدر ما تسمح ظروفه وتطوعه ، ويسمح الأول بذلك على كره منه . فهو منافس خطير يشغل التلاميذ « المحضرة » بما قد يصرفهم عن « حفظ القرآن » ويضيع جهوده سدى

عرف صاحبنا « مدرسة سيدي بناني » ، هكذا كانت تدعى ، والده كان من المؤسسين ، وهو الذي انتهت إليه رعاية هذه المدرسة ، بعد أن تخلى عن رعايتها كل الذين أسهموا في تأسيسها . ولعل صاحبنا لم يكن يجد فرقاً كبيراً بين المدرسة والمسيد إلاّ في وجه الفقيه الصبوح وهندامه الأنيق وعمامته المنسّقة التي لا تنتمي في شيء إلى عمامة فقيه المسيد . غير أن الوجه الصبوح

كان أكثر صرامة . والعينين الشهلاوين كانتا أكثر قساوة حينما يزوي بين حاجبيه ويرسل منهما نظرة شزراء تجمّد الدم في عروق الأطفال . وكان شبابه يمنحه سلطة أقوى ونفوذاً أوسع ، ويزرع في قضيبه السفرجلي قوة لا يشعر بها إلاّ رؤوس الأطفال وظهورهم وأيديهم وأقدامهم جميعاً . يكتفي أحياناً بالنظرة الشزراء فيعود الضجيج إلى القاعة الواسعة وينكب كل طفل على لوحه يقرأ ويحفظ ، أو يمثّل بضجيجه القارئ الحافظ ، وإن لم تلتقط عيناه حروف اللوح وكلماته . غير أنه ينهض من مصطبته بين الفينة والأخرى ليقوم بعملية تفتيش بين الأطفال الأبعدين منه والأقربين على السواء ، مشرعاً قضيبه السفرجلي ، تلتقط عيناه الصارمتان من كل ركن واحداً أو إثنين لينقض على رأسه أو وجهه دون أن يصيح ، حتى إذا علا صياحه أمر كبيرهم « بتحميله » فيرفع قدميه إلى السماء ويشفي العود غليليه منهما أو ينكسر

ولعله كان يسر حينما يمنحه أحد آباء هؤلاء العصاة الصغار الحرية

ـ أنت تقتل وأنا أدفن

كان ككل فقهاء « المساجد » يعتبر نفسه موكلاً بالعملية الأولى دون أن يخشى ملامة أو يبحث لذلك عن سبب . كثيراً ما كان يلتزم لأحد هؤلاء العصاة بـ « قتلة » عصا ، حتى يقنع والده بأنه قام بالواجب ، أو حتى يروح الطفل إلى عائلته وليس فيه بقية من نشاط أو حيوية ، فيعرف البيت هدوء يتلقى من أجله الفقيه الدعاء الصالح من الوالدين

لم يعرف صاحبنا هذه الحرية المطلقة تمنح للفقيه ، ولكنه ـ ومجلسه آنذاك كان قبالة الباب ـ رأى جده مرة وهو يخطو عتبتها يقف ، ولا يريم ، كان وجهه ، الجميل في شيخوخته المهيب في مشيبه ، وقد اكفهر حتى ليكاد الشرر يتطاير من بين عينيه . أدرك . فلم يكن من عادة الجد أن يزور المدرسة ، ولا يذكر أنه رآه يلج بابها . وامتدت يد الشيخ تشير من بعيد إشارة أدرك الفقيه معناها . وأدار ظهره من حيث أتى . كانت الإشارة من الجد تكفي ليأخذ الفقيه ثأرهُ كاملاً من الطفل دون أن يعرف السبب ـ ولا الطفل عرف ـ ولا أن يسأل : لماذا ؟

وكما كان اللعب محرّماً على الأطفال في المنازل ، خاصة إذا كان يشي بقمار ، فقد كان من الكبائر عند الفقيه ، وسيكون أكبرها ، إذا تم في زقاق من هذه الزقاقات التي تحيط بالمدرسة أو بالمنزل . ذات صباح اتفق مع ثلة من لداته ، وكلهم في سن مبكّرة ، أن يلعبوا « بالبيلة » انتهزوا فرصة ذهابهم لتناول فطورهم وجنحوا إلى زقاق خلفي في ركن منه مضيء . لعبوا لدقائق معدودات . كان عليهم أن يسرعوا بتناول فطورهم ليعودوا إلى المدرسة . وتشاء الصدف أن يمر الفقيه من نفس الزقاق فيقف تحت سقف مظلم منه ليشهد المنظر « المروع » منظر الأطفال وهم يلعبون في براءة « بالبيلة » كان في مكان يستطيع أن يَرى ولا يُرى . تعرف على الثلة ، منهم من يلعب ومنهم الشهود والمتفرجون . انتظر قليلاً ـ فيما يبدو ـ حتى ضبطهم في حالة تلبّس ، ثم صاح صيحته التي لا تخطئها أذن واحد منهم ، فأيقنوا جميعاً بالهلاك

كان أول العائدين من فطوره . ولم يكادوا يعودون حتى كانت « الفلاقة» في قدميّ كل منهم

كانت « البيلة » محببة للأطفال فهي كل ما يعرفون من أدوات اللعب إلى جانب الخذروف ، يلعبها الكبار ويقلّدهم الصغار . وكان الجد ـ لما به من تقى وصلاح وجد يبلغ حد الصرامة ـ لا يتصور أن يلعب الأطفال هذه اللعبة ، كان يصادر كل البيلات التي قد يشترها أطفاله حتى اجتمع له منها كيس صغير ، فاحتفظ به ولم يتلفه . في ساعة من ساعات الرضى كان يجمع الأطفال ـ من أحفاده ـ حوله ويمنح كلاً منهم عدداً ليلعبوا أمامه على زربية الغرفة ، وهو يبش ضاحكاً للغالب شامتاً من المغلوب . كانوا أسعد ما يكونون وهم يلعبون دون أن يخشوا عقاباً ، أو يبدو على ملامح الجد غضب للعبهم حتى إذا قضوا من اللعب وطرهم ، استعاد الكرات الصغيرة منهم وهو يحصيها عداً ووضعها في الكيس ليخزنه في صندوق ملابسه

كانت أهدأ الساعات وأقلّها رعباً هي التي تقضيها المجموعة المنتقاة في «دروس العلم » مع الفقيه الهادئ الجميل الوجه ذي اللحية الكثة السوداء ، تلمع عيناه الذكيتان البريئتان خلف نظارته البيضاء ، مرتدياً جلبابه الأنيق ،

متلفعاً بسلهامه الأبيض ، إذا ابيض النهار ، الأسود ، إذا اسودت سُحبُ سمائه . يدرس بصوت هامس فيشرح منظومة « ابن عاشر » ليعلّم التلاميذ عقيدة التوحيد وفروض الصلاة والصيام والزكاة والحج ، يقرب المعلومات إلى أذهانهم بلغة دارجة مفهومة ، يصدمهم أحياناً بمفرداته العلمية الصريحة ، وهو يتحدّث عن نواقض الوضوء وموجبات الغسل . وينظر بعضهم إلى بعض في استغراب دون أن تتسرب إلى شفاههم ابتسامة خجل . ويتطلع الفقيه إلى الوجوه المفاجأة ، ويدرك ما يعتمل في الصدور الصغيرة فيهتف في جدّية كاملة :

ـ لا حياء في الدين . . . عليكم أن تتعلّموا ما ستفاجأون به في غدكم القريب

يؤمن الكبار من التلاميذ دون أن ينبسوا ببنت شفة . فقد كان الفقيه يشرح بعض تجاربهم

ومن درس أستاذ الدين إلى درس أستاذ الدنيا . . . التلاوة والنحو والحساب . كان شاباً لم تعرف العمامة سبيلها إلى رأسه إلاّ حديثاً ، لم تنتظم بعد شعرات لحيته الخفيفة على عارضيه ، تلمع عيناه الزرقاوان في وجهه الأسمر . يطفح وجهه بالجد فلا تملك إلاّ أن تحترمه قبل أن تخاف منه . يواجه تلاميذه بكلمات صارمة إذا لم يفهموا . لا يطاوعه لسانه بطلاقة في نطق الكلمات . ولكن عقله يبدو أكثر براعة من لسانه ، وذكاؤه أكثر حدة من فصاحته ، وقدرته على إيصال المعلومات أكثر من قدرته على التعبير . يبدو خجولاً ، ولكنه يغضب من تلميذ ، لم يحضر مبكراً أو لم يحفظ درسه أو نسي ما تعلّمه بالأمس ، ينطق بكلماته نافذة دونها قضيب الفقيه . (١)

لم يكن أستاذ علم ، من هؤلاء الأساتذة الذين تعرفهم حلقات الدرس في القرويين والمدارس « القرآنية » فحسب ، ولكنه كان أستاذ تربية . يقوّم إعوجاج تلاميذه حتى لتشعر بأنه يعدهم للمستقبل . يعرفهم بحقيقة وضعية

---

(١) الأستاذ الشهيد عبدالعزيز بن ادريس العمراوي

البلاد في ظل الحماية . عن طريقه عرف صاحبنا معنى الوطنية ، معنى الإستعمار ، معنى النضال في سبيل التحرر من هذا الاستعمار لتصبح بلادنا كتلك البلاد التي تردد اسمها لأول مرة في عقول التلاميذ الصغار : مصر ، سوريا ، فلسطين ، الهند ، وليكون لنا رجال مثل أولئك العظماء الذين عرفتهم هذه البلاد : سعد زغلول ، الحسيني ، غاندي . . . ومن دروسه في التاريخ ارتسمت صورة ـ ذات ملامح محدودة ـ لأبطال مروا بتاريخ بلادنا : يوسف بن تاشفين ، عبدالمؤمن بن علي ، عبدالكريم الخطابي . . . كانت دروسه تتسم بالحيوية قد تبتدئ بالقاعدة النحوية وتنتهي بتطبيقها في كتاب قراءة ، ولكنه يستل تلاميذه من النظريات إلى واقع الحياة وهو يتحدّث ساخراً بابتسامته العذبة عن عمل يقوم به الحماة . لا يلفظ بكلمات قد تثير خوف الآباء إذا رددها الأبناء في منازلهم ، ولكنه يكوّن العقول لتتقبّل اللغة التي سيتحدّث بها المستقبل حينما ينضج الذين يتحدّث إليهم

تعلّم منه أن يقرأ شيئاً آخر غير القرآن . وذات صباح طلب إلى تلاميذه أن يصحبوا معهم في الدرس القادم كتاب ـ كلية ودمنه ـ

ـ كلية ودمنة . . . ؟

لم يتردد إسم هذا الكتاب بينهم من قبل . لم يعرفوا غير النحو الواضح والقراءة الرشيدة فماذا سيكون هذا « الكليلة ودمنة » ؟

ابتسم ابتسامته الذكية . فكم يكون مسروراً وهو يصدم عقول تلاميذه بالجديد

ـ كتاب ستعرفون قيمته حينما تقرأون فيه

فهو يحرص ، مرة أخرى على أن يكتشفوا هم بأنفسهم ، وألاّ يبوح لهم بالأسرار التي سيتعرفون عليها

وبدأ يقرأ معهم كليلة ودمنة ، يشرح لهم المغزى من حكاياته

أحد فقيهي « العلم » ـ كانا في بعض فترات هذا التاريخ اثنين ـ اكتشف في يد صاحبنا هذا الكتاب الغريب ، وربما كان الخطِر في نفس الوقت . تصفح

بعض ورقاته فصدمته ـ فيما يبدو ـ كلمات : بيدبا الفيلسوف

ولعله لم يكن قد سمع بالكتاب من قبل ولا عرف شيئاً من أسراره

ـ ماذا تقرأ في هذا الكتاب الغريب ؟

بلهجة عتاب واجه صاحبنا

ـ كتاب يقرأه معنا أستاذ العربية

تحوّل العتاب إلى استغراب واستنكار

ـ ألم يجد غير هذه الخرافات يملأ بها رؤوسكم ويضيّع أوقاتكم . . .؟

لم يستلب منه ثقته بالكتاب ولا بالأستاذ الذي يدرس معه الكتاب فقد فاز هذا الأستاذ بثقة تلاميذه واستبد بتقديرهم حينما انتزعهم من تقاليد ما يدرسون وما يحفظون . فتح أعينهم ـ أو كاد ـ على عالم جديد كان كليلة ودمنة الخطوة الأولى فيه . كما كان « النحو الواضح » خطوة سابقة بدلاً من «الا جرمية » و « لامية الأفعال » ولم يكن لتلاميذه قدرة على فك رموزهما

في أول عهد صاحبنا بهذه المدرسة كان يشعر بأن شيئاً ما يتردد في الحي الذي يقطعه أربع مرات في اليوم ، لم يكن يتعدّى ما بين المنزل والمدرسة . حدث ما كان يشغل الناس ، يتحدّثون عنه همساً . يذكر بعضهم أن المدينة أصبحت قاب قوسين منه ، تبدو على ملامح بعضهم الفرحة العارمة ، يجلل وجوه آخرين خوف مشوب بترقّب ، تعلو وجوه آخرين غبطة مكتومة . أحدهم كان قد شارك في « مذبحة » فاس ـ كما كان يذكرها جيداً هؤلاء الغرباء الذين لا يجرؤون حتى اليوم عن أن يتجولوا في المدينة القديمة ـ كان يرفع أطراف جلابته فوق « شكارته » ليؤكد فتوته ورجولته ويتحدّث بلغة صارمة وصوت جهوري فيه بحة الأبطال ، وكأنه يقول : هل من مبارز . كانت الأرض تهتز تحت أقدامه وهو يخطو خطواته الثابتة . نظراته قدت من نظرات صقر مفترس ، لا يدنو منه الصغار ويهابه الكبار . ولم يكن يخشى شيئاً وهو يتحدّث

ـ كِيفْ جِيتَك . . .؟ إيوَا اعْطَا لْبَابَاهُم . . .؟

لم يكن في حاجة إلى مزيد من الوضوح . الجميع كان يعرف أنه يقوّم

الحدث العظيم الذي تشهده البلاد

صاحبنا كان في حاجة إلى كثير من الشرح والتبيان وأحد كبار تلاميذ المدرسة يسر إليه

ـ لا تذكر اسمك جهراً . . . قد يصك أذى من ذلك

ويتساءل في نفسه

ـ لماذا ؟ هل إسمي أصبح مرعباً ؟ يرعب من . . .؟

لا يفضي بتساؤله إلى الآخر . ولو أفضى لما حل اللغز الذي يطفح به كلام الزميل الأكبر سناً

وبقي السؤال علامة استفهام كبرى لم يحل لغزه إلاّ بعد بضع سنوات وهو يتلقّى كتاباً من صديق ، يكبره سناً وعلماً ومعرفة ، ملفوفاً في ورق أبيض أمره أن يخفيه تحت جلبابه ولا يكشف سره لأحد . أوصاه أن يقرأه في خفية عن الناس . كان الكتاب عن حرب الريف وبطلها المجاهد محمد بن عبدالكريم الخطابي

لم يكن شيء يرهقه أكثر مما يرهقه حفظ اللوح و « تكرار الأسوار » ـ سور القرآن ـ كل أسبوع . لا يستقيم يومه إذا لم يعرض اللوح ـ الذي يجب أن يكون محفوظاً ـ صباح كل يوم . ويطول ما يجب حفظه كلما تقدّم في السن وتقدّم في كتابة القرآن وحفظه . وحتى ينجو من « فلاقة » الفقيه وعوده السفرجلي كان عليه أن يقضي ساعات من المساء ، بعد يوم شاق من العمل في المدرسة ، يكرر ما باللوح ليحفظه . كان والده حريصاً على ألاّ ينام إلاّ إذا حفظ لوحه يساعده في كثير من الأحيان فيقرأ معه لوحه عدة مرات بعد العشاء ، والنوم يأخذ بتلابيبه ، وكلما كبس عليه النوم استعصى عليه تذكّر اللوح . يقضي في هذا الصراع بين ما في اللوح من « ثمن » القرآن وذاكرته المرهقة ساعة أو تزيد ويبأس الوالد فيفرج عنه لينام ، وربما كان ذلك يوحي إليه بأن ابنه في مصاف البلداء . غير أن الصباح الباكر ـ كل صباح ـ كان « يفتح » عليه فلا يكاد يعيد قراءة اللوح حتى يجده محفوظاً

ويأتي اليوم ، الأشد محنة ـ يوم الأربعاء ـ وفيه يستظهر التلاميذ أمام الفقيه كل ما حفظوه من « أسوار » القرآن طيلة الأسبوع . تبتدئ محنة التفكير في يوم الأربعاء منذ يوم الإثنين . الفقيه لا يلبث أن يذكّر التلاميذ «بالأسوار» . وهم يوزعون يومهم ومساءهم بين حفظ اللوح واستعادة ما حفظوه في الأسبوع ، وهم يتلمسون إلى ذلك كل السبل . نوعان من الأطفال لم يكونوا يأبهون ليوم الأربعاء : أولئك الذين يتمتعون بذاكرة قوية ، ولا يستطيع إرهاب الفقيه أن يطمس حدتها ويحد من قوتها ، وقليل ما هم . وأولئك الذين لا يهمهم في شيء أن يحفظوا ، لأن الفقيه أكّد لهم أنهم « مشمعون » ، ولا يرجى منهم نفع . وهم لذلك يؤمنون بقدرهم الذي يبدأ من يوم الأربعاء : أرجلهم وأيديهم ورؤوسهم جميعاً على موعد ـ لا إخلاف فيه ـ مع فلاقة الفقيه وعوده السفرجلي الحاد . لم يكن صاحبنا من هؤلاء وأولئك . ذاكرته لم تكن تقوى على الحفظ وعلى مقاومة الإرهاب في نفس الوقت . ولعل خوفه المتجدد كان يحد من نور حافظته . لذلك كان يلجأ ـ بعد أن يتخلّى عن كل ملاعبه وراحته ـ إلى عتبة الولي الصالح ، « مول » البلاد ، مولاي ادريس رضي الله عنه ، يستعين ببركته ليمنح ذاكرته قوة ، وينجيه من عذاب يوم الأربعاء . لا ينسى أن يجمع ما يمنحه والده من قروش ليقدّم بمجموعها شمعة صغيرة ـ محلاة بالورق المنقوش الملوّن ـ لتنير ضريح الولي الذي لا ترد شفاعته ، مع بقية شموع أصحاب الحاجات . ولم يتردد في أن يستجيب لنصيحة زميل له . بعد أن يتضرع إلى صاحب الضريح أن يفتح بصيرته للحفظ ـ فيلحس بلسانه الرخامة الوسطى على أرضية الباب الوسطى من الأبواب الثلاثة « التويميين » التوأم . لم يستنكف من وساختها وقذارتها عن أن يكب عليها بلسانه ، وكأنها ثالثة القبلتين . ولعل الشمعة والرخامة القذرة لم تكونا لتنيرا حافظته . ومع ذلك كان ينجو من عذاب اليوم المشهود ، لأنه كان يبذل من الجهد ما تنوء به طفولته . غير أن أستاذ العربية ذاك ، الذي كان ينير طريقه في الحياة ، أنقذه من الأمل في غير الله ، فأخذ يوفّر نقوده وابتهالاته لينصرف إلى عمل أكثر جدوى ، ويقتلع من نفسه البريئة الرعب الذي كان حرياً أن يخرج منه شخصاً معقداً

ـ ألَمِ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هُدَى لِلْمُتَّقين

عمت البشرى وجه الفقيه ، وانتقلت إلى معاملته لتلميذه . فقد أصبح من « الكبار » الذين آن لهم أن « يختموا » حفظ القرآن فهذه السورة الأخيرة في ترتيب الحفظ والإستظهار . ولم يكن صاحبنا أقل بشرى من الفقيه ، فقد أصبح « فقيهاً » يحفظ القرآن كله يستطيع أن يجلس في صفوف الكبار ويبارى الحفظة منهم . ولعله ـ إذا مكنه سنه من ذلك ـ يستطيع أن يتبارى مع الحفظة في محراب القرويين ليؤم بالناس ركعتين أو أربعاً من ركعات التراويح ليلة القدر . لم يطل به الأمر وهو يحفظ سورة البقرة ، فقد أخذ الفقيه يملي عليه «ثمن حزب » كل يوم فلا يجد صعوبة في أن يكتب ما أملاه الفقيه دون أخطاء تذكر ، إلاّ ما كانت من « الثابت »و « المحذوف » و « الهمزة على الواو أو في السطر » فقد كان يسأل فيجيب الفقيه دون إحراج . وكان ختام السورة بعد أسابيع قليلة

« ـ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . . .؟ »

كان الحفل المشهود الذي أقامه الوالد للأساتذة وكبار التلاميذ والأقرباء والأصدقاء . وكان الثُّمن الأخير . وقد كتب كل فقيه آيتين أو ثلاثاً منه بخط يده ـ بمثابة « بركة » من كل منهم ـ تحل بالتلميذ ليكون بها فقيهاً يشار إليه بالبنان . كانت كتاباتهم شهادة التخرّج ، وإجازة « الفقاهة » في القران

ظل صاحبنا مرتبطاً بالمدرسة . يعيد « السلكة » ـ حفظ القرآن للمرة الثانية ـ ولكنه كان أكثر ارتباطاً بدروس « العلم » والعربية والحساب . فقد هيأت له المدرسة ما لم يُهيأ لمن هم في سنه ممن لم يلتحقوا بالمدرسة من المعرفة بالمبادئ الأولى بعلوم الفقه والتوحيد والعربية والحساب والتاريخ والجغرافية غير أن أهم ما حدث من تغيير في حياته أنه تخلّص نهائياً من « الإرهاب » الذي تملّك نفسه منذ اليوم الأول الذي عرفه فيه المسيد ، ثم المدرسة كما يتملّك نفوس كل الأطفال الذي يقضون جزء من طفولتهم في المسيد

4

وهو طفل صغير يلعب « الأين » في الدرب ، حينما يطمئن إلى أن جده أو والده ـ يرحمهما الله ـ لن يعودا إلى المنزل ساعتذاك ، قيل لهم ـ أطفال الدرب ـ إن القرطبى الحجام الأنيق الوقور المحترم الذي يسكن داراً ـ يحسبونها صغيرة أنيقة نظيفة ـ من دور الدرب قد أخذ بيد ابنه إلى « دار الباشا » ليؤدبه على مخالفة ارتكبها . ويحسب صاحبنا أن الإبن كان فتى يافعاً قد بدأ الشباب يطلّ من عينيه وصوته وعارضيه جميعاً . كان فتى حيياً هادئاً لا يشارك أطفال الحي ألعابهم ، لا يسمعون منه إلاّ كلمة عابرة ، ولا يواجههم إلاّ بابتسامة حيية ، ثم يختفي إلى حيث لا يدري أحد . هل كان يعمل مع والده حجاماً أو يحترف حرفة أخرى ؟ ليس يدري صاحبنا أي شيطان حدا بهم ليذهبوا إلى دار الباشا ، رغم أن موقعها لم يكن ينتمي إلى موقع حومة «الصاغة» التي يثوي فيها « درب حجر النار » . ولم تكن معارفه عن المدينة تعدو الحي الذي تسكنه العائلة . ولكي يذهبوا إلى دار الباشا في « زقاق البغل» كان عليهم أن يقطعوا حيين أو ثلاثة . وكان ذلك بالنسبة لأطفال من سنهم خروجاً عما ألفوه من التزام الحدود المرسومة ـ في سنهم تلك ـ حتى لا يعتبر عملهم صعلكة يحاسبون عليها بقضيب سفرجلي عند فقيه المسيد

اجتازوا الحدود ثم الحدود ، ودخلوا دار الباشا ابن البغدادي : عرصَة كبيرة عريضة فيا يبدو لهم ، تتوسطها أشجار « اللرنج » على جانبيها أبهاء ، تتوسّط بهوها الداخلي غرفة كبيرة « قبة » . تتوسّط القبة جثة عارمة . ما رأت عيناه أضخم منها ، ولا أكثر مهابة ، ولا أنصع لوناً في حمرة بدوية ، ولا أجمل وجهاً ، تحيط بدائرته الخمرية لحية كثة بيضاء تلتقي بـ « ناظرين » كثين

يندان عن عمامة ملفوفة بحذق فوق « شاشية » حمراء . يكتسي جلابية حريرية بيضاء ، يتلفع بسلهام حريري ـ أو هو صوفي ـ . بيده منديل مخطط وعلبة نشوق

من بعيد كانوا ـ الأطفال الثلاثة أو الأربعة ـ يتلصصون . يجيلون النظر في جوانب « دار بوعلي » ـ وهي دار الباشا ـ ومنها تصدر الأحكام ، التي لا استئناف لها ولا نقض ولا إبرام . وفيها تنفّذ الأحكام التي لا راد فيها لقدر ولا لقضاء

كان اللغط يدوي في هذا الجانب أو ذاك من الذين تمتلئ جوانب دار بوعلي بهم ، أتحسبهم من المتخاصمين الذين وفدوا على الدار ، وكل منهم يدلي للآخر بحجته ، دون أن يطمع في إقناع . وكل منم يهدد صاحبه بالويل الذي ينتظره من المخزن

ـ المخزن الله يطوّل عمره سيريك النجوم في الظهر

ـ أنا بالله والشرع . المخزن يده طويلة

ـ طويلة على الذين « يجغمون » حقوق الناس

ـ والله وماتسكت حتى نخرج لك بلابلك

ـ أيوا قرب لي أصليب

صراع كلامي خطير تحسب أنه سينتهي بسيفين مصلتين يبارز أحدهما الآخر . ولكنه يقف عند نظرات شزراء ، لا يطل منها حقد دفين ، ولا شر مستطير

ويتوقف اللغط و « ابن عتروس » ـ يد التنفيذ اليمنى عند الباشا ـ يصهل .

ـ أصلا على النبّي

يتوقّف كل جدل وكل لغط . يسود دار بوعلي هدوء صامت يجلله خوف قاتل ، إلاّ من صوت الباشا الأجش ، يسمع من بعيد ، وهو يصدر حكماً ، أو ينادي على خصمين . يتلوه صوت جهوري من الرجل الطويل القامة الباسم

الثغر ، يلبس قفطاناً أزرق سماوياً أو أصفر كنارياً ـ لم أعد أذكر ، عليه منصورية شفافة . يحترف هو الآخر يخنجر فضي ـ دون خنجر الباشا طبعاً ـ تتدلّى من فوديه كومتان من شعر على لحية وخطها الشيب ، يتحرّك بخفة رغم كهولته لو وضعته مكان الباشا ووضعت الباشا مكانه لما اختلف الأمر . يعلو الصوت جهورياً في نغمة لا نشاز فيها

ـ الله يبارك في عمر سيدي

مر خصوم ، وفُصلت أحكام ، وخرج خصمان يتلوهما خصمان ، وخصمان ، مع كل منهما مخزنى يتكئ على عصاه ويعتمر قلنسوة حمراء يسير الهوينا ـ بعد أن يقبض السخرة من الخصمين ـ يتوسطهما ، وهو يعظهما بنهاية الجدل والخصومة بعد أن أنهت كلمة « المخزن » قولة كل قائل . يذهب معهما ليستقرئ الشهود . ويعرج بهما على « مولاي ادريس » ليقسم من أنكر منهما اليمين أمام ضريح الولي الصالح ، ويقدّم البَينة من ادعى . . . وعند ذلك يصدر الحكم المعلّق من فم المخزني كما لقنه إياه الباشا

ـ أعطه حقه ، وإلاّ . . . أزفل وحبس زقاق البغل

وتنتهي الخصومة فيؤدي المعتدي الحق للمعتدى عليه . ويعودان صديقين كما كانا . . . خوفاً من أن يوقعهما اللجاج بين يديّ ابن عتروس وبين يديه تنتهي كل خصومة ويقطع دابر كل خلاف

وفي دار بوعلي ، وعلى مبعدة من مقعد الباشا ، وهو يتربّع وسط القاعة « القبة » على زربية تعلوها لبلدة أو لبدتان ، يسند ظهره الضخم على مخدة أو مخدتين . ويفهم ابن عتروس فيمسك بالمتقاضى من قفاه يركعه حيث لا قبلة لصلاة ، يتمتم بلا قرآن ويفهم الباشا ، وابن عتروس يستحثه على أن يرفع صوته . ويقول القرطبي ـ الرجل الفاضل الذي لم يرفع صوته قط بشكوى

ـ أسيدي ـ أنا في عار الله وعارك ـ ولدي خرج الطريق . والمخزن يده طويله

تنتصب قاماتهم وهم يتطاولون على رؤوس أقدامهم ليروا بأعينهم ما لم

تكد أسماعهم تدرك . يجري حوار قصير بين الباشا وعمى القرطبي الحجام ويهدر الصوت من بعيد

آبن عتروس . . . آرى « الماعون »

ماعون ابن عتروس حاضر جاهز . مخزنيان أو ثلاثة يحيطون به ، تمتد أيديهم إلى « الماعون » المعلّق على جدار بهو القبة . لا يكاد زئير الباشا يجلجل حتى تمتد الأيدي إلى الفتى الصغير الذي طالما لاعب أصدقاءه « الأين » فغلبهم . ويطرح الفتى على وجهه ، لا يدري أحد أكتمت أنفاسه أم ظلت رئتاه تصعدان ؟ ابن عتروس يجلده على ظهره ومؤخرته ، حتى ظن الصغار ـ وظنهم ليس باثم ـ أن الفتى قد نفق

كان الوالد القرطبي ـ الرجل الطيّب الهادئ الوقور المهيب ـ يقف شاهداً على أن المخزن « يربى » ابنه الفتى الذي استعصى عليه أن يربيه . وكان ساعد ابن عتروس يرتفع حتى يستقيم منه الظهر ثم ينخفض بالسوط الجلدي « أزفل » حتى يركع لغير قبلة ولا صلاة . وكان الفتى يحتمل ولا يجأر بشكوى خوفاً من أن يكون لشكواه عقاب . وكان أطفال الدرب شهود عيان يتلقون درساً في التربية والتأديب . كان صاحبنا في سره يحمد الله على أن والده ليس قرطبياً وافداً من قرطبة إلى فاس . وأنه لم يرتكب إثماً من آثام الأطفال ، يدفع بوالده ، وما كان ليفعل ، إلى أن يرمي به بين يديّ الباشا وابن عتروس

لعل الباشا قد شغل بغير الفتى القرطبي . لعل ابن عتروس لم يكن ليتوقف بغير أمر من الباشا ، لعل الوالد الطيب الهادئ الوقور لم يكن ليجرؤ فيسترحم الباشا ، وظل الفتى تحت سياط ابن عتروس ، لا يدري أحد أكانت مائة جلدة أو مائتين . . . ولكن الذي سمعه الأطفال بعد أن طال بهم الإنتظار أن الباشا زأر أخيراً

آلعفو

وتوقفت سياط ابن عتروس بعد سوط أو سوطين كانا زيادة (عبّاسيّة) منه في العدد يرجو ثوابهما من الله

خرج الأطفال مسرعين من دار بوعلي . لا يكاد أحدهم يلفظ ببنت شفة . كانوا مأخوذين بمنظر الفتى القرطبي الذي طالما قاسمهم اللعب ، ولم يعرفا عنه غير الإستقامة والهدوء والكلمة الطيبة . كان ابن والده فيما يبدو فقد ساقه إلى حكم ابن البغدادي ومجلدة ابن عتروس . كان الحكم والجلد يشقى بهما كبار المجرمين وصغار الأطفال على السواء . وكانت دار بوعلي تثير الرعب في قلوب الذين يمرون من الحي (زقاق البغل) . وكانت تلك هي الصورة الأولى عن بوشتة إبن البغدادي

تمام القصة أن صاحبنا لم يرَ قط ، فيما استقبل من حياته ، الفتى الصغير القرطبي . ما يظن أنه عاد إلى منزل والديه . فقد كانت باب « دار القرطبي » تخفي سراً من أسرار الكون ، لا يعرف أحد من سكّان درب حجر النار ما وراءها . لا يستلف منها الجيران خبزة إذا ما خلت الدار من الخبز قبل أن يختمر ، ولا ناراً إذا خلت من وقود ، ولا مهراساً ، ولا حبة ملح ولا قطعة سكّر

كان صاحبنا وهو يستمع إلى حديث أستاذه يعيش بذاكرته داخل المسرح . الأستاذ مكان ابن القرطبي . وبقية الصور ماثلة لعينيه الدامعتين

5

وما يزال صاحبنا يلتصق بالمنزل يجالس النساء ، كلما وجد في المنزل نساء من خارج الحصن الحصين . ويجالسهن كلما اختلين إلى بعضهن في عمل ، من الإنصاف لهن أن ندعوه عملاً شاقاً . كان حديثهن لا يبعد عن عملهن . اجترار للأمس وتحضير للغد . الآنسات والعانسات منهن يطفح حديثهن برموز تنم ابتسامتهن عن شيء خفي يتلصص من عيونهن الطافحة بالأمل ، بالبهاء ، بالشوق . . . باليأس ، بالخيبة ، بالرضى بالمكتوب

وينتهي هذا الحديث وذاك في لحظات ، مهما طالت فهي قصيرة ، في فضاء الفراغ القاتل الذي لا يملأه إلاّ التطريز في المرمة أو الخياطة بالمكينة . غير أن الحديث عن الصحة والأمراض يملأ جانباً من ثرثرة الضيفات ، وأحياناً ربّات البيت والخادمات ـ السيدات

ويتملّى صاحبنا بحديث المرض . فهو عليل ، ولو لم تكن به علة انتابه سعال فهو إذن مريض . . . شعر بإرهاق في المسيد أو المدرسة فهو إذن مريض . . . أشفقت أمه من أنه لم يستطع أن يلتهم كل فطوره أو غدائه فهو إذن مريض . . . فكّر في أن يتغيّب صباح يوم ما عن المدرسة فهو إذن مريض

وسمع الكبار يتحدّثون عن المستشفى الجديد في « رأس الجنان » ـ قلب المدينة ـ يشرف عليه طبيب مسلم من الجزائر . . . شريف الحسب والنسب ، يختلف عن مستشفى قصبة النوار ـ في أطراف المدينة يشرف عليه طبيب نصراني يستقبل الوافدين على باب المستشفى وقضيب السفرجل بيده ، ينش به على هذا وتلك ، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز مكانه ليدخل البوابة في غمرة الزحام إلاّ كان قضيب الطبيب له بالمرصاد . بهاء الطبيب وجمال وجهه في

شيخوخته يدعو إلى الاحترام أكثر من يدعو إلى الخوف أشقر الوجه ذو شنب كث أبيض ، عينان زرقاوان حادتا النظر تملأهما صرامة في غير قسوة ، تشعر بحدبه على مرضاه ، ولو نش بعصاه على رؤوسهم ، يداوي كل الأمراض ، من الحلق والحنجرة حتى جراح القدم ورمد العيون ، يرطن بكلمات : أكرج . . . أدكل . . . أنت يجي . . . هي كل زاده من اللغة العربية . يدفع بالوافدات والوافدين أن يتزاحموا على بوابة « العرصة » التي تحوّلت إلى مستشفى . ولم يكن مستشفى « رأس الجنان » يحظى بهذا الإزدحام ولا الطبيب فيه يحمل قضيباً ينش به على المرضى . وإنما كان شاباً جميل المحيا تعلو وجهه الممتلئ صفرة لا تنسبها إلى كلل أو مرض ، قوي الحركة سريع الخطو ، يلبس ملابس أوروبية ، ربما كان الوحيد بين سكان المدينة من المسلمين من يلبسها ، تطفر من عينيه ابتسامة غامضة ، يستقبل المرضى في وداعة ، يعالج مرضى العيون والصدر والقلب والجلد على السواء . . . يعطي الدواء لكل مريض لا يدري هو نفسه ـ لعله ـ إذا ما كان يشفى علته أو يعوّضه على الأقل من فقر الدم وضعف البنية ونقص الغذاء . صورة متحضّرة لبائع الأعشاب في ساحة الصفارين أو باب المحروق وهو ينادي : ها « الذّوا » هذا الذوا . . . للعاقر وتحريك « الراقد » والمصدورة والسقيم والقاصر عن . . . ما أكثر اللائي يترددن على طبيب باب المحروق . ما أكثر الذين ، واللائي ، يترددون على مستشفى « رأس الجنان » ومستشفى قصبة النوار ، فلا طبيب غيرهما في المدينة إلاّ الفقيه السلاوي وكتاب « الحجاب » ، والذين يطردون الجن من النفس إذا سكنها وعبث بعقل صاحبتها

بدأ طبيب مستشفى « رأس الجنان » يحتل مكانته في المدينة فهو المسلم الشريف الذي استطاع بدهائه أن يملك طب النصارى ، وهو الذي يرزق الله الشفاء على يديه ، مهما يكن المرض الذي يعالجه ، وهو الذي يفهم عن المرضى ويتحدّث لغتهم ، لا يرهبهم بقضيبه ولا يزأر في وجههم كما يفعل النصراني طبيب قصبة النوار . ولعله لا يملك ما يملكه النصراني من سلطة تمكّنه ممن وضع العصا في وجه المريضة والمريض ولعله لا يريد ذلك ، ولو ملك

السلطة ، فهو طيب يحمل وجه نبيل

وأدرك صاحبنا ـ من حديث الكبار ـ أنه الطبيب الذي يعرف علله ، ويمكن أن يشفيه وأن التردد على المستشفى يمكن أن يريحه ـ مرة كل أسبوعين على الأقل ـ من جحيم المسيد أو المدرسة بوجاهة تغيبه دون أن ينال عقابه ، وما أقساه من عقاب

كان طبيب « رأس الجنان » لا يبكّر في الحضور إلى المستشفى الذي يستقبل مرضاه منذ الساعة الأولى من الصباح . فتكفيه ساعة وبعض ساعة لعلاج كل المرضى ولو كثروا . وللمرضى ـ وكان صاحبنا منهم ـ شباباً وفتياناً وشيوخاً ، نساءً ورجالاً ، غرف أخرى يتلقون فيها علاجاً من نوع آخر ، لم يعهد الناس أن يتلقوه في المستشفيات . ويدخل صاحبنا إلى إحدى هذه الغرف كما يدخل التلاميذ إلى قسم المدرسة . إلى جواره شيخ في الستين وسيدة في الأربعين على كراسي كما لو كانوا سيستمعون إلى محاضرة . وتدخل سيدة أو هما سيدتان ملفعتان بردائهما الأسود ، تضربان بخماريهما الأبيض على رأسيهما وجيبيهما تطوقان وجهيهما الجميلين الشاحبين بعصابة من خماريهما . تجلسان كملاكين ، تبتسمان في وداعة بعينيهما الزرقاوين . الممرض الذي استقبل المرضى وأشرف على إدخالهم الغرفة يقف بالباب فاغراً فاه ، وكأنه شاهد محايد ، يستمر الحديث العذب بلغة فرنسية ـ غير كلمات عربية ركيكة لا تبين تتردد فيها كلمة عيسى ـ لم تكن في « المجتمع المقدّس » ذاك لغة تواصل رغم ما يقال عن الفرنسية بأنها لغة وضوح . لعل الشبّان من الحاضرين كانوا معجبين بالوجهين الجميلين . لعل النساء والشيوخ كانوا يحسبون الحديث العذب ـ غير مفهوم ـ من تمام العلاج . الفقيه يقرأ على المريض آية الكرسي ، يشفى ، ويقرأ على من مسه صرع أو ضربه جان : « قل أعوذ برب الناس » فيعود إليه الرشد ويطرد الجن الوسواس الخناس من النفس المريضة . . .؟ وتقرأ هذه « الطبيبة » الجميلة قرآنها بلغتها فقد يأتي الله بالخير على يدها . . . لعل الأطفال كانوا يسترجعون صورة الفقيه وهو يملي عليهم آيات من القرآن لا يفهمونها ، ولو حفظوها . . . غير أن صاحبنا أدرك ، وقد تكررت صورة

الراهبتين الجميلتين أمام ناظريه ، وهما ترسمان في الفراغ علامة الصليب أنهما مبشرتان . لعله سمع شيئاً من هذا يتحدّث به الكبار عن النصارى الذين «اختطفوا » في فرنسا شاباً من عائلة مغربية عريقة فأصبح نصرانياً

لم يرعبه الحديث . كان يتردد في شوق على المستشفى ليجلس إلى الراهبتين الجميلتين وهما ترطنان بكلام لم يكن يفهمه ، وتشيران إشارة لم يكن يدري مغزاها . كانت لهما قدسية طاهرة

اختفت الراهبتان الجميلتان ، لا يدري كيف ؟ ومتى ؟

واصل تردده على المستشفى ، يراوح بين هذا المستشفى القريب الذي يكاد لا يبعد به عن دروب المدينة وزقاقاتها الضيّقة ، وبين ذاك البعيد الذي يخرج به عن أسوار المدينة ، حتى إنه ليرى من حين لآخر عربة تجرها الخيول ، أو سيارة ـ ونادراً ما تكون ـ يدفعها محرّك سحري ، لم تكن مما يألفها الأطفال عادة ، فقليلاً ما يغادرون الأسوار السامقة العالية التي تحتضن المدينة بين أذرعها الكالحة المترهلة . كان يزعم لنفسه أنه مريض ، وكانت نفسه تزعم له أنها مريضة . كثيراً ما يتهاوى جسمة فلا يقوى على مواصلة المسيرة الجادة بين المدرسة والمنزل ، كثيراً ما يجد نفسه ، وقد أنهكه مرض لا يدري سره ، غير أنه يلجأ إلى أمه فتشفق عليه ، وتشجّعه على التردد على المستشفى . وما يدري ما إذا كان الطبيب يعرف له داءً أو دواء ، ولكنه يعطيه مشروباً مراً شديد المرارة أو حلواً شديد الحلاوة ، ويكون سعيداً بهذا الدواء يقنعه بأنه أبَلُّ من مرضه إلى حين

تنوعت أمراضه فأصبح « يهترف » في الليل أحياناً حتى ليزعج أمه فتنهض إليه من فراشها مشفقة مذعورة

ـ باسم الله عليك أوليدي . . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم عرفتها . . . العين المنحوسة . . . الله يحفظك من شر ما خلق

يعود إلى نومه ، وإن لم يكن بينه وبين الشيطان الذي أطبق عليه صلة معرفة ولا خصومة . ويرى ، أحياناً ، هذا العفريت الذي يخرج من الدويرية

«المطبخ» بيديه العملاقتين وقدميه القزميتين وعنقه الطويل ، ووجهه الشيطاني الأسود ، شديد السواد . يداهمه فيرسل صيحة يستيقظ لها والده وأمه وأخته جميعاً ، ويظل هو في نومه العميق المضطرب ، وكأنما نجا بصيحته من الجني الذي داهمه فكاد يفقده رشده . تعود إليه أمه تحتضن رأسه بين ذراعيها ، وهي تقرأ ما حفظت من المعوذتين ، كيفما اتفقتا في حفظها ، حتى إذا عاد إليه هدؤه عادت إلى فراشها وهي تفكّر في إنقاذ الولد من هذا الجني الذي يركبه ولم يكن الإنقاذ إلاّ على يد فقيه يكتب له « حرزاً » حجاباً يقيه فتنة الشيطان وعدوان الإنس والجان

يعود نهاره ، وهو يختلف إلى مجالس النساء أو مجالس أطفال المدرسة ، كل منهن تحكي قصة من هذه الحكايات التي يخرج فيها « أهل الأرض » عندما ينام سكانها فيأكلون ويشربون ويحتفلون ويرقصون ، وويل لمن يستيقظ من نومه يحاول أن يتلصص على جمعهم أو يفسد عليهم فرحتهم . . . وكل منهم يحكي كيف أمره الجان أن يشعل شمعة كل ليلة جمعة يضيء بها ظلام الجان الذي يسكن في آخر الدرب . وكيف تخلّف في ليلة جمعة فدخل الجان نفسه وسكنها ، ويحتاج إلى فقيه مقتدر لتخليص نفسه من الجن الرجيم يقسم على ذلك

يخلو الدرب من الإنسان المتحرّك بعد صلاة المغرب فيسكنه الجن مع الظلام . وتتحرّك القطة تبحث عن غداء في القمامة فيحسبها جناً أو شيطاناً وتتحدث النسوة عن طفلات اختطفن من ديارهن فوجدن خارج باب الفتوح عاريات لأنهن سكبن الماء ساخناً في « القادوس » فأحرق بذلك جلد طفلة جنية . خطفن انتقاماً منهن من أمهاتهن اللائي لم تحذرهن من أن يسكبن الماء الساخن في القادوس . ولو عدن إلى ذلك لما ظهر لهن أثر

ذات ليلة من رمضان أمره عمّه ، وكان على أهبة سفر ، أن يطرق منزل سيدي فضول الساعاتي . كان يسكن منزلاً في آخر « مجمع دروب » زنقة حجامة : درب يُسْلكُ إلى آخر ، قد تعرف أول الزنقة ولا تعرف آخرها . بباب الدار وقفا ـ وابن خاله معه ـ يدقان الباب في عنف يلحفان على النائمين أن

يستجيبوا ، على سيدي فضول أن ينهض من نومه ليعطيهما الساعة التي استقرّت في دكانه ـ معمله ـ الشهور ذوات العدد . لم يستجب أهل الدار ولا صحا سيدي فضول رغم دقّات الخرصة العتيدة

ـ تعال أنظر . . . هناك . . . هناك

قالها ابن الخال وفمه يرتعد كأن به حمى

تلفت صاحبنا . نظر هناك

ـ ماذا ؟ قطة تبحث عن فأر

ـ لا أنظر جيداً في آخر الدرب . حقق النظرة

تطلّع جيداً . أرسل عينيه الحادتين إلى بعيد . كانت هناك . . . . شابة بضة عارية كما ولدتها أمها ، بيضاء مسدلة شعرها الفاحم ، بعينيها السوداوين . كانا في ملتقى نظراتهما . انطلقا يعدوان في الفراغ . لا أحد يتحرّك في الدروب المتشابكة . الليل والظلمة والوحشة ، والقطط تتنافس بموائها المثير للخوف . لم يمسكا بأنفاسهما إلاّ بعد أن تخلّصا من الدرب الملعون

ما زال بياضها وجمال عينيها وشعرها الفاحم المرسل على كتفيها كشلال أسود ، ما يزال كل ذلك يسكن نفسه . كانت تزوره أحياناً إذا غفا فيجري هارباً منها ويصيح . يفيق فيجد رأسه بين يديّ أمه وهي تقرأ المعوذتين .

ويعيش يومه وليله مع إرهاب الفقيه وتهديده بالعصا إذا هو لم « يعرض» سور القرآن عن ظهر قلب ، فيركبه هم النهار وانزعاج الليل . يعاف الأكل فيتداعى جسمه فهو مريض . ويستغرقه التفكير وتغتم نفسه فيؤوى إلى ركن مهجور ، لا يلعب مع لداته ، ولا يحدث ضجيجاً في البيت مما يحدثه الأطفال في سنه فهو مريض . ويشرب من الماء الذي تشربه المدينة ملوثاً ـ ولو نبع من عين باردة ـ فتصاب أمعاؤه بالعطب فهو مريض . وتزفر جهنّم زفراتها الصيفية في المدينة فتتبخّر الأنهار التي تصب فيها كل فضلات المدينة ، ويزحف البعوض يحمل معه كل أنواع الحمى للأجسام التي لا تحتمل ولا تدافع عن نفسها ، فهو إذن مريض

أدركه المرض حقيقة ووهماً . وكان عقدة العقد في نفسه الحسّاسة أقنع نفسه وأقنعته نفسه . وما يزال يلح المرض به حتى أصبح مريضاً

كانت أخته تعاني . كل يتحدّث عن علتها ومعاناتها . أمه مهمومة من مرضها . لا يعرف أحد علّتها . قد تكون « تشيرت » هي الأخرى بجنية أو جن ، لا أحد يدري . البنات ـ وحتى الصغيرات ـ لا يعرضن أنفسهن على طبيب . من بعيد يكتب « الفقيه » حجاباً مستوراً ، وتعلّق الحجاب تحت ملابسها سبعة أيام . . . سبعة أشهر ، فلا تذهب العلة ولا تريم . ويُتحدّث عن « فقيه » يهودي ، ليس « حزانا » ولا ربيا ، ومع ذلك فيده مبروكة ، ويلجأ إليه والده ليكتب حجاباً ، أو شيئاً لا يدريه أحد للبنت . يختفي الدين ، والعلاقات المشبوهة بين اليهود والمسلمين . وتبرز ظاهرة التعاون والثقة . ففيهم ـ تقول الرواية ـ صالحون وفقهاء ـ « الله يلعنهم » ـ يعرفون ما يعرفه المسلمون ويكتب اليهودي الحجاب للبنت المسلمة . وتثق العائلة في فقهه ، تحترمه وتقدّره ، تلعنه وتتحجّب بحجابه وتعلّق البنت الحجاب على جسدها كما أشار الفقيه اليهودي . وتبقى البنت مريضة ، وما هي بمريضة ، إلى أن تتزوج بعد أن أصبحت في سن الزواج ، ولم تسمع العائلة شيئاً ـ بعد ذلك ـ عن مرضها

تفد سيدة على المنزل فقيرة عمياء من سكان الضواحي . شريفة من نسل مولاي علي الشريف . هكذا قالت ، تحمل داخل ثيابها رزمة بها مجموعة من الخرق ـ قديمة حال لونها واتسخ ، تمزّقت أطرافها ـ كل منها تحوي مادة يختلف لونها وطعمها وريحها عما ألفه العشابون ، وما تعرفه العجائز من ربات البيوت . دواء لكل داء . طبيبة كانت تمسّد الأجساد وتدلك الأعضاء وتصف الدواء لكل داء ، وتمنح الدواء لمن لا داء له . الوقاية خير من العلاج . وتحبب الأستشفاء ـ على يديها المبروكتين ، يدي الشريفة للافاطمة ـ لكل من يتحرّك في المنزل ، ولو لم يشعر بأي انحراف . تفد على المنزل فتصبح كل السيدات والبنات والأطفال ، وأحياناً الرجال إذا شعروا بإرهاق أو بحاجة إلى تدليك أجسامهم ، كلهم يستشفون على يدي للافاطمة . تتحسس الجسم أو تكتفي بسماع الأعراض ، أعراض التعب أو الإرهاق أو المرض ، ولو كان مغصاً عارضاً

أو صداعاً راحلاً . تمتد يداها إلى رزمتها ، تأخذ قليلاً من هذه الرزمة الصغيرة وتلك والأخرى تخلطها جميعاً بسكر أو ملح أو زيت أو عسل أو ماء . يتناوله المريض : بالشفاء إن شاء الله . بعد ساعة أو ساعتين ستختفي كل مظاهر المرض . يحدث إسهال بعد عسر . قد يستمر الإسهال يومين لا خوف فإن الحنش سينزل من حيث لا تحس ولا تدري . دواء لكل مريض ومريضة تختلي بالنساء عادة وتمنحهن من دوائها ما تستحق من أجل تعويضاً طيباً

استعصى عليها صاحبنا ، فقد أنف أن يأخذ الدواء من يدين قذرتين لا تعرفان الماء والصابون إلاّ لماما . تناديه وتلحف في النداء ، تحبب إليه الاستشفاء . أمامها يزعم أنه غير مريض . تمسك به مرة ، وقد اقترب منها ، ضاحكة مستبشرة بأنها أخضعت زبوناً جديداً . يسلم قياده إليها . تتحسس بطنه وصدره . يداها مغموستان في الماء ، كانتا قبل ذلك تدلك جسم سيدة بالزيت والحرمل . امتنع أن تمس جسمه بالزيت فاكتفت بالماء المزيت تتحسس الجهة اليمنى من صدره . تتوقف شبه مذعورة

ـ آسيدي قلبك مريض

ـ وكيف عرفته مريضاً ؟

ـ إنه يدق

قال لنفسه وهو يتخلّص من قبضتها

ـ أو أرادته أن يتوقف

6

« السلكة » الثانية كانت إعلاناً لسن الرشد . أصبح في مكان مرموق لدى والده ولدى فقهاء القرآن والعلم وأستاذ العربية جميعاً . الفقيه يتحدّث إليه في ود ، وكأنه صديق محترم . والده يستشيره أحياناً في شؤون العائلة الخاصة ، أحياناً في شؤون تجارته . فقيه العلم ينقله مع زملاء له إلى ـ « طبقة » أعلى فيدرس معهم مبادئ المعاملات بعد مبادئ العبادات . أستاذ العربية يشير عليه بكثير من الكتب التي يعرف أنها فوق مستواه

ـ ولكنك يجب أن تقرأ ثم تقرأ . فالدرس ليس إلاّ سبيلاً للتعرّف على ما يجب أن تقرأ من كتب

« لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم « لشكيب أرسلان » ، « أم القرى » للكواكبي ، « رسالة التوحيد » لمحمد عبده . . . أسماء جديدة في عالمه اتخذ منها أصدقاء رغم عسر الهضم . ولكنها كانت حافلة بالمشاكل . عن طريقها عرف أن الإنسانية بؤرة مشاكل . . . أن العقل كفيل بأن يحل هذه المشاكل من نوافذها المشرعة ـ خيّل إليه أنها مشرعة جداً ـ أطل على عالم حافل اسمه العالم الإسلامي . تطلّع إلى أن يقرأ حاضر العالم الإسلامي بتعليقات شكيب أرسلان . ترددت في ذهنه : القاهرة دمشق بغداد القدس لاهور حيدر أباد وكانت الصحيفة بعد الكتاب : الأهرام ، العرب ، الزهرة . . . انتصر على الحرف وهو يقرأ . لم تعد الصفحة المليئة ـ دون عناوين ـ ترعبه . لم يعد الكتاب الذي تجاوز صفحاته المائة يستعصي على طموحه . يفهم الكثير مما يقرأ ، يتجاوز عما غم عليه . يستفسر الأستاذ ـ وقد كان ملحاحاً في السؤال ـ فيتلقى الجواب المقنع ، يبدو له مقنعاً وإن لم يقتنع أو لم يكن الجواب مقنعاً ،

أو استعصى عليه الجواب كما استعصى عليه ما في الكتاب . أشياء جديدة في رسالة التوحيد لم يتعرّف عليها فيما أخذ من دروس التوحيد على يد فقيه العلم

مشاكل أخرى تعترض الإنسان ـ الفكر ، لا تنتمي إلى نواقض الوضوء وموجبات الغسل وأحكام الصيام والصلاة

تعلّم الكثير . أهم ما تعلّمه التمرّد على ما تعلّم بالأمس القريب

يمنح القليل من الوقت لاستذكار القرآن ، في قاعة بعيدة عن مجلس الفقيه و « محشر » التلاميذ . لا يسأله الفقيه : لم تأخّر ؟ لا يحاسبه على الإستظهار . يطلب إليه أن ينوب عنه في قراءة الحزب بعد مغرب كل يوم ينوب عن والده في كتابة أوراق الأداء المدرسي للتلاميذ عند مطلع كل شهر .

كانت النقلة سريعة بعيدة المدى . لكنه كان كطفل يكبر دون أن يشعر بهذا الكبر ، إلاّ أن يبدو ذلك في ملابسه وحركاته وعزوفه عن ألاعيب الصبيان

ـ جاء الوقت الذي يجب أن تنتقل فيه إلى دروس أخرى . الأستاذ ينتظركم في المسجد (. . .) بعد عصر غد

هكذا أسرّ إليه أستاذ العربية وكأنه يصدر تعليمات

واستقرت في ذهنه كلمات : الأستاذ ، ينتظركم . علامات استفهام كبرى وراء التعليمات : جاء الوقت ؟ دروس أخرى ؟ الأستاذ ؟ ينتظركم من يكون الأستاذ ؟ إسم سمع به لأول مرة . وما شك في أنه أستاذ كبير هذا الذي يرشحه أستاذ العربية . ينتظركم ؟ من نحن ؟ لم يكن معه أحد يخاطبه بصيغة الجمع ؟

انتظر الغد على أحر من الجمر

ولم يكن اللقاء مع الأستاذ الجديد فحسب ، ولكنه مع زمرة من التلاميذ لم يكن يعرف منهم إلاّ القليل . بعضهم في مثل سنه ، بعضهم أكبر منه سناً ، وربما أوفر علماً . عشرين أو يزيدون ، كلهم في شوق وتطلّع إلى

الدرس الجديد . لعلّهم جميعاً يواجهون الموضوع لأول مرة . كتاب جديد تعرّف عليه بين يديّ الزملاء الجدد ، لم يسمع به من قبل ، وكان عن التاريخ الإسلامي

ماذا يكون التاريخ ؟

نفس السؤال الذي كان يلقيه على نفسه كلما أقبل على موضوع جديد من مواضيع المعرفة . هكذا تساءل عندما حضر أول درس في الأدب ، أول درس في البلاغة ، أول درس في المنطق ، أول درس في الفلسفة . وما كان له أن يجيب ، ولا أن يسأل أحداً من زملائه الذين يتوقع أن يكونوا أكثر منه معرفة . كان يخشى أن يتهم بالغباء . ولذلك كان يترك الموضوع يقدّم نفسه حتى يتعرّف عليه بالممارسة . لن ينسى أنه سأل مرة تلميذاً أكبر منه سناً وتجربة عن اصطلاح اصطدم به في أحد الكتب الصفراء . وكان التلميذ ـ الذي اصطدم بالسؤال التافه ـ مؤدباً لين الحديث

ـ الله يفتح عليك . . . حسناً فعلت . . . السؤال عن المجهول نصف العلم

شعر بالخجل حينما أدرك من جواب التلميذ الكبير أن سؤاله مما لا يحسن بتلميذ أن يسأله لبساطة الجواب

جاء الأستاذ الجديد ـ بعد أن انتظم التلاميذ في حلقات ـ خطوات قوية دونها خطوات فقيه العلم وأستاذ العربية الوئيدة الهادئة ، متلفعاً بجلباب وسلهام من صوف خشنة . في لهجته يداوة ، وفي لغته متانة ، فصيح العبارة ، متدفّق الحديث ، لا تعوزه الكلمات العربية السليمة ، لا يلجأ إلى الدارجة ، جهير الصوت ، حي التعبير [1] . أدرك فيما بعد أن ذلك أسلوب كبار علماء القرويين في إلقاء الدروس على طلبتهم المتحلّقين حولهم

الدرس الأول كان عن قبائل العرب وأنسابهم

لم يفهم شيئاً عن « العاربة » و « المستعربة » ولا عن « قريش » « بني

(١) الأستاذ بوشتة الجامعي

عبد مناف » و « بني المصطلق » . . . لم ييأس فمسيرته مع كل جديد في العلم أو في عالم الكتب علّمته الصبر ، وانتظار الذي يأتي . أقنع نفسه أنه ليس من الضروري أن يفهم كل شيء من أول خطوة ، ففي عالم العلم أبواب مغلقة لا تنفتح إلاّ بعد إلحاح . . . ولو كان ممن ييأسون لأغلق الباب من أول يوم ، كما فعل الكثيرون ، موفراً على نفسه إرهاب الفقيه ومشاكل « الحال » والمفعول المطلق » ومعميات القاسم المشترك . . . أو لكان من الذين أصبح « المشمع » لقباً لهم

هكذا فكّر وهن يصطدم بهذه المعلومات المتدفقة التي لا شك أن الأستاذ كان يظن أن مخاطبيه يدركون أسرارها ، أو لعله كان يضع شخصيته العلمية في مكانتها من نفوسهم . وما شك صاحبنا في أن كثيراً من زملائه ـ إلاّ المسنين المجرّبين منهم ـ كانوا في مثل وضعه . ولكنهم أيضاً لم يسألوا خوفاً من أن يهزأ بهم كبار السن من التلاميذ . كان هذا « الخوف » يزيد تمكناً من نظرة الإستصغار ، التي تطفح بها عيون الكبار ، وهم يزاملون الصغار في درس واحد . يبدو أن الأستاذ كان يخاطب الكبار فسيلحق بهم الصغار ولو بعد لأي سيضعهم أمام التحدّي . وقد جرّب ـ وما يزال ـ أن يتحدّى فكان أستاذاً يدرس كثيراً من العلوم التي لم يدرسها على كبار شيوخه

كانت هذه الدروس تزيد زمرة الصغار قرباً من الأستاذ . انتقى زمرة من صغار السن الذين شعر بتطلّعهم إلى الدرس . واقترح أن يكون له معهم درس آخر في نصوص الأدب العربي . وعن طريقه تعرّفوا على كتاب « المنتخب في أدب العرب » . أصبحوا في شهور معدودات قادرين على فهم نصوص شعرية كان أساس انتخابها سهولة لغتها وبساطة مضمونها . ولعل ذلك هو الذي شجّع أستاذه على مسابقة التحدي ، فأخبرهم أنه سيبدأ درساً آخر بين العشائين يحضره الكبار وعليهم أن يحضروا الدرس أيضاً . وسيكون موضوعه «المعلّقات» .

ـ المعلّقات . . .؟

ـ وما هي هذه المعلّقات التي « سيعلقهم » الأستاذ بفهمها بعد أن أدرك أنهم في غير حاجة إلى كبير جهد لفهم المنتخبات ؟

تساءل أحدهم . ولم يشف غليله تساؤل الثاني . لم يسألوا الكبار خوفاً من « الإستصغار » قال في نفسه

ـ ليكن . . . فالعلم هو القفز على الحواجز . وسنرد المعلّقات فنعرف ما هي

وبدأ الدرس الأول من قفا نبك : علقت على أستار الكعبة كما تقول الأساطير . لا شك أن لها منزلة ـ كانت ـ تستحق بها أن تعلّق على أستار البيت الحرام

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلّل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وإن كنت قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

إلى : وتحتي شقها لم يحول

ـ ما هذا الشعر الفاجر الذي يعلّق على أستار الكعبة ؟

تساءل صاحبنا

ولكنه الفن ، فن القول الذي كان ـ وما يزال ـ كل تراث العرب من الفنون والآداب . يدرس في المساجد اليوم ، وكان بالأمس يعلّق على أستار الكعبة لقداسته أو لجماله ، أو لأن قائليه ، من الشعراء ، كانوا في مكانةٍ من قومهم تسمو بأقوالهم إلى أستار الكعبة

لا عاش امرؤ القيس ولا عاش لبيد فقد أرهقا صاحبنا كما لم يرهقه أي درس . لجأ إلى القاموس المحيط ، وقد تعرّف عليه لأول مرة ، فلم يفده بشيء جمع كل مواهب فكره مع الأستاذ في الدرس ، وقد غرق في شرح الأنصاب والأزلام وكيف كان العرب يقامرون بها اتباعاً لشرح التبريزي على المعلّقات فلم يفهم شيئاً . كان كلما يئس من فهم شيء قال في نفسه : ليكن فهذا حاجز لن أقفز عليه . أحب زهيراً ، لعله كان شاعراً مجدّداً فر من زمرة امرئ القيس ولبيد ولجأ إلى ميسور القول وحكمة المتنورين . كره « طرفة » لأنه كان ابن عبد ، معقّد كأبناء العبيد . . . ومع ذلك تسرّب إلى نفسه شيء من التحدّي الذي كان الأستاذ يملأ طريقه به . عايش هؤلاء الشعراء ، حفظ شيئاً من

أشعارهم . بدأ يفهم وهو يتطلّع إلى الحاجز الجديد الذي قد يضعه الأستاذ في طريقه بعد المعلّقات

عاد إلى المنزل بعد صلاة العشاء معتزاً بأنه يدرس المعلّقات . دخل على والده ليقبّل يده ، قبلة المساء ، وهي في نفس الوقت قبلة الأخبار بأنه عاد بعد صلاة العشاء لا قبلها ، فهو ملتزم ـ دون إكراه ـ بأن يصلي العشاء جماعة . كان والده في اجتماع عمل عائلي مع « العدل » الذي يراجع من حين لآخر مشاكل الإرث العائلي . يبدو أنها مشاكل لها أول وليس لها نهاية . « العدل » يبدو متفوقاً ، يفهم العلوم جميعها . كيف وهو يردد مصطلحات فقهيه يدهش بها زبائنه ، وهو لا يلبث أن يرددها في الجواب على كل سؤال فيؤمن الزبون دون أن يناقش . يبدو أن الوالد كان معتزاً بابنه الذي يتنقل طيلة يومه من درس إلى درس ينتهي آخرها مع صلاة العشاء . سأله متعمداً ولا شك

ـ ماذا كنت تدرس قبل مجيئك ؟

ـ درس « المعلّقات » على الأستاذ

« المعلّقات » اسم علم لم يسمع به أحد من قبل . العدل نفسه لم يجد في محفوظه من مصطلحات « علم التركة » شيئاً اسمه المعلّقات . سأل الوالد العدل

ـ ما رأي سيدي . . . فيما يدرسه الإبن ؟

فكّر العدل قليلاً وهو يحدّ النظر في وجه صاحبنا من خلال نظارتين سميكتين

ـ هات كتابك . وسأمتحنك لأقول رأيي في « المعلّقات »

تعلّقت عينا الوالد والعم بحكم العدل ، فقد يكون صارماً . وأشفق الوالد وهو يأمل ألاّ يخيب ولده ظن العدل فيه

ـ كان عليك أن تدرس الفقه و النحو . فالمعلّقات قد تكون مضيعة للوقت .

أعاد إلى الذاكرة « فقيه العلم » الذي انزعج من قراءة كليلة ودمنة »

كل منهما كان لا يدرك من الموضوع إلاّ أن كليلة ودمنه ليس علما . المعلّقات ليست علماً

بدأ صاحبنا يصاب بالإحباط . امتحان عسير قد يمنعه من أن يجتاز الحاجز ، قد يضعف في نفسه التحدّي ، قد يفصله عن زملاء بدأت مظاهر التنافس بينهم تدفعهم إلى الرغبة في التفوّق . . . أضاف العدل وهو يحاول أن يخفف من وقع كلماته على الوالد دون أن يأبه بالإبن

ـ ومع ذلك هات كتابك

فرك أوراق الكتاب بين يديه . أوراق الكتاب بيضاء ، ليست صفراء ، كما يطبع هذا اللون كتب العلم . الكتاب مجموعة قصائد طويلة . قرأ في سره البيت الأول والعاشر والعشرين . لم يفتح الله عليه بشيء فيما يبدو . تطلّع قليلاً إلى ما كتبه « الشارح » . لم يفتح الله بشيء . كان عليه أن يخرج من المأزق الذي لا يدري : أوضع نفسه فيه أم الوالد الذي استنجد به لينير طريق الولد .؟

ـ اشرح لي إذن هذا البيت ألقى كلماته في لهجة أستاذ يمتحن ـ بتحدّ ـ تلميذاً بليداً

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

قرأ البيت وكأنه طفل يتهجى كلماته الأولى في المدرسة . من حسن حظه أن البيت كان مشكول . شعر صاحبنا بأن الامتحان ليس عسيراً . فكل أستاذ يقرأ هذا البيت في حاجة إلى القاموس المحيط أو الاستعانة بشارح غير معقّد . كان ما يزال يذكر معنى الألفاظ والمضمون الشعري . أجاب في غير تردد

ـ قم الله يفتح عليك يا ولدي

تخلّص الممتحن والممتَحن من المحنة . انطبع هذا الدعاء على محيا الوالد ابتسامة عريضة مستبشرة . شعر صاحبنا بأن الدعاء « إجازة » نجاح تؤكد صواب مسيرته . « الإجازة » يزهو بين أقرانه ولو أنه كان يعرف في العمق

سرها .

كانت دروس الأستاذ ، كزميله السابق ، تطفح بالدعوة إلى التمرّد على الخرافة والجهل والتعلّق بالأولياء والصالحين . أكثر من ذلك كانت تشير بأصابع الإتهام إلى الجمود والجهل الذي يطبع تفكير معظم أساتذة القرويين . كلمة من هذا الأستاذ أو ذاك تحطّم ركناً من القداسة التي عرفتها بعض التقاليد . لم يعرف صاحبنا قوة إقناع كما عرفها عند هذين الأستاذين . كانا معاً يملكان قدرة على اختيار الكلمات النافذة ، وعلى طريق التعبير التي تتميّز فيها الحركة والإشارة والكلمة بالسخرية اللاذعة والضحكة العارمة

7

لم يكن يدرك سر الرهبة التي يشعر بها كلما ذكرت « القرويين » يرتاد المسجد للصلاة مع والده ، وأحياناً وحده ، يصلي المغرب ، ويجلس غير بعيد من قراءة « الحزب » يناوب بين المجموعات القارئة ، ولكل منها أسلوب في القراءة والترتيل ، ولكل منها قراء معينون ليس من الصعب أن تدرك الفرق بينهم . فهؤلاء من فاس ، والآخرون من الجبل ، والفرقة الثالثة من « العروبية» والرابعة قد تكون من الريف . المسجد يصبح خلية نحل بعد صلاة المغرب ، بعد صلاة الصبح . قراءة القرآن ـ في جماعات بأصوات مختلفة لا يضبطها إلاّ صيغة الترتيل التي تختلف فيها هذه الجماعة عن تلك ـ عبادة ؟ تقرّب بها إلى الله المحبسون (الله يغفر لهم ويرحمهم) يستفيد منها طلاب فقراء ، حفاظ أكثر فقراً ، أئمة ، مؤذنون . . . وليبقى القرآن كتاب عبادة ، تلاوته جماعية في نغمات ناشزة أحياناً ، تقرّب إلى الله بتعويض لا يغني من جوع . معظم هؤلاء القراء من الطلبة يستعينون بأجر القراءة التي تقدّمه ـ شهرياً ـ إدارة الأوقاف . أجر تافه

حاول صاحبنا أن يكون من هؤلاء القراء بعد أن حفظ القرآن ، وشَهِد له بذلك شاهدون ، كان يتقاضى ـ شهرياً ـ ريالين (١٠ سنتيمات) . فوجئ مرة بعد قراءة الحزب ـ وكان من المواظبين ـ أن ناداه المشرف على هذه المجموعة ، ولعله ناظر أوقافها ، عجوز غزت التجاعيد وجهه النحيل ـ كان جميلاً في يوم ما ـ عينان ذكيتان لامعتان زرقاوان . هكذا بدتا له وهو يحدّق فيهما بفضول وخشية تقرب من الخوف ، في ظلمة قريبة من النور ، نور قريب من الظلمة تحيط بالوجه الدقيق التقاطيع لحية بيضاء طويلة خفيفة مدببة . على رأسه

قلنسوة متعالية مرصوصة بعمامة أتقنت لفها يد صناع . متلفع بسلهام أبيض رقيق النسج دقيق الصنع . يتكوّم في مجلسه كما لو كان نصف إنسان . صورة شايلوك كما تصورها بعد أن قرأ ملهاة شكسبير

ـ اليوم آخر الشهر . خذ أجرك ـ آخر أجر ـ لا تعد إلى المجيء . استغني عنك

كلمات مرصوصة منضبطة كأوامر تصدر من شرطي مرور . أضاف وهو يكمل تعليماته

ـ . . . الله يهنيك

لم يحر صاحبنا جواباً . حزن . . . أسف . . . شعر بالضيم ، بالغبن ، بالظلم . . . بكل ما قد يشعر به كل عاهل استغنى عنه رب العمل فجأة دون إنذار ولا تعليل ولا سبب معقول . قراء القرآن لم تكن لهم نقابة تمنع الطرد من العمل لغير سبب قانوني . . . أكثر ما آلمه أنه حرم من قراءة القرآن مع الجماعة ، من تعهد حفظه وثوابه عند الله . أقل ما آلمه حرمانه من السنتيمات العشر كانت تسدد ديون بعض الكتب التي يشتريها . عبء هذا الدين أضيف إلى مصاريف الوالد

ويفد إلى المسجد (الجامعة) لملاقاة بعض زملائه ومراجعة دروسه معهم ، وأكثر ما يكون ذلك بين العشاءين (شايلوك الذي منعه من قراءة القرآن مع الجماعة لم يستطع أن يمنعه من ذلك) . ويسمع من بعيد لهذا الفقيه أو ذلك يلقي درساً في « العلم » وما يزال لم يربط له صلة قوية بالعلم ، رغم أن معظم الذين كانوا يتحلّقون حول الأستاذ كانوا من الأميين وأنصاف الأميين لم يكن في سن هؤلاء ، ولا في علم « الطلبة » الذين يتصدرون حلقة الدرس

« القرويين » كانت تحمل ـ مع اسمها العظيم ـ قدسية التاريخ . فهي الجامعة التي عاشت أكثر من ألف ومائة عام تحمل راية العلم والحكمة وقدسية الدين في الغرب الإسلامي . ويدخلها الناس للصلاة خمس مرات في اليوم فلا تثير في نفوسهم غير ما يثيره المسجد الجامع في المصلين . يفدون إليها

زرافات ووحداناً وينصرفون . وهي جامع الصلاة . حينما يفد إليها طالب علم لعله يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى . من هيبة العلم ، من هيبة حلقات الدرس ؟ تتحلّق فيها مجموعة من الطلبة حول عالم (فقيه) يتحدّث في موضوع يختلف ـ وقد يأتلف ـ عن الموضوعات التي يتحدّث فيها آخر في حلقة أخرى . ولكل منهم أسلوبه في محاولة الإمساك بعقول طلابه والإيحاء لهم بأن ما يقوله هو العلم ، وأن المُقصِّر منهم في الفهم غير جدير بدرسه

ـ ألا تدري ؟ لقد أحدث « النظام » في القرويين . وأقبل التلاميذ والطلبة على النظام

هكذا أسرّ صديق زميل لصاحبنا

ـ النظام ؟ من هو هذا النظام ؟ ماذا يعني النظام ؟

لم يسأل . دائماً حذر من أن يسأل عن البديهيات . ولعله لو سأل لما كان المسؤول أعلم من السائل

اقترب من أبواب القرويين يطوف حولها باباً باباً ـ وقد بلغت تسعاً وعشرين ـ لعله يرى أو يسمع شيئاً ينبئه عن « النظام » . كل شيء عادي الناس يدخلون ، يصلون ، أو يقتلون الوقت الفارغ في بيت الله ، بعضهم يستلقي أو يسند ظهره إلى سارية ينظر في الفراغ . حلقات درس هنا وهناك طلبة يخرجون أو يدخلون متأبطين « محافظهم » ، لعل بها كراسات أو كتب صفراء ، بعضهم يتأبّط « لبدته » . ويلح التساؤل

ـ ما النظام ؟ أين النظام ؟

زميل جرّب فانتظم . تقدّم إلى المجلس العلمي فقبل كتلميذ في السنة الثانية الإبتدائية . ألح على صاحبنا أن يصحبه . أصبحا معاً منتظمين في نفس الفصل . زملاء لهما انتظموا في فصول أخرى . كان ذلك دون أية مقاييس . دروس في الفقه والتوحيد والنحو والصرف والحساب . وبدأت المحنة مع الكتب الصفراء : المؤلف والشارع والمحشى . الأستاذ يستعين على هذا بذاك فيبدو أحياناً وكأن الأمر اختلط عليه . و لعله يختلط على تلاميذه غير المجرّبين

. يخاطب عقولاً ، مارست التعليم بنفس الطريقة سنوات ذوات العدد ، وما تزال حيث هي . وعقولاً غضة في نفس الفصل تغمرها سحابة من الظلام حينما تسمع : « قال المصنّف رحمه الله . . . قال الشارح . قال المحشى . . . » يقرأ صاحبنا حرف « ص » وحرف « ش » في نص لا تفصل بين فقراته نقطة ولا فاصلة ولا يميّز بين فقراته بياض فيغم عليه . أو في نصين يختلف وضعهما في الصفحة لعله كان يتصبب عرقاً دون أن يستطيع ربط ما بعد « ص » بما بعد « ش » . الأستاذ لم يوضح ذلك

كاد يعلن الرفض

ـ هذا « النظام » بعيد عن أن تكون لي معه صلة ود أو تعارف . أين مني الأستاذ الذي تطفر عيناه بالذكاء وهو يشرح القاعدة ؟ أين منى فقيه العلم وهو يتحدّث عن وحدانية الله ، وعن قواعد الفقه دون كلام المصنف أو شرح الشارح ، إلاّ ما يردده من أبيات منظومة « ابن عاشر » ليهتدي بها إلى الموضوع ؟

وقيل له : هذه حصة « التصريف » انصرفوا إليها جميعاً : الزملاء الكبار الملتحون وصغار السن . حلقات بعضها وراء بعض . زملاء آخرون من أقسام أخرى أقبلوا على حصة « التصريف » . يبدو أنه أستاذ كبير مرموق . يبدو أن الموضوع مهم

ـ وما التصريف . . . ؟

سؤال يلقى مثيلاً له على نفسه كلما أقبل على درس جديد . تعلّم ألا يجيب ولعله لا يستطيع لو أراد . فهو يكتشف في كل حصة عالماً جديداً هو كل ما توحي به كلمة « النظام » وهو مدعو أن ينتظم ، وأن يفتح آفاق فكره على أبعادها لعل الله يمنحه مزيداً من العلم

أقبل الأستاذ بوجهه الجميل المشرب بحمرة ، بعينيه الزرقاوين الجميلتين ، بلحيته الكثة المختلط أبيضها بأشهبها الطويلة غير منتظمة ، بابتسامته الساحرة ، بعمامته المكوّرة في غير انتظام ، بجلبابه وسلهامه الفضفاض . لم يكن يصطنع وقاراً ، ولا أحسن الطلبة لقدومه هيبة ، ولكن

إعجاباً وتقديراً واحتراماً كان سعيداً بذلك رمى « بلبدته » الصوفية السميكة بجوار الجدار . جلس عليها وأسند ظهره إلى الحائط . لا يحمل في يده كتاباً ولا كرّاسة . يبدو أنه واثق من نفسه وعلمه . بين يديه منديل أحمر تتخلله بقع بنية لن تكون مخطئاً إذا قلت أنها قذرة . بداخل المنديل حق أو هو « جوزة» بيضاوية مقفلة بشبه « مرود » . ربط صاحبنا بين المنديل الأحمر المعفّر وأنف الفقيه ، فأدرك أنه مُدمن من نشوق . لم يكد يبتدئ الدرس

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وهي بداية تعودها صاحبنا في كل درس ، سواء تعلّق بالدين أو بالدنيا ، حتى انطلق الطلبة ـ الكبار ـ يرددون معه في لهجة الذين باتوا ليلهم يكررون ، ـ لا يسألون إن كان هناك شيطان رجيم أو غير رجيم حتى يستعيذون بالله منه وهم يقبلون على الدرس ـ كما كان صاحبنا يقضي جزء من ليله يحفظ لوحة القرآن

يِفَعْلَلَ الفِعْلُ ذُو التَّجرِيد أوْ فَعُلا
يأتي وَمَكْسُورَ عَيْنٍ أَوْ عَلَى فَعَلا

حتى إذا وصلوا إلى موضوع الدرس توقفوا وكأن أمراً صارماً صدر إلى جميعهم

وأخذ الأستاذ يشرح

وَجْهَانِ فيه مِن إحْسِبْ مَعْ وَغِرْتَ وَحِرْ
تَ أنعم بَئِسْتَ يَئِسْتَ أوله يَبْس وهِلا
وَأَفْرِدِ الكَسْرَ فيما مَن وَرِثْ وَوَلِى
وَرِمْ وَرِعْتَ وَمِقْتَ مَعْ وَفِقْت حُلا
قَسْتْ كَذَا وَعِ وَجْهَي صَرَّأَثَّ فَعَرْ
رَ الصَّلْدُ حِرْتْ وَثِرْتْ جَدَّ من عَمِلاَ

ـ هل كانوا يرتلون نصاً عربياً ؟ لعلني أخطأت الطريق ؟

لم يفتح منافذ تفكيره ، فقد سدت منافذها وآفاقها جميعاً . ليس يأساً

هذا الذي يعاني . إحباط ؟ قد يكون . لم يُجهد نفسه في حل الألغاز التي يتجاوب فيها الأستاذ مع طلبته . يبدو أنهم يدرسون نفس المنظومة لعاشر مرة يبدأ الأستاذ الجملة فيتبارون جميعهم ـ إلاّ الصغار الجدد منهم ـ في إكمال الجملة ، وكأنهم على علم كامل بهذا الذي يريد الأستاذ أن يقول

ـ لم حضروا الدرس وجميعهم « علماء التصريف » ؟

ـ ترى هل يفهمون ما يرددون ؟

تذكّر ببغاء كان قد رآه لأول مرة وهو صغير السن فأعجب بقدرته على ترديد الكلمات

كان الأستاذ في شبه ابتهاج . فهو يتلاعب بمفاهيم « لامية الأفعال » ويجد تجاوباً من الطلبة الأذكياء . ولكنه لم يكن يلقي بالاً لهذه المجموعة «الغشيمة » التي جلست فاغرة فاها ، وكأنها تظن أن « الفهم » يدخل من الفم . . . لعله كان يهتف في سره : سيفتح الله عليهم . كثرة التكرار تعلّم الحمار . . . هكذا كنا ففتح الله . . . لعله كان يائساً منهم . ستدفع بهم بلادتهم إلى الإبتعاد عن درسه . أما الزبد فيذهب جفاء

أساتذة القرويين ـ فيما يبدو ـ لم يكونوا يعترفون بالنظام إلاّ في شكليته ، وفيما ضمن لهم لأول مرة من أجور شهرية منتظمة على جهودهم العلمية وهم مع ذلك يزاولون دروسهم كما كانوا من قبل وكل منهم يؤدي واجبه على قدر علمه واستطاعته في التبليغ . لا يهمه أن يربط صلة علمية مع تلاميذ كزغب القطا لم تظهر بعد تباشير لحاهم ، لم تعهد « القرويين » أن تفسح لهم مكاناً في دروسها

انصرف صاحبنا عن درس الألغاز ، الذي لم يقنعه بأنه درس في اللغة العربية إلاّ كلمات الأستاذ التي كانت عربية قطعاً ولو أنها تصدر عن أنفه أخذ يجيل النظر في وجوه الطلبة الملتحين ـ وخط الشيب لحى بعضهم ـ والتلاميذ الصغار الذين يسمعون بكلمة « التصريف » لأول مرة ، أدرك من هذه الجولة أن طريق العلم طويل ، لعله لا يبتدئ بالخطوة الأولى التي تخطاها في يومه ذاك . كل المحدثين من التلاميذ كانوا في مثل وضعه . أحدهم قفل راجعاً

إلى منزله ولم يعد للقرويين بعد يومه ذاك . بعضهم خجل من الإعتراف بأنه لم يفهم شيئاً فزعم أن الدرس صعب ، ولكنه فهم كل شيء . بعضهم ركب العناد رأسه ، وقرر ـ دون أن ينبس ـ

ـ حاجز جديد لا بد أن أجتازه

لم نكن نحسب محنة المحدثين من التلاميذ ، كانت محنة بعض الأساتذة أيضاً . أستاذ التاريخ لم يسمع من قبل بشيء اسمه التاريخ ، حتى وضع كتاب أبيض بين يديه وقيل له

ـ دَرِّس التاريخ

كان الكتاب مرقّماً بالسنوات مليئاً بالأحداث والأسماء والمواقع والبلدان . والرجل لم يدرس في حياته إلاّ نواقض الوضوء و موجبات الغسل بحث في المكتبات عن الشارح والمحشي فلم يجد . ترصّد سوق الكتب « بجامع الجنائز » في القرويين بعد صلاة الجمعة ، حيث تباع الكتب القديمة بالمزاد ، فلم يعثر على كتاب في التاريخ . بقي مع « المصنف » وجهاً لوجه ، ولم يكن هذا المصنّف رحيماً به فأربكه بمجموعة من المعلومات لا تزيد فكره إلاّ انغلاقاً في الفهم . قرر أن يلجأ إلى « الحافظة » فالحفظ سيّد المواهب . . . كان يحفظ ما في الكتاب عن ظهر قلب ، ويقوم بتجربة في منزله . تقول الرواية ـ والعهدة على الراوي ـ : إنه كان يرص أثاث الغرفة : مخدات ـ حشيات . . . في حلقة ، كما لو كانت هذه الأشياء مجموعة طلبة ، ثم يلقي عليهم الدرس الذي حفظ . يعيد الجملة خمس مرات تفصل بين كل منها جملة

ـ أفهمتم . . .؟ أفهموا الله يفتح عليكم

لا ينتظر جواباً على تساؤله . ولم يكن ينتظره من التلاميذ والطلبة الحقيقيين وهو يلقى نفس الدرس الذي قام بتجربة القائه في المنزل عدة مرات ولم يكن ينتظر أن يفتح الله على طلبته بفهم ما يردد من حفظه ، إن الله لم يفتح عليه بفهم ما حفظ وما ردد فكيف سيفتح على طلبته ؟ ولعله كان يدرك أنهم لم يفهموا شيئاً ، إلاّ الذين فهموا ، قبل أن يفهم ، وهم يقرأون الكتاب

كان في بداية عمله يتصبب عرقاً يغشى عليه أحياناً وهو يلقي درساً يطول ثم يطول فساعة المحنة عمرها ألف عام

الجغرافية مشكلة المشاكل : الشرق ، الغرب ، الشمال ، الجنوب ، اصطلاحات لم يسمع بها ، إلاّ حينما يسمع عن شروق الشمس وغروبها الأرض كرة تسبح في الفضاء ؟ وهل الإنسان يسير على كرة ؟ لم يجد هذا القول في كتاب مما قرأ . تذكّر الآية القرآنية : والأرض بسطناها . . . المفسّرون لم يتحدّثوا عن معنى البسط . لا يشرحون الواضحات

ويتحدّث الطلبة أن أستاذاً مشهوراً كلف بدراسة مقدّمة إبن خلدون مع تلاميذ السنة النهائية في القسم الثانوي . يرد اسم ابن خلدون وكتاب المقدّمة لأول مرة ـ ربما ـ في القرويين منذ عهد ابن خلدون بالدراسة فيها . ولم يكن الأستاذ (العالم) بعاجز عن التحدي ، فقد كان صوته جهورياً يملأ المنطقة التي يدرس فيها بالصياح كأنه يعلن عن نفسه . كان معظم الأساتذة يتنحون بعيداً عنه ، فقد كان من شأن صياحه أن يربكهم . كان يعرف ذلك في نفسه فيبتعد ، ومع ذلك يصل صوته إلى كل ركن في الجامع . إذا دخلت من أي باب من أبوابها أدركت أنه يلقي درسه

ولعله لم يكن يفهم من نظريات ابن خلدون شيئاً ، ولكنه كان يحفظ بعض جمل المقدّمة ويظل يرددها بصوت يعلو أحياناً إلى حد الضجيج ، ويطامن إلى حد الهمس . ولعل تلاميذه من كثرة ما أدركوا فراغ دروسه كانوا يتغيبون ، فراراً منها أو منه لا أدري ، ولم يكن يرضى بالهزيمة ، وقد تحلّق كثير من الطلبة حول دروس الفقه والنحو ، فكان يمسك بتلابيب أي طالب يصادفه في مجلسه ، يجلسه أمامه ويبدأ في إلقاء الدرس بصوته المجلجل . ويدرك الطالب أو لا يدرك سر اللعبة . ولكنه يستحي أن يتملّص من قبضة الأستاذ . . .

أستاذ الحساب كان يعرف من الحساب بعض ما بقي في ذاكرته مما تعلّمه ـ ولعله درّسه أيضاً ـ في علم الفرائض (الإرث) ولم يكن يزيد على

«للذكر مثل حظ الأنثيين . . . فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . . .»
وحينما وضع كتاب الحساب (أبيض الورق) بين يديه بأرقام هندية (كان عليه أن يتعرّف عليها لأول مرة وأن يترجمها إلى أرقام عربية « الغبارى ») بما احتواه من اصطلاحات جديدة : الكسور ـ القاسم المشترك الأعظم ـ أكبر بقية
ووجد نفسه في مشكلة . لم ينفعه الحفظ وترداد الكلمات . كل تلميذ يحمل لوحة أردوازية وقلم طباشير . كل منهم كان يريد أن يفهم العملية الحسابية المعقّدة . درس الحساب كان يخلو من كبار السن . فهم في غير حاجة إلى هذا الحساب (اللغز) الذي لا يطلب منهم في خطة العدالة ولا في منصب القضاء . المحدثون منهم ، وقد قدم كثير منهم من المدارس القرآنية ، كانوا مدربين على دروس الحساب هذه . كان الأستاذ يجد نفسه تلميذاً أمامهم بعضهم قدم من المدارس الفرنسية ينقذون الأستاذ كلما استعصت عليه عملية . كان أكثر دهاء . لم يكن يتصبب عرقاً ، جعل من طلبته أصدقاء له يحكي لهم قصصاً ونوادر مضحكة ، بعضها عن زملائه الذين وقعوا في « مطبة » النظام ينتظر اليوم الذي يُفْرج عنه من تدريس الحساب فيوكل إليه درس « ابن عاشر » أو « التحفة » ، سيكون حظه سعيداً مع التحفة لأنها تدرس في الأقسام الثانوية ، ومرتب الأستاذ الثانوي أعلى من مرتب مدرّس حساب في الأقسام الإبتدائية

لم يكن صاحبنا راضياً عن نفسه وهو يتنقّل بين هذه الدروس «النظامية» . ولكنه كان عنوداً يركب رأسه ليقضي جزء مهماً من المساء يراجع دروسه ويعد دروس الغد . عقد حلفاً مع هذه النفس غير الراضية العنود . يهتم بما يستطيع ، ويترك ما لا يستطيع أو ما لا يقتنع بمردوديته العلمية

القواعد أكثر ما كان تضايقه ، تستعصي على فهمه : يفهم النظرية في الفقه أو الحساب أو المنطق . . لا يحفظ القاعدة ، يعتبرها استنتاجاً بسيطاً من النظرية . الفكر والحافظة ، اصطدمتا عنده في الكُتّاب (المسيد) ، في المدرسة ، في القرويين . كانت حافظته أضعف من فهمه . ذاكرته قوية تسعف فكره بالنظرية . منطقه سليم بدأ يأخذ مساره التنظيمي ، تسلمه المقدّمة إلى

النتيجة . يبتعد عن فوضى الفكر . دروس القرويين تغرقه في فوضى الفكر . ما يزال في طوره الإبتدائي مغموراً بدروس القواعد والبدائيات ، يعسر عليه درس لا يفهم منه شيئاً ، يهون عليه آخر فيعتبره سخيفاً بسيطاً ، لو جلس مجلس الأستاذ لأفاد تلاميذه أكثر مما يستفيدون من أستاذهم ، أو هكذا زعم لنفسه دوامة من الرفض والشك تطوح به . يجد في دروس الأستاذين القديمين غنية علم وفائدة وفهم . استجابة لطموح الفكر والنفس . لم يخلق للقرويين . وهو مع ذلك عنود يركب رأسه . لم يكن ليتخلّف . بعض زملائه تخلّفوا . بعضهم يفضلون النوم في أصباح المدينة القائظة أو الباردة . بعضهم يسخر من الأستاذ الذي « عرق ونشف » في فهم تعليق على درس نحو في كتاب أكثر صعوبة من خليل وشراحه جميعاً . سخر مع الساخرين ، رفض مع الرافضين . تمرّد على «النظام » بعد أن اجتاز الإمتحان الأول فانتقل من المرحلة الإبتدائية إلى الثانوية . فاختار ـ بمساعدة أستاذه ـ أكثر الدروس فائدة وأقوى الأساتذة علماً درساً في الفقه وآخر في الأصول وثالثاً في النحو أو البلاغة أو الأدب . . . لا تنتظم في سلك . بعضها في القسم الأول من الثانوي وبعضها في القسم الثاني وبعضها في القسم العالي . لا تخضع لنظام ولا لامتحان ، ولا تنتهي بشهادة . فوضى . . . ؟ تمرّد . . . ؟ اعتبرها كما شئت ، فهي تتفق مع طموحه العلمي ، ولو أن مداركه لم تكن ترقى إلى بعضها

في قاعة الامتحان كانت لجان كثيرة متجمّعة . لجنة الأدب تمتحن (شفوياً) التلاميذ . جاء دوره ليمتحن في الأدب

ـ إقرأ من حفظك مقامة من مقامات الزمخشري

هكذا وضع السؤال أستاذان يدعو وجههما إلى الاحترام والهيبة

حاول أن يطلب من الأستاذ أن يختار إحدى المقامات . أحرج الأستاذ فهو غير مؤهّل للاختيار ، وصاحبنا غير مؤهل ليملي من حفظه غير اختيار الحافظة مرة أخرى ؟ لعلها لا تخونه في الأدب كما تخونه في نص خليلي أو بيت من منظومة لامية الأفعال . قفز إلى ذاكرته نص من إحدى المقامات الزمخشرية

ما لعلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودونوها . . .؟

أوقفه أحد الأستاذين وهو يردد

ـ كفى . . . كفى

قال الثاني في رفق لم يخف تذمّره

ـ لم تحفظ غير هذه المقامة السيئة

أجاب في شيء من التحدّي

ـ هذا نص قرأناه

أنقذته الجرأة من امتحان الذاكرة إلى امتحان العقل . اختار الأستاذ نصاً آخر من الكتاب بين يديه أوضح التلميذ مفرداته ، شرح مضمونه

ـ قم الله يفتح عليك

دعاء لا يوحي بشيء : عقلك مغلق يرجو له الأستاذ الفتح المبين ، أم هو دعاء صالح من أستاذ طيّب ؟

كان دعاءً صالحاً يؤكد اطمئنان الأستاذ إلى « علم » تلميذه » نجح في الامتحان . بقي امتحان آخر . فقد نقل « الحادث » أحد الفضوليين إلى والده . وكان كعادته يعتب ولا يغضب

مرّت الأزمة بسلام

وكان مع ذلك يجد في دروس الأستاذين القديمين غنية علمية . وكثيراً ما كان يستغني عن دروس القرويين ليحضر دروس الأستاذين ، وقد انتظمت وشملت كل ما يشعران بأن تلاميذهما في حاجة إليه من ضروب المعرفة في سنيهم تلك . كان الأستاذان لا يترددان في السخرية مما يلقي في القرويين وكانا ـ هما أيضاً ـ قد انتظما في السلك العالي « النظام » . يؤمنان بأنهما يضيعان وقتهما ، ولكنهما يؤمنان ـ وزملاؤهما ـ بضرورة إسناد النظام حتى يستقيم . كان النظام ثمرة جهود بذلها الطلبة لإخراج القرويين من وضعها القديم . والتضحية أساسية لتحقيق هذا الذي يريدون . ولكن الأستاذين ـ

كزملائهما من النخبة التي ناضلت لإصلاح وضعية التعليم ـ كانا يشفقان على تلاميذهما أن يؤدوا ضريبة النظام ، وهم في بداية عهدهم بالتعلّم

تردد صاحبنا بين هذه الدروس وتلك . وجد علماً في بعضها ، وتعرّف على كتب علمية قديمة كانت أساس المعرفة الإسلامية والعربية والفكرية . لم تربكه الحيرة . لم يطوح به اليأس والإحباط . لم يضل الطريق بين المتناقضات . يبدو أنه كان عملياً وهو يواجه مشاكل المعرفة ، وهو يواجه وسائل الحصول على المعرفة ، و هو يواجه التناقض بين ما يريد وما يجد . انفتحت أمامه باب جديدة يلجأ إليها فيجد معرفة وعلماً وأسلوباً وطريقة أداء . لم يجد في هذه الباب مصنفاً ولا شارحاً ولا محشياً ، تجاوب مع الكلمة . فتح أذنيه فاستمع ، فتح منافذ تفكيره ففهم . اكتشف في كل خطوة جديداً . المعلّم فيها يصحبه في غدوه ورواحه ، في وحدته و نزهته وفي الضجة من حوله ، في الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفّس ، انضافت هذه الباب الجديدة إلى جهود الأستاذين ، إلى ما حرص على تتبعه من دروس في القرويين

كانت الباب هي الكتاب

8

ـ أتعرفه ؟ هو ذاك

فوجئ ، وزميل قديم جمعت بينهما المدرسة سنوات حفظ القرآن ، يشير ، إلى شاب من خلفه يسير في زحام سوق العطارين . لم يترك الفرصة تمر . كان ينتظرها ، سمع عنه كثيراً ، تحدّث الناس وتحدّث الأستاذ كلما أمكنه الحديث . كان متأكداً أن فرصة ما ستفرزها الأيام ليتعرّف عليه ، بدايتها أن يرى وجهه . كان مشوقاً إلى رؤية الذين يكبرهم ولو من بعيد . لذلك جرى كما لو كان يلاحق صديقاً لم يره من زمن بعيد حتى تخطّاه ، ثم قفل عائداً ليواجه وجهاً جميلاً في قد نحيف يميل إلى القصر ، ذا عينين زرقاوين تطفحان بالذكاء والحيوية ، عارضين خفيفين بشعرات شقراء يخطو في جلبابه الصوفي المرهف ـ كان الجو حاراً ـ خطوات ثابتة عازمة متباعدة ينم وجهه عن اهتمام تؤكده عقدة ما بين حاجبيه . يعتمر عمامة خفيفة تتعارض لفاتها على جبينه . لم يلتفت إلى هذا الذي يتملّى من وجهه في فضول . لم يلتفت إلى وجوده أحد في زحام السوق . واستمرت المسيرة ، كل في اتجاه . . .[1]

عاد صاحبنا إلى زميله شاكراً الفرصة التي أتاحها له ، وكأنها فرصة العمر . أرضى فضوله فشعر بسعادة لا يدري مصدرها ، ولكنها من منبع أصيل في نفسه هو حب التطلّع وفضول المعرفة ، معرفة الأفكار والنظريات والأشخاص والأشياء . لاحظ في نفسه هذا الفضول ، كثيراً ما كان يضايق به الآخرين ، لاحظه الآخرون فيه فاعتبروه من مظاهر الطفولة والعزّة . اعتبره من وسائل المعرفة التي ما تزال أداته حتى بعد أن تخلّص من غرته وطفولته

---

(١) الأستاذ الزعيم علال الفاسي

قال الأستاذ يوماً ما ـ ولم يدر أنه يفاجئ النخبة من تلاميذه

ـ جاء الوقت الذي تحضرون دروسه

ـ نحضر دروسه . . .؟

كذلك عبّر كل منهم عن فرحته وسعادته ، وإن لم ينبس أي منهم

وكانت الدروس الأولى في مسجد صغير متواضع من حي « القلقليين » بين العشائين ، سرعان ما تحوّلت مع قدوم رمضان إلى مسجد « سيدي عبدالقادر الفاسي » بين العصر والمغرب . وكان الكتاب الذي وضعه بين أيديهم «الأخلاق والواجبات » كتاب شبه وعظي ، حافل بالقيم والتوجهات النيرة لم يكن من هذه الكتب التي اعتاد العلماء أن يدرّسوها لطلبتهم ، لأنها ـ من الكتب البيضاء ـ لا تحمل علماً له في سوق العلم إسم معروف . ولأن صاحب الكتاب ما يزال حياً يرزق ، فلا يمكن للمدرّس أن يفتتح درسه من الكتاب بالعبارة المألوفة

ـ قال المصنّف رحمه الله

ولأن الكتاب لا شرح له ولا حاشية . فهو في غير حاجة إلى ذلك ، كتاب ميسور القراءة واضح العبارة منفتح على مفاهيمه العديدة . ولعلّ الأستاذ ـ ولم يكن يحمل بعد لقبه الذي عرف به حتى اختاره الله إليه ـ قصد إلى أن تكون دروسه مع هذه الزمرة من صغار التلاميذ في الموضوعات التي يثيرها الشيخ عبدالقادر المغربي في كتابه « الأخلاق والواجبات » ، تكون مفتاحاً لدروس في التربية والتوجيه وتقويم الشخصية وتكوين الإنسان الوطني . من الممكن أن يكون الدرس « حلقة » لتكوين خلية وطنية دون اللجوء إلى كتاب « الأخلاق والواجبات » ولكن الأستاذ قصد إلى أن تكون دروساً لكل الذين يغريهم الفضول أن يستمعوا إلى مثل هذه المحاضرات في الجوامع الكبرى أو المساجد الصغرى . وكانت فترة ما بين العشاءين أو ما بين العصر والمغرب في رمضان هي التي يتخلّص فيها الذين يتحرّكون في المدينة عاملين أو متاجرين ، ويلجأون فيها إلى المسجد طلباً للراحة من العمل وانتظاراً لوقت الصلاة . ولأول مرة شهد

صاحبنا أن الدرس تحوّل إلى محاضرة عامة بدأ يحضرها العشرات ثم المئات

لم تكن السلطات تسمح بعقد اجتماعات عامة لتكوين خلية وطنية فقد كان تكوين هذه الخلايا في المنازل والمعامل والمصانع عندما يسدل الليل ستاره ، ويؤوي كل إلى منزله ، وتؤوي عيون السلطة إلى فرشها الوثيرة ولكن حينما يجلس أستاذ للدرس مع تلاميذه ويعطي للأخلاق والواجبات كل المضامين التي يريد ، فيفهم عنه التلاميذ وغير التلاميذ ، فذلك تكوين علني لخلية كبرى لا تستطيع السلطة ـ وإن استطاعت بعد ذلك ـ أن ترى فيه ما يخدش هيبتها أو يشكك في وجودها

شعر صاحبنا بنقلة كبرى ليس في ميدان المعرفة ، ولكن في مجال التكوين والتوجيه ، أُخذ بفصاحة الأستاذ وبلاغته وتدفقه وقدرته على التأثير لم يكن في حاجة إلى أن يفتح آفاق عقله ليفهم ، ولكنه كان في حاجة إلى أن يفتح نفساً وقلباً وروحاً ليدرك . المفاهيم الوطنية تتسرّب إلى نفسه ، لأن الأستاذ يشير إليها بكل لغة وإن لم يفصح . الإلحاح على تحمّل المسؤولية ، وإن عظمت ، والثورة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية وإن جلت في مقدّمة مفاهيم الواجبات . الاستقامة الوطنية والفكرية في مقدّمة مفاهيم الأخلاق كلماته كانت ذات أبعاد واسعة لم يكن صاحبنا في حاجة إلى معاناة لسبر أغوارها

ـ هذا موضوع للإنشاء عليكم أن تكتبوه

ـ الإنشاء؟

تساءل وهو يسجّل الموضوع كما أملاه الأستاذ

تتالت نفس الأسئلة التي كانت تجتاحه كلما سمع بالجديد . طلب إليه من قبل أن يحفظ ، أن يراجع ، أن يفهم ، أن يقرأ . . . لم يطلب إليه أن يكتب . ولمن ؟ للأستاذ الذي يتدفّق الحديث من لسانه كما يتدفّق الشعر من قلمه

وبدأت هموم الكتابة من يومه ذاك . فللكلمة قداستها ، وللجملة

هيبتها ، وللفقرة روعتها تقرأ فتحس بالقداسة ، يبهرك المضمون . تدفع بك كلمة إلى كلمة ، تحبب لك جملة أخرى ، فقرة أختها . أما أن تكتب أنت ، فتلك هي المشكلة . في العهود الأمية ، في بلاد الأميين لا يقرأ الناس ، وإن قرأ أحدهم لا يكتب . الذين كتبوا كانت بلادهم قد تخلّصت من عهد الأمية ، من لغتها . كاد يهتف

ـ ما أنا بكاتب

خشي أن يصيح الأستاذ في وجهه

ـ أغرب من دروسي أو تكتب

انطوى على امتحان اعتبره محنة . لجأ إلى زميل في المدرسة أكبر منه سناً ، أغزر منه علماً ، أمل أن يكون أكثر شجاعة

ـ ساعدني . . . كيف أكتب إنشاء ؟

كاد يسأله

ـ ما الإنشاء . . . ؟

لم يسخر من غرته وضعف حيلته وهو يكشف عن أستاذيته ومقدرته

ـ تكتب جملة هكذا . . . وجملة هكذا

ـ ولكن ماذا تقول ؟

فكّرالزميل الكبير طويلاً ثم أشار ببعض المضمايين . لم تكن مما ترضي صاحبنا ، ولعله لم تكن مما ترضيه وهو يخضع للتجربة لأول مرة فيسهم في كتابة إنشاء وتلقين تلميذ بدائي أن يكتب إملاء ، غير أنها كانت مما يملأ بياض ورقته ولو ملأها بالتافة من القول

قدّمها على استحاء وسط أوراق الزملاء ، وهو يسترق النظر إلى وجه الأستاذ . بدا له أنه سيرفضها أو يشعر بتفاهتها من أول نظرة . عادت إليه الورقة في اليوم التالي بين ورقات الزملاء مصححة بالقلم الأحمر عليها علامة غير مرضية . لم يضره في شيء أن تكون العلامة غير مرضية . كان يهمه أن

يتخلّص من الإمتحان ـ المحنة الأولى ليستعد إلى الامتحان الثاني . وكان كسابقيه أقل الامتحانات محنة . كانت الموضوعات التي يختارها الأستاذ مستمدة من الأفكار « الثورية » التي يتناولها في الدرس . ولم يكن التلاميذ يجدون مراجع لها في الكتاب الذي بين أيديهم أو في أي كتاب آخر . لم تكن امتحاناً للقدرة على التعبير ، كانت امتحاناً للقدرة على التفكير . أفلح ثلاثة من الزملاء أن يكتبوا شعراً ، فاعتبرهم صاحبنا ـ ولم يفتح الله عليه بالشعر ـ عباقرة زمانه . ولكنه أصرّ على أن ينجح في النثر كما نجح الآخرون . وكعادته أخذ « يتعلّق » وهو يحاول أن يتفوّق . وكانت الأفكار والموضوعات التي يختارها ـ وقد أخذ الأستاذ يترك لهم من حين لآخر اختيار الموضوع ـ مما يثير الفضول ، وأن لم تُثِر كثيراً من الأعجاب

تساءل عدة مرات

ـ لو لم يكن الأستاذ كاتباً وشاعراً ، كما لم يكن زميلاه ، هل كنت أتجه إلى الكتابة

دروس القرويين لم تكن تؤهل الطالب ليكتب . أساتذة القرويين لا يكتبون ، وإن قرأوا في حدود ما أخذوا أنفسهم بقراءته منذ أيام الطلب ، بنفس اللغة والتعبير وفي نفس الكتاب . وإن جربوا في غير ذلك فلعلهم لن ينجحوا في امتحان تلاوة . جرّب مرة ـ وقد أخذ يكتب في بعض الصحف بتوقيع مستعار ـ مع أستاذ عبقري في علوم النحو والبلاغة ، فطلب إليه أن يقرأ المقال بجهر ليتعرّف على رأيه فيه ، قرأ الأستاذ تحت إلحاح تلميذه وإحراجه . تلعثم ، لحن أعاد الجملة مراراً علّه يفهم مضمونها . امتحان عسير للأستاذ لا للتمليذ

ـ لو لم أكتب لما استطعت أن أفكّر

هكذا أقنع نفسه وهو يربط بين الكتابة والتفكير . أصبح من رأيه أن الكتابة تفكير بالفعل . والذي لا يسجّل أفكاره تضيع منه ولو لمعت ، كما يضيع ضوء البرق الخلب ، ولو لمع في الليلة الظلماء . الذين كتبوا استطاعوا أن يتجاوبوا ، تقبلا وعطاء ، مع الآخرين . أنت تكتب وأمامك مجموعة من المخاطبين تتحدّث إليهم . تأخذ منهم من حيث تشعر أنك تعطيهم . ثم أنت

مدعو أن تنظّم أفكارك ، أن تبحث عنها في مصادرها ، أن تستحث فكرك ليفرزها ، أن تخرجها من عالم العدم إلى عالم الوجود ، أن تمنحها قوة الدفق ولن تتدفّق إلاّ على الورق . ولو لم يكن الحرف لظل الفكر حبيس التخلّف وتقوقع على نفسه إلى أن يتلاشى

ما يزال يعتبر درس الإنشاء أول درس في المعرفة

لم يكن الأمربالنسبة إليه فحسب ، ولكنه كان بالنسبة لأول إنسان خط حرفاً ، ثم كتب فكرة ، وترك للذين جاؤوا بعده أن يقرأوها محفورة على الحجر أو منقوشة على العظم أو الصوان أو مكتوبة على ورق البردى

ـ لو قلت : ما أنا بكاتب لظللت حيث أنا أجتر الذي يكتب ويقال ، ولا أجعل غيري يجتر الذي أقول

هكذا حدّث نفسه ، وهو يشعر بأنه نجح في دروس الإنشاء

اكتملت عناصر التمرّد المعرفي في نفس صاحبنا بدروس الأستاذ . فقد كانت الخلية التي أشار عليهم بتكوينها من زملائهم ومن تلاميذ أكبر منهم سناً خلية تكوين علمي ووطني في نفس الوقت . كان يضع بين أيديها الكتاب والمجلة ، وكثيراً ما كان كتاباً سياسياً أو مجلة فكرية لتطرح الخلية موضوعاً منها للمناقشة . وكان الشعر ، وحفظه ، يلعب دوراً مهماً في تكوين الخلية ، فمن ديوان الحماسة إلى دواوين البارودي وشوقي وحافظ

انطلقت الخلية تعب من الدروس السرية التي كانت تتلقاها على يد الأساتذة الثلاثة وزملائهم من أساتذة التكوين الوطني . ودروسهم كانت التكوين العلني للعقل ، واجتماعات الخلية كانت للتكوين غير العلني : الحركة الوطنية ، نشاطها ، أفكارها ، آفاقها ، أهدافها : الإستقلال ، بناء الدولة من جديد على أسس جديدة ، الديمقراطية ، إنقاذ الإنسان المواطن ، القضاء على استعمار الأرض ، على استغلال الإقتصاد ، على السيطرة السياسية ، اللغوية ، الفكرية ، الإدارية ، العسكرية

أفكار أكبر من عقول الفتية الذين يكونون الخلية ، ولكنها في مستوى

عملية التمرّد التي كان يستهدفها المربون في مثل هذه الخلايا

●●●

وتعود به الذاكرة إلى ما قبل سنتين أو ثلاث

كان التكوين عملياً أيضاً

حينما تغيّب أستاذ العربية عن المدرسة علم صاحبنا أنه كان من بين أولئك الذين تحرّكوا ضد الظهير البربري بالتظاهر في القرويين . فكان ممن جلدوا ثم سيقوا إلى المحاكمة فالسجن فالمنفى . وهو يذكر عن تلك الأيام التي بثت الوعي من جديد بين أبناء الشعب أن المواطنين كانوا ينساقون زرافات ووحداناً كلما اقترب موعد صلاة الظهر إلى القرويين حتى إذا قضيت الصلاة اهتزت أركان الجامع بأصوات الآلاف يهتفون

ـ يا لطيف . . . يا لطيف . اللهم يا لطيف ألطف بنا فيما جرت به المقادر ، ولا تفرّق بيننا وبين إخواننا البرابر

وانساق إلى جانب والده ـ بأمر منه ـ إلى الجامع . قرأ اللطيف واهتزت مشاعرهما وهما يرددان مع المرددين . كان يلحظ دموع التأثّر تخنق عيني الوالد . لم يكن يتأثّر كثيراً إلى درجة البكاء . كان ينسجم مع الأصوات المتضرعة يدرك أن شيئاً خطيراً يقع ، يقف فكره عند نقطة التجاوب مع الأصوات الراعدة .

انتهى اليوم بسلام . وفي باب المسجد قال الوالد للفتى

ـ لا تتأخّر قط عن الحضور كل يوم إلى القرويين لتقرأ اللطيف مع المصلين .

لم يتأخر قط حتى أجهضت حركة اللطيف « وابن البغدادي » ـ باشا المدينة ـ يجلد زعماء الحركة ويعتقلهم وينفيهم من فاس

كانت تعليمات الوالد درساً لم ينسه قط

كان الدرس الثاني حينما غاب الأستاذ عن المدرسة في السجن والمنفى ، حتى إذا عاد بعد بضعة أشهر جلس إليه يسأله

ـ ما السجن ؟ ولم السجن ؟ ما المنفى ؟ ولم المنفى ؟

كانت ابتسامته ولمعان ذكاء عينيه أبلغ جواب يتلقاه

ولكن حديثه عن أسباب السجن كان يفتح آفاق تفكيره على الوضع في المغرب حتى إذا جاءت دروس التكوين الوطني كانت تعتمد على أساس من المعرفة القريبة من العملية

حينما كان الأستاذ يتحدّث عن السجن ، عن المنفى ، كان يؤكد أنهما راحة الضمير واطمئنان النفس

ـ راحة . . . ؟ إطمئنان . . .؟

تساءل وهو يشعر بصدق الكلمات في عيني محدّث . أيكون في العذاب ومحنة اعتقال الحرية والبعد عن الأهل والمنزل والمدينة راحة واطمئنان ؟ كان الجواب في حديث الأستاذ

ـ راحة الضمير واطمئنان النفس ليست في المتعة المادية التي يستطيع كل إنسان ، دون أن يكون ممن يتحملون مسؤولية ما ، أن يحققها ، لكنهما في أداء الواجب وتبليغ الرسالة والتأكيد للخصم والعدو أن هناك من يقول : لا من يقول : أخرجوا من بلادنا

كلمات ثورية لم تعبّر عن نفسها بالحرف واللغة . عبّرت بصدق المفهوم الذي يشرحه رجل عائد من السجن والمنفى بعد الجلد وعذاب الجسم

ذلك هو الدرس الأول الذي وعاه صاحبنا من أستاذ العربية في المدرسة الإبتدائية

في السنة بعدها تغيب الأستاذ الثاني وقيل لتلاميذه وهم ينتظرونه في صباح يوم بارد

ـ لا تنتظروا أستاذكم فقد نفي إلى « مدشر » . في قرية بعيدة في عمق البادية

ـ المنفى . . . ؟

السؤال الذي ارتسم من جديد في النفوس الصغيرة . ما معنى أن ينفى الإنسان من مدينته ، أن يبعد عن أهله وأقاربه وتلاميذه وعمله ؟

وكان الجواب

ـ المنفى إجراء اتخذته إدارة الحماية ضد غير المرغوب في وجودهم وعملهم . طبقته أول مرة على الفقية : مدير « المدرسة الناصرية » حينما ضاقت بدروس القرآن والعربية والأدب تلقى على زمرة من التلاميذ الصغار أقفلت المدرسة ونفت الفقيه من المدينة

ـ وهو عقاب . . .؟

ـ أكبر عقاب أن يحرم المواطن من حريته ، فلا يتنقّل في وطنه كيفما أراد . أن يحرم من عمله فلا يُعلّم إن كان معلماً ، ولا يتاجر إن كان تاجراً ، ولا يرتبط بالآخرين الذين يختارهم ويختارونه . أن يحرم طلبته من دروسه فلا يتعلّمون ما لم يكن لغيره أن يقوم به من تعليم ، ولا يؤدي رسالة كان يعتني بأدائها ويعتبرها أعظم رسالاته

تتسع دائرة المعرفة في عقل صاحبنا لتشمل شيئاً اسمه السجن والجلد والنفي ومصادرة الحرية . ويتسع تعرفه على مضمون الحرية فيشمل النفي من المدينة والإقامة الإجبارية في مدينة أخرى أو قرية مهجورة

ـ لا يتسع صدر الآخرين لهذه الحرية . يخافونها كما لو كانت معْوَلاً يقوض نفوذهم . نفوذ « هشّ » هذا الذي يمكن أن تقوضه حريّة معلّم يلقى دروسه على نفر من التلاميذ

هكذا فكّر وهو يحاور الأستاذ الذي حاول أن يوضّح له أبعاد نفي أستاذ من مدينته ، وحرمان تلاميذه من دروسه . قال الأستاذ وهو يحاوره

ـ ما ستقرأه ـ أو لعلك قرأته في كتاب ما ـ من شعار : « الحرية والعدالة والمساواة » الذي يرفعه الفرنسيون منذ الثورة الفرنسية شعار زائف قد يطبق بينهم . يضنون به على الآخرين . الإنسان الذي يتمتع بهذه الحقوق ليس هو الإنسان الذي يجب أن يحرم منها

آفاق جديدة تفتحها كلمات الأستاذ في نفسه . تلفه الدوامة ويجد نفسه يسأل

ـ أسيكون مصيري مثل الأستاذ الذي جلد ، الذي سجن ، مثل الأستاذ الذي نفي إلى « مدشر » مهجور في بادية قاحلة . . .؟

وكان الجواب

ـ ولم لا . ؟

ضاقت الدائرة في الدروس التي يتلقاها بقدر ما اتسعت . حرم ـ والزمرة من زملائه ـ من دروس أستاذ سرعان ما عوضها الأستاذ الأول . انتقل الأستاذ الزعيم بتلاميذه من زاوية سيدي عبدالقادر الفاسي إلى القرويين . ونقل تلاميذه من « الأخلاق والواجبات » إلى « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » دروس في التاريخ الإسلامي ـ فيما يقول الكتاب ـ بدأ يلقيها في زاوية متطرفة من الجامع الكبير . ومن الدرس الثالث اتسعت دائرة الحلقة من التلاميذ إلى الطلبة ، ثم إلى عموم المواطنين الذين أخذوا يتوافدون ، يتكاثرون ، وكأن منادياً دعاهم إلى شيء جديد لم يألفوه لم يجدوه في هذه الدروس الليلية التي تلقى في أطراف من الجامع الكبير أو في مسجد مولاي ادريس . وتنوع الدرس فلا يأخذ جانب السيرة منه إلاّ لحظات ، ثم يتحوّل إلى محاضرة لتوضيح أسرار البعثة : إرادة تغيير مسيرة الكون . . . أسرار الهجرة بالفكرة تغزو أطرافاً أخرى من الجزيرة وخارج الجزيرة . أسرار الإنتصار في بَدْر وأحد . . . ليمكّن الله المظلومين من الظالمين . وتقرأ في دروس الأستاذ الحاضر أكثر من الماضي . يفهم الناس ويتحدثون بما يفهمون . كانت قدرته على التبليغ أقوى من أن تتستر المفاهيم خلف اللغة القاموسية إلاّ بقدر ما لا يؤخذ حجة على تهديد الأمن العام

كانت هذه الدروس تهدد الأمن العام الذي تعارف عليه الحماة بما يمنحونه من مفهوم يحقق أهدافهم . لم يعد هناك أمن في الأفكار التي مرّت بفترة استسلام متقطّعة حتى أيقظتها حرب الريف ، ثم ثورة الظهير البربري ، ثم هذه الدروس التي تجعل من السيرة النبوية درساً في التمرّد على الواقع ، بدلاً من

مجموعة خرافات تتلى في الحفلات التي تقام بمناسبة عيد المولد

وبدأ التفكير في الحد من سيطرة هذا الشاب على الشارع الذي لم يعد يتحدّث إلاّ عن دروسه ، وأوحي إلى « دجال العلماء » لينزل الميدان عل الشيخ يسحب البساط من تحت أقدام الشاب . وكانت فضيحته أن الجماهير لم تهتم بهندامه ولحيته وضخامة جثته وسبحته . . . لم يلبث أن انسحب تعبيراً عن عجزه عن خدمة الذين أمروه بدخول حلقة المنافسة

تفتقت الحيلة باصطناع تهمة للأستاذ : الإفتراء في الدين . وكلّفت الإدارة (عدلين) يحضران الدروس خلف حجاب يحصيان ما يمكن أن يحسب من « تزيد » في الدين . وعجز العدلان عن إقامة حجة . وعجز « المجلس العلمي » للقرويين أن يلفق تهمة للأستاذ تبرر منعه ـ باسم الدين ـ من إلقاء دروسه

صراع خاضه الشعب مرة أخرى ضد الإدارة الفرنسية من خلال هذه المحاولات التي تستهدف منها منع الجماهير من تتبع دروس في السيرة النبوية . . .

هنا مربط الفرس

فقد اختل الأمن العام من خلال إضطراب الرأي العام

لم يشعر صاحبنا والتلة الصغيرة من زملائه باعتزاز كما شعروا به وهم يتابعون الدروس الليلية في مقدّمة الحاضرين . غمرهم الزهو ـ ربما الشعور بالتفوّق ـ على بقية زملائهم في القرويين ، كان يزيد في اعتزازهم أنهم يصحبون الأستاذ بعد نهاية الدرس يتحدّث إليهم ، يستمعون ويتحدّثون في قضايا وطنية أغلبها مما شغل يوم الأستاذ وتفكيره . في الصحبة درس آخر في التكوين الوطني والتوجيه والتوعية . كثيراً ما كان الأستاذ يخرج من الدرس العام إلى درس خاص . إلى تسيير خلية سرية ـ إحداها كانت من كبار علماء القرويين ـ أو حضور اجتماع عام قبل أن يعود إلى منزله في منتصف الليل

آخرون كانوا يصحبونه ، من حين لآخر ، هم الباحثون عن أسرار الليل

الإدارة تعرف أن هؤلاء الوطنيين يتحرّكون بالليل أكثر مما يتحرّكون بالنهار . في الليل تبدأ حركة تسيير الخلايا في المنازل . وحينما يتحرّك الأستاذ في غير طريق منزله يكون حرس الليل في صحبته من بعيد ليعرفوا أي اتجاه قصد

وكانت التقارير التي تكتب عن اتجاه الأستاذ في الليل تضاف إلى ملفه المليء بالتقارير

يجب أن يوضع حد لهذه الحركة

هكذا فكّرت سلطات الحماية وهي تلاحظ بقلق تطور الرأي العام من خلال الدروس الليلية

9

التاريخ ، الذي لا يحقق نفسه ، لا يعلل

كانت الحماية جنيناً مشوهاً ، ولذلك ولدت مشوهة . وتركت بعض المظاهر الشكلية للوطن الذي « لم يفقد سيادته » فقد ممارسة هذه السيادة وكان من تقاليد السيادة التي حافظ عليها المُنَظِّر الأول المرشال ليوطي ـ ويقال أنه كان ملكياً ـ أن يحافظ للسلطان على تقاليد المخزن ،

كان السلطان يتنقّل بين بعض المدن في المناسبات المخزنية التي ورثها عهد الحماية عن عهد الإستقلال . فهو في الإجازة الربيعية في فاس أو مراكش . العاصمتان اللتان تناوبنا على مركزية الدولة كانتا تحظيان باستقبالات رسمية كلما كان لأحداهما موعد مع زيارة سنوية

ومدينة فاس ـ كمعظم المدن المغربية ـ مدينة مراهقة رغم ما يقال عنها من أنها المدينة العتيقة في التاريخ الإسلامي ، أو أنها المدينة العجوز التي يحيى بين أحضانها التاريخ . تعيش مراهقتها وديعة مسالمة هادئة ، تلاحظ بعقل متفتّح ، وفكر واع ، وعيون متفتّحة ، ولسان ذرب ، وسلوك مؤدب متحضّر ، يطبعه الحذر وسوء الظن والتوقع . وحينما تنفجر مراهقتها قد يختفي كل ذلك لتصبح المدينة الشابة المنفعلة الطائشة المتمرّدة . كان السلاطين يخشون انفجار المراهقة فيهها فيدارون شبابها المختفي وراء الشيخوخة . وحاول أحدهم هدمها بالمدافع لتمرّد الدباغين فيها لولا أن بصّره أحد مستشاريه بأنها جوهرة أين لنا بجوهرة أخرى إذا هدمناها . درس ليوطي هذه الظاهرة المليئة بالتناقض فقص أجنحتها حتى لا تطير ، وهو يجرّدها من مركزية المخزن ويعرّيها من سلطة الإقتصاد ، ويحوّل الطرق عنها حتى لا تظل واسطة العقد بين شمال الوطن

وجنوبه ، وإن لم يستطع أن يحول الجغرافية فظلّت واسعة العقدين شرقه وغربه .

زيارة السلطان لمدينة فاس كانت إحدى الفرص التي سنحت للحركة الوطنية لتخرج بها عن طبيعتها التقليدية . فهي زيارة تقليدية تتم في ربيع كل سنة . لعلها من بقايا تحرّكات السلاطين لتفقد شؤون الدولة في الأقاليم فلكل إقليم حظه من زيارة السلطان ومسؤول الدولة . حظ فاس من هذه الزيارات الدورية كان في فصل الربيع . ربما لأن ربيع فاس يتميّز بما تتميّز به طبيعة الإقليم من تمايز في فصولها . ربما لأن ربيع فاس يزهر بما لا تزهر به الطبيعة في أقاليم أخرى . ربما لأن الحظ عثر عثرته في فاس أثناء فصل ربيع فاختصها السلطان ـ والسلاطين قبله ـ بزياراتهم . الحماية جرّدت هذه الزيارة التقليدية من مضامينها السياسية والإدارية ، والعسكرية طبعاً . فقد كانت زيارة السلاطين في عهد الإستقلال لا تخلو من مظهر عسكري تثبت فيه الدولة وجودها عسكرياً ، ولو لم يكن في الأفق ما يدعو إلى إثبات الوجود العسكري انتهت كل هذه المضامين بعد الحماية ، فأصبحت زيارة السلطان ذات طابع فلكوري ، أشبه ما تكون بصلة رحم مع المدينة التي بنت مجد العلويين في الفترة التي اتخذوا منها عاصمة ملكهم

وقد شاهد صاحبنا السلطان مولاي يوسف يزور مدينة فاس في موكب احتفالي رائع . يسير إلى جانبه المرشال ليوطي ببذلته العسكرية ووجهه الباهر ، يتوسطه شنبه الكثّ ، تلمع في وسطه عيناه الزرقاوان المشرقتان يخطو خطوته الثابتة على الأرض التي اختار أن يموت فيها حينما داهمته الحمّى في إقليم تازة وهو في طريقه إلى احتلال العاصمة على رأس جيش الاحتلال . نصحه الطبيب بالراحة لأن الحمى فيه تنذر بشر ، فأمر القافلة العسكرية باستمرار المسيرة . سئل في ذلك فأجاب

ـ لأن يكتب التاريخ أن المرشال مات في مدينة فاس أهم بكثير من أن يقال : ومات في إقليم تازة

رأى صاحبنا والد السلطان ـ رؤية طفل ـ يفتتح المعرض أو يزوره في نفس

المدينة . لا يدري في أي سنة كان ذلك ، ولعلها السنة التي ودع فيها الحياة بقيت صورته عالقة في مخيلته رجل ربعه ممتلئ الجسم جميل المحيا تحيط بوجهه لحية كثّة ، ذو عينين ضاحكتين سعيدتين . استقبله الحاضرون في المعرض استقبالاً هادئاً ، لم تصطفق أكف بالتصفيق ولم يرتفع صوت بالتحية

الموكب السلطاني والمرشالي كان لا يخلو من أبهة يشترك فيها المخزن وحكومة الحماية . وكان مما يزيد في أبهة الموكب أن كلا من السلطان و المارشال كانا سعيدين وهما يزوران مدينة لها عراقتها ـ كانت ـ في ذاكرة التاريخ قبل أن يضع مولاي حفيظ توقيعه المشؤوم

لم تمر غير أيام حتى كان أول من يعلم ، من أفراد العائلة ، بموت السلطان . في عودته من « المسيد » إلى المنزل أسر إليه فتى في لداته في الدرب بأن السلطان مات . دلف إلى المنزل يحمل النبأ الذي لا يعرف ما إذا كان مُحزناً أو مُروعاً . وحينما أفضى به إلى جدته لعلها تفضي به إلى جده الذي كان في البيت نهرته محذّرة

ـ أسكت . . . لا تقل هذا الكلام

لم يردد « الكلام » . ولكنه لم يلحظ في المنزل أي اضطراب للنبأ ، فاعتبره حادثاً عادياً من هذه الأحداث التي تصبح المدينة وتمسيها دون أن تدعو إلى استغراب أو تؤثر في حياة . قد يعود ذلك إلى أن العائلة لم تكن لها صلة بالمخزن في ظروفها تلك .

كان يراد لموكب محمد الخامس أن يكون فلكلورياً تختفي فيه مظاهر الدولة التي كان يصطنعها السلاطين لدراسة شؤون الإقليم والإستماع إلى مطالب الشرائح الاجتماعية التي كانوا يستمعون إلى ممثليهم . وهم يهنئون السلطان ويجددون الولاء والوفاء . وسلطات الحماية وقد جرّدت الزيارة من كل مفاهيمها السياسية والإدارية لم تكن تخشى شيئاً يمكن أن يخل بنفوذها أو مهابتها

غير أن الوطنيين انتهزوا الفرصة فقاموا بمبادرتهم لتغيير ما يراد للزيارة لما يريدون لها .

وحينما كان السلطان يزور المدينة أصرّ على أن يجعل من زيارته أكثر من زيارة بروتوكولية أو رسمية . « سبعة رجال » يتوزعون أحياءها وحواريها المساجد الكبرى التاريخية تقتسم عُدْوَتَيْها . . . والسلطان مدعو أن يؤدي تحية المسجد في كل من مساجدها الكبرى ، وأن يزور أضرحة الرجال السبعة ـ أو هم ثمانية لا أدري ـ في يوم خميس ، وأن يؤدي صلاة الجمعة في جامع القرويين . بدون ذلك لن تكون الزيارة رسمية ، ولن تكون فاس قد قبست من تاريخها الملوكي بعض ما حفل به تاريخها يوم كان الملك لها ، منذ عهد بانيها إدريس ، وعهد المرينيين والعلويين حتى كان ليوطي فحاول أن يجرّدها من تاريخها

وكان ذلك في ربيع 1934

كان « اللاواعي » أو هو الواعي يعمل في الخفاء وهو يوجه الوطنيين فاس التي تستقبل السلطان هي المدينة التي ودّعت عمه قبل ذلك بعقدين من الزمان بعد أن وقّع معاهدة الحماية . والسلطان الذي يزور المدينة هو الذي ولد مع جيل الوطنيين وولي العرش في نفس الفترة التي انبعثت فيها الحركة الوطنية كرديف للمقاومة المسلّحة في الريف ، لم يكن صاحبنا في مقدّمة هذا الجيل ، ولكنه لم يكن في مؤخرته . فلأول مرة يرى السلطان عن قرب ، والذاكرة لا تخونه

في تجربته الثانية مع رؤية السلطان الشاب رأى المدينة تزين ، كما لو كانت عروساً في ليلة زفافها . والمدن القديمة ـ التي تضيق فيها السبل وتتعانق الدور وتتجاور الأسواق والدكاكين ـ تبدو الزينة فيها متلاحمة متزاحمة كما تتلاحم الألوان والأصباغ على وجه عروس لم يعرف وجهها من قبل أصباغاً وألواناً . لم تكن الرايات وسيلة الزينة في أفراح المدينة . قلّما كانت الراية الحمراء ذات النجمة الخضراء ترى في مكان عام ، ولو بمناسبة الإحتفال باستقبال السلطان . والرايات المثلثة الألوان : الأزرق والأحمر والأبيض كانت ترفرف على أبواب الإدارات والمراكز العمومية وشبه العمومية : بنوك وشركات ودكاكين الذين يتخذون الراية وسيلة للإعراب عن ولاء . الأسواق والدكاكين المغربية كانت ترتدي أية حلة ملونة تعلّق كيفما اتفق للإعراب عن الفرحة

الكبرى . وقد تجد دكاناً يبيع الفحم ، كل ما فيه ـ حتى وجه صاحبه ـ يحكى لون الفحم ، وهو يعلّق على بابه قطعة « البهجة » أو « الدنياجات » بزخارفها الدقيقة وألوانها الصارخة . لأول مرة في التاريخ يختفي السواد بألوان « البهجة» أبيضها وأحمرها ووردیها

قالوا : السلطان سيزور سبعة رجال ، وسيجوب المدينة راكباً فرسه المطهم ووراءه « الحاشية » ورجال المخزن الذين لم تعرفهم المدينة منذ سنة ١٩١٢ إلاّ في المناسبات السعيدة . وكان من الاستعداد للساعات السعيدة أن مقدمي الحومات بدوا في أبهى زينة وأروع مظهر يلبسون « قفاطين » ملونة عليها «منصورية » أو « دفينة » شفافة يتمنطقون بحزام حريري « مضمة » . على رؤوسهم عمامة بيضاء ملفوفة بحذق على قلنسوة حمراء . « شد وشاشية » ، وعلى ظهورهم «سلهام » مجنح بجناحي نسر ، يمشي ولا يطير ، يحترفون بخنجر أو « تهليل » من فضة مربوط بحبل حريري أبيض . طالت لحاهم . برع الحلاّق الحاذق في تنظيم شعراتها وتحديق جوانبها ومشط الكثّة منها

أوامرهم تصدر « للعسس » والأعوان وهم يذرعون الحي الذي يقع تحت نفوذهم . عيونهم ساهرة : على ماذا ؟ الأمن لا يستأذنهم . . . المدينة تعج بالرجال . المرأة . . . ؟ عورة لا تخرج لغير الحمام أو زيارة الأولياء . والمدينة في يومها ذاك لا حمام فيها ولا أولياء . . . المرأة لا تحتفل في يوم للرجال فقط والرجل لا يحتفل في أيام النساء . تقاسم الرجل والمرأة الحياة المضيئة . ولعل إحداهن لم تجرؤ على أن تفكّر في أن ترى السلطان في يومها ذاك . ولعل إحداهن لم تعرف من هو السلطان هذا الذي يتحدّث عنه الرجال ، وقد أفضى أحدهم للآخر في سر يشبه الجهر أو جهر يشبه السر : أن السلطان سيزور المدينة ، وسيمر من حينا في طريقه إلى ضريح مولاي إدريس أو ضريح سيدي أحمد الشاوي أو سيدي أحمد التيجاني

المدينة تعج بالرجال والأطفال والشباب والشيوخ ، كل منهم يزاحم ليكون في الصف الأول حتى لا يخفى عليه مشهد ولا يغيب عنه منظر

يوم عيد . المدينة لا عيد لها إلاّ الأعياد الدينية وموسم مولاي إدريس ،

غارقة في العمل والشقاء والبؤس ، ضاحكة مع ذلك لا تسأل الحافاً ، لأنها راضية بما قدّر لها . وما قدّر لها يكفيها حتى لا تموت جوعاً إلاّ حينما يشتد البؤس أو يطفح المرض . في مراهقتها أو شبابها تتطلّع إلى يوم عيد . تقف الحياة الاقتصادية في يوم العيد ، ولكنها تستعيض بالفرحة العارمة عن المكسب القليل ، والرزق المكتوب على الجبين « لازم تشوفو العين » . لا حساب مع الزمن في يوم موسم أو عيد أو استقبال السلطان

ويبدأ الموكب السعيد : في المقدّمة قايد « الروا » وقايد . . . وقايد وقايد « المشور » وحولهم مجموعة من « المحزنية » ـ يمشون بخطوات ثابتة قوية قفاطينهم ملونة و « منصورياتهم » شفافة ، خناجرهم منسدلة على جيوبهم ، قلنسواتهم مرصّعة بعمامات على رؤوسهم . كل منهم يتكئ على عصا أطول من قامته ، نظراتهم بين أرجلهم ، لا يكلفون عيونهم أن تقع على الآخرين الجد يطفح من وجوههم وكأنهم في محفل « حكم » لا في حفلة استقبال السلطان

الشعب وحده كان يعبّر عن ابتهاجه باليوم السعيد : عيون ضاحكة ، أحاديث بهية بهيجة يتحدّث المسن منهم للأصغر سناً عما سيقع ، عن الجولة التي يقوم بها السلطان : أين تبتدئ المسيرة وأين تنتهي ، عن تجاربه السابقة في مثل هذه المناسبة السعيدة ، يشير إلى كل « قائد » مر مبشّراً باقتراب الموكب ويحكي عن دور القائد في الدولة ، في دار المخزن

ويبدأ الحفل بموكب « أبياضى » . نساء هن الوحيدات من نساء المدينة يتجولن في شوارعها ـ يحملن عصيات قوية مكسوات بأجمل ما تلبسه العروس في ليلة زفافها كأنهن عرائس جميلات مزينات بأغلى الجواهر وأجمل حلي ذهبي ، يتبخترن ، وكل واحدة تنافس الأخرى بما تحمل من تمثال عروس تحتفل بمقدم السلطان . وتهتز جنبات الطريق بالتحية : اللهم صلي عليك يا رسول الله . . . وتتجاوب حاملات العرائس ـ ولعلهن « نكافات » «السلام على رسول الله ، لا جاه إلاّ جاه سيدنا محمد ، اللهم صل عليك يا رسول الله . . .» وترتفع الأصوات الجميلة منهن بالزغردات لا تعرف أسواق المدينة وطرقها

زغردات النساء في غير هذه المناسبة السعيدة

مرّت فرق الطبالين والغياطين والنفارين إعلاناً بفرحة المدينة

وتقدّم قائد المشور : رجل مهاب في سيماه جد السلطة ، وفي عينيه المهترئتين صرامة المخزن ، وفي خطواته القوية ـ تتقدّمها عصاه الغليظة ـ عزم القائد وحزم الرائد . كان مقدمه إيذاناً باقتراب موكب السلطان . تطلّعت العيون وطالت الأعناق ووقف القصار من الأطفال والفتيان والرجال على رؤوس أقدامهم حتى لا تفوتهم طلعة السلطان والموكب الذي يتبعه

بدأ الموكب يسير الهوينى . كان السلطان يركب فرسه المطهم ، وعلى وجهه ابتسامة الرضى . كان فرِحاً بالإستقبال الذي خصصه له شعبه . فرسه محاطة بالحرس الملكي يحملون أعلاماً خضراء بيضاء . من المؤكد أنها لا تحكي الراية المغربية . أحدهم ـ أو هما إثنان ـ يتناوبان على الترويح على السلطان بمنديلين كبيرين أبيضين . بحاذى الفرس حمال المظلة الكبرى لا ترفع على السلطان وقاية من شعاع شمس لم تطل بعد على شوارع المدينة . لأول مرة عرفت المدينة هتافاً جديداً

ـ يحي السلطان

وتعالى الهتاف من كل جانب . وكأن السكان كانوا جميعهم على موعد مع التحية الجديدة

كان جلالته مسروراً بهذه التحية يرفع كفّ يمناه يمررها على صدره تعبيراً عن تحيته لشعبه ودعائه له . السعادة بادية على وجهه . سرت رعشة طافحة بين مستقبليه . من شارع إلى شارع . امتزجت عواطف السلطان بعواطف الشعب . خرجت الجماهير من الصفوف الجانبية المتراصة . أحاطت بجواد السلطان وهي تهتف بحياته . عزلته عن الحرس ، عن موكب الوزراء ورجال المخزن الذين كانوا يركبون بغالهم خلف فرسه . بدا السلطان بين جماهير المحتفلين أكثر سعادة . لم يعد في استطاعة أحد أن يفرض النظام أو ينظّم موْكب السلطان . أصبح الشعب متحكّماً في المدينة يسير في مظاهرة رائعة

منظّمة في فوضى ، فوضوية في تنظيم ، وكل السائرين يهتفون بحياة السلطان ، حتى ارتفعت أصوات ، لا أدري من أين ، بنشيد

يا مليك المغـــرب يا بـن عدنان الأبي

نحن جند للفـدى نحمي هـذا الملـــك

أخذ الشعب يردد النشيد وكأنه كان يحفظه بلحنه وكلماته ولعله لأول مرة لقّب السلطان بالملك . طاف السلطان بالمدينة في الموكب الشعبي الذي لم يعد وجود فيه لسلطة المدينة ولا لسلطة الحماية . انفصل الوزراء ورجال المخزن عن الموكب . ولعل كلاً منهم أخذ طريقه إلى مَقرّ إقامته ، حتى أكمل السلطان جولته ابتداء من ضريح مولاي إدريس . رافقه الموكب الشعبي ـ كل سكان فاس من الرجال والأطفال ـ يواصل المسيرة معه مخترقاً المدينة القديمة حتى القصر الملكي في فاس الجديد

عاد الموكب أدراجه ، وقد ودّع السلطان على باب القصر ، يخترق المدينة وجموعه تهتف

يا مليك المغـــرب يا بـن عدنان الأبي

حتى جامع القرويين

رافق صاحبنا الموكب في غدوه ورواحه . كان شعوره بالحرية أكثر من شعوره بالفرحة التي عمّت مجموع طبقات الشعب أكّد لنفسه ـ لا يدري أحد كيف ـ أن المدينة ، التي حققت حريتها في يومها ذاك ، حرية أن تحقق استقلالها في يوم مما تستقبل من أيام . حز في نفسه ـ وهو يعود مع المركب ـ أن راية فرنسية تنتصب في مدْخل أحد البنوك . ولعله لا يدري أي شيطان أسر إليه

ـ لم لا تزاح هذه الراية من مكانها ؟ لم يعد لها مكان بعد اليوم في بلادنا

كان أقل جرأة وأصغر سناً من أن تمتد يده بهذه المبادرة

انتهت المسيرة التاريخية إلى جامع القرويين . تفرّق كل السائرين ، دون

أي حادث يذكر ، وكأنها كانت منظمة تنظيماً دقيقاً . ومن يدري فلعل جماعة معينة من الوطنيين نظمت انطلاقتها الأولى ، وهتفت بالنشيد فرددته الجماهير . ولعلها تدخّلت لتنهي المسيرة في جامع القرويين

لم تكد تمر ساعة أو ساعتان حتى تحدّث الناس : إن شابين اعتقلا بتهمة الإعتداء على الراية الفرنسية وإهانتها . عادت الإدارة فأفرجت عنهما بعد يوم ـ ربما ـ قضياه في الإعتقال

كانت الجماهير الشعبية على موعد مع غده الجمعة . في برنامج السلطان أن يصلي في جامع القرويين . وحتى يصل موكبه من القصر السلطاني إلى جامع القرويين سيخترق المدينة من جنوبها إلى شمالها ، وسيمر في أكثر الشوارع ازدحاماً بالسكان ، وأكثر المراكز التجارية حركة ونشاطاً . وسيكون على الموكب أن يعود من طرق أخرى حتى يكون قد مرّ بمعظم أحياء المدينة ، وتمكّن كل سكانها من أن يتقدّموا إليه بالتحية ويتملوا من طلعته . ويكون هو أيضاً قد التقى مع جميعهم وتعرّف على أحيائهم

زيّنت المدينة كأجمل ما تكون الزينة . واستعدت جماهيرها لاستقباله أيما استقبال . نامت تحلم بفرحة الأمس ، باستقبال الغد . بدأ العد التنازلي لاستقبال الموكب السلطاني على نحو ما استقبل به يوم الخميس . ولم تكد ساعة الظهر تقترب حتى دبّت في الجماهير مقولة سارت مسرى النار في الهشيم نقلها فم لأذن ، أصبحت على كل لسان

ـ ألغي موكب السلطان لأداء الصلاة في القرويين

كان الحزن أكبر من الدهشة . فقد استعدت الجماهير للاستقبال أكثر من ذي قبل . وكانت فرحة الجماهير ستكتمل بيوم آخر سعيد تحقق فيه المدينة حريتها ، سعادتها

اقتلع الناس الزينة من الجدران وأبواب الدور والدكاكين ومنافذ الشوارع والدروب والزقاقات . عم السخط الجماهير وهم يتساءلون

من ألغى موكب الصلاة ؟

ـ الملك مريض

لم يقتنع أحد بما ردده « المقدمون » ورجال السلطة

ـ سلطات الحماية منعته من أداء الصلاة ؟

ترسب التساؤل في ضمير كل مواطن ، و المدينة تبتلع جماهيرها فقد عاد كل إلى منزله أو عمله أو أداء صلاته

ولم يكد ينتهي اليوم حتى عرفت الجماهير أن سلطات الحماية (وباشا المدينة معها) « نصحوا » الملك بألاّ يصلي في القرويين حتى لا تتكرر «فوضى» يوم الخميس . وكان هو سعيداً بـ « الفوضى » الشعبية التي أكّدت للفرنسين مكانة السلطان عند أفراد شعبه . وأمام إصرار سلطات الحماية ألغى بقية برنامج الرحلة . وعاد محتجاً إلى الرباط

لأول مرة في تاريخ الحماية يحتج السلطان بموقف صارم ضد نصيحة إدارة الحماية ليغير من برنامج عمل يقوم به ولو كان برنامج زيارة رسمية لمدينة ولعله لأول مرة يواجه باحتجاجه موقفاً لإدارة الحماية . تلك حتى البداية

لم تكن هذه الرحلة إلى مدينة فاس رحلة عادية من رحلات الربيع التي يخص بها المدينة كل سنة . كانت فاتحة جديدة في التاريخ الوطني . تجلّت في تأسيس العلاقات المتينة بين الملك والحركة الوطنية

10

لم يتفتق تفكيرها عن جديد . الجلد والسجن والنفي . . . ويؤكد الفشل وجوده هؤلاء الذين يجلدون ويسجنون وينفَوْن أكدوا مناعتهم عن أن يغتصب إرادتهم الشابة الحية عقابٌ من نوع ما أتقنه الإستعمار مع الشعوب التي انهارت نفسياتها قبل أن تنهار مقاومتها . ولم يكن شعب المغرب من هذه الشعوب التي وضعت أسلحتها جميعها . كان من الشعوب التي تعيش التجربة حتى إذا فشلت عاشت تجربتها الأخرى

وكان صيف فاس ، وجهنم تدخر لفاس إحدى زفراتها كلما حل بها الصيف . وارتأى الأستاذ أن يستروح نسيم البحر ، وأن يطل ، مع إطلالته على البحر ، على الزمرة المرابطة في حصن الوطنية في الشمال . في تطوان وفي طنجة نخبة من المناضلين الذين جمعتهم جميعاً حلقة من حلقات الدرس في القرويين ، والذين تبلورت في أفكارهم قوة المقاومة وهم يتابعون من فاس ـ حيث كانوا يدرسون ـ أو من تطوان حيث بدأوا دراستهم ، وحيث كانت عائلاتهم تقيم ـ ثورة الزعيم ابن عبدالكريم ، وهو يتطلّع إلى استرجاع المدينتين ويهدد الإستعمار فيهما بالإكتساح . من ثورة الريف ـ أو هي حرب الريف كما كان صاحبها يفضّل أن تسمى ـ رضع شباب فاس والرباط وتطوان ، وكل شباب المغرب الذين عاشوا بوعيهم هذه المعركة الضارية ، لبانَ الثورة ضد الإستعمار وفي ثورة الريف ، رغم نهايتها المؤسية ، تعلّموا كيف يجربون دون أن يقهرهم فشل تجربة أو يصدهم عن ممارسة تجربة أخرى

أطل عليهم الأستاذ ليكون له في الصيف متعتان : متعة الإسترواح من حرّ فاس اللاهب ، ومتعة تجديد العهد مع النخبة التي أقسمت معه على

المصحف أن تقاوم الإستعمار حتى تحقيق الإستقلال . وفي تطوان كانت اجتماعات أخرى من هذه الاجتماعات الوطنية التي تؤكد العمل الوطني ضد طرفي الإحتلال : الفرنسيين والإسبان على السواء . وما من شك في أن الراحة التي وجدها الأولون ، والأستاذ يغادر فاس ويوقف بذلك دروسه المثيرة ، ولو إلى حين ، لم يجدها الإسبان وهو يحل بتطوان فيجدد العهد بالحركة ويتفق مع كتلة الشمال على ما لم يكن في صالح الإسبان على كل حال . وهو الضيق الذي حلّ برحابهم وهم يتابعون هذه الاجتماعات التي تضم جماهير المحتفلين بالأستاذ ، يخطب فيها موجهاً ومثيراً في نفس الوقت ، ويخطب فيها المحتفون به موجهين ومثيرين . حيثما أقام هذا الشاب ، « المشاغب » يجد وسيلة للشغب والإثارة ، وأينما حل يجد الأصدقاء والتلاميذ الذين يحقق معهم ، وبهم ، هذه الثورة الفكرية التي أخذ يتزعمها ويقودها بجدارة وبشجاعة وبأسلوب جديد ، أسلوب يتفق مع أساليب الثائرين المغيرين للأوضاع في تاريخ هذا المغرب ، أسلوب الدعوة والدرس والتعبئة الفكرية والإرادية من أجل التغيير والتصحيح

وكان لا بد أن يعود إلى مدينته ، فاس . طلبته ينتظرون دروسه ، والحركة التي يقودها تنتظر توجيهاته ، وعائلته الصغيرة في شوق إليه ، من تطوان إلى طنجة ومن طنجة إلى فاس . وكانت « الحدود » هي المصيدة التي نصبها حكام الحماية ليصطادوا بها الأستاذ العائد . كان فصل الصيف مناسبة فكروا فيها ودبروا . وانتهوا إلى أن ا عتقاله على الحدود ، فريداً مجرداً من أنصاره وقد غاب عن دروسه أسابيع ، قد يكون أسلم من اعتقاله وهو في المدينة وسط الحفل من تلاميذه ومريديه وأنصار الحركة التي يتزعمها

تعرّفت الحركة في الرباط وفاس على نيّات إدارة الحماية فبعثت من أَسَرَّ إليه : أن أحذر ، فقد عزموا على اعتقالك عد الحدود . غادر المغرب إلى جهة ما ، فليس من المصلحة أن تحرم الحركة ممن نشاطك ، إذا لم يكن داخل الوطن فليكن خارجه . . . » ووجد الأستاذ نفسه محاصراً : الإدارة الإسبانية تمنعه

من أن يعود إلى تطوان مرة أخرى ، وإلاّ اعتقلته هي الأخرى . الإدارة الفرنسية تتربص به عند « الحدود » . الإدارة الدولية في طنجة لن تسمح له بالإقامة في مدينة يتحكّم في « دوليتها » حاكم الشمال أو حاكم الجنوب

ومن طنجة إلى إسبانيا ثم سويسرا حيث لا تستطيع إدارة تتحكّم في المغرب أن تناله بسوء

مرة أخرى عرف صاحبنا أن أستاذاً من أساتذته الذين كان يشعر بالسعادة وهو يتلقى العلم والوطنية بين أيديهم منعه الاستعمار ـ بشكل تهديد بالاعتقال ـ من العودة إلى الوطن ، منفى آخر غيب الأستاذ الذي عرف السجن والإبعاد . سيطول المنفى . . . ؟ من يدري ؟ الإدارة الإستعمارية تتحكّم في إرادتها اعتبارات ليس للمنطق أن يقودها أو يعقلها

يشعر مرة أخرى بالنفي وكأنه هو المنفي . حينما حدّثه الأستاذ الأول عن « الجلد » الذي « حظي » به مع زملائه من ابن البغدادي أحس بأنه هو الذي كان يجلد كان يشعر بالسياط تتهاوى على ظهره ومؤخرته ، والأستاذ يتحدّث عن ابن « عتروس » ـ يرتفع بالسوط قدر قامته المديدة ثم ينزل به على قدر قوته ـ بكى حينما اختلى إلى نفسه . انفجر ألمه . عاد فاستهان بالذي حدث ، وكأنه يشير إلى ما سيحدث . وأحسّ بأنه هو الذي سجن والأستاذ يحدّثه عن السجن . دخله بفكره وعاطفته وأحاسيسه جميعاً ، تعرّف عليه مبكراً ، قبل أن يجتاز أبوابه السبعة ، من حديث الأستاذ وهو يصف السجن بكلمات مختصرة تخلص بها من هموم السجن ليصبها كاوية حارقة في قلب صاحبنا وفكره وعاطفته جميعاً . مرة أخرى يشعر بالنفي ، والإدارة الاستعمارية تحرمه من أستاذ آخر كان يتلقّى المعرفة والوطنية ومضامين ا لحرية على يده ، في عالم مجهول تغمره الوحشة والخوف والمستقبل المظلم

تعمّقت مضامين النفي في نفس صاحبنا وهو يقرأ ويعيد القراءة ليحفظ أولى قصائد المنفى جاءت من بعيد تقول

كن كالسفينة تمشي غير عابئة ... بالموج يصدمها في كل ميدان
أنا الأبي الذي لا يستكين إلى ... ضيم ولا يختشي من كيد إنسان
أنا الوفي لشعبي والمدافع عن ... قومي بكل يد عندي وعرفان
لا يحسب القوم أن النفي يرجعني ... عن مبدأ حل في روحي وجساني
ما النفي ما السجن ، بل ما الموت في وطن ... ما زلت أرعاه إخلاصاً ويرعاني ؟

حرم صاحبنا من دروس الأستاذ كما حرم الطلاب . وحرم الجمهور من دروس المساء التي كانت بمثابة رئة تتنفّس فيها الحرية ، وقد حرمت من الهواء قبل عقود من السنين . تغيّب الأستاذ ، لا يعرف طلبته أين إلاّ أن يتسقّط بعضهم أخباره في سويسرا حيث يلتقي بالرجل الذي كان اسمه على كل لسان كموجه للحركة الوطنية ، وكمفكّر ثوري وإسلامي ضد الاستعمار : شكيب أرسلان . المنفى لم يكن تغييب للأستاذ ونفياً لنضاله وأفكاره ، وإنما كان بعثاً جديداً ارتبط فيه هذا النضال بزعيم آخر كان في ضمير الشعب هو شكيب أرسلان . وكان التقاء الزعيمين زاداً نضالياً للوطن الذي كان اختناق الحرية فيه يدفع به إلى أن يتنسّم الحرية في كل نافذة يهب منها نسيمها

عاد الأستاذ بعد ستة أشهر من غيابه أقوى ما يكون إيماناً برسالته ، وأشد جلداً لتحمّل المتاعب في سبيل أدائها . وكانت استجابة الجماهير التي تحضر دروسه في المساء أقوى مما كانت في الماضي . درس جديد تملاه صاحبنا انضاف إلى الدروس التي تعلّمها من أساتذته هو أن أداء الرسالة محفوف بالمتاعب . وأن النفي والسجن ينتظر كل ذي رسالة . وأن هذا العقاب لم يكن مما يصرف صاحب الرسالة عن أدائها ، ولا مما يصرف الحواريين والأنصار وجماهير الشعب عن التعلّق بصاحب الرسالة والوقوف إلى جانبه

11

لم يكن صاحبنا يعرف من الدنيا إلاّ الحومة التي ولد فيها وترعرع يتنقّل بين المنزل والكتّاب والمدرسة ، وإن تطاول فإلى متجر والده . ويبتعد قليلاً ليزور خالته أو عمته مع والده في الأعياد ، أو ليبلغ رسالة أو حاجة من والدته أو جدته . أغلب الظن أنك لو ابتعدت عنه قليلاً هذه الدائرة الضيّقة من المدينة لضل طريق العودة إلى المنزل أو المسجد أو ضريح مولاي إدريس

ولكن الدنيا تفتّحت له فرحل إلى زيارة الولي الصالح مولاي إدريس الأكبر في جبل زرهون صحبه جده ـ في آخر حياته ـ أطلعته الرحلة على أن وراء المدينة عالماً آخر ، بعيد ، بعيد ، يقطع إليه المسافة البعيدة على قدميه ، ويد جده القوية المعروقة تقبض بحرص على معصمه ، مخافة أن يضيع منه ، إلى باب بوجلود ، ثم تحملهما عربة يجرها جوادان إلى المدينة الجديدة حيث الحافلة التي تصل ما بين فاس وزرهون ، ويعود من زرهون على طريق مكناس لزيارة ضريح آخر لسيد آخر لم يكن اسمه مما يملأ وعيه بالتقديس . هو الشيخ الكامل صاحب مكناس ، ولكل مدينة شيخها وصاحبها . وزيارته مما تستوجبها زيارة مولاي إدريس . . . من حج ولم يزر فقد جفاني

ركب العربة التي تجرها الخيول لأول مرة . وركب السيارة التي تختصر مسافة قطعها جده من قبل في يومين ـ وها هو ذا يقطعها في ساعتين ـ لأول مرة . توسعت معلوماته عن الأدارسة فليسوا واحداً هو « مول البلاد » الذي يبتهج أيما ابتهاج وفاس تحتفل بموسمه ، وإنما هما إثنان : الأكبر يثوي ضريحه على قمة قرية صغيرة أسست على رأس جبل . « والأزهر » وليس « الأصغر » أنشأ فاس أو أكمل بناءها وجعل منها عاصمة دولته .

ـ أيما علاقة بين الإدريسيين ؟

خاف أن يسأل جده فينهره عن سؤال يتعلّق بالأولياء ، وقد لا يكون المسؤول أعلم من السائل

وبدأ الحظ يبتسم له . كان والده يصحبه في « نزهة » الربيع التي ينظمها الأصدقاء خارج المدينة حينما تزهر الورود وتبتسم الشمس وتعشوشب الأرض وتخضّر الحقول ، يقضي الرجال يوماً في ضاحية من ضواحي المدينة ، يلعبون الورق ، أو يسترجعون أحوال التجارة والفلاحة . ويثلمون أعراض الناس . ويظل النساء في المنازل تحضرن موائد الطعام من كل ما لذ وطاب وعند الظهر يحمل الحمّالون (زرزايا) على رؤوسهم الموائد إلى حيث يتنزه السادة

كان من حظ صاحبنا أن صحبه والده في بعض النزهات الممتعة يجلس إلى الكبار فاغراً فاه ، تلتقط ذاكرته الكثير ، ويتعلّم الكثير من هذه الفوارق الجوهرية بين حديث الشباب وحديث الكهول . كان بعضهم يحسن الحديث والبعض يحسن الإستماع ، والبعض مرح إلى حد السخرية من الأصدقاء والخصوم ، جريئاً إلى حد التلفّظ بما لا يجوز من كلمات تخدش الحشمة والوقار يشير له والده أن يبتعد كلما أخذ طويلو اللسان يتكلّمون ويقترب صاحبنا من الكبار وهم يلعبون الورق باصطلاحات وكلمات يعز عليه أن يدرك مفهومها

وكان « سيدي حرازم » من السادة الذين تجتذب مقاماتهم سكان المدينة وضواحيها في فصل الربيع ، ليس فقط لأنه « سيد » ذو مقام كبير فيما تقول الرواية ، ـ ولو أن « قبته » متواضعة ـ ولكن أيضاً لأن به عينا ثرة ماؤها الدافئ «أصفى من الذهب وأحلى من العسل »

كان « سيدي حرازم » المنتجع المحبب إلى كثير من الشباب الذين يتعلّمون السباحة أو يمارسونها في (مسبح) لا يعدو عمقه نصف قامة إنسان ، ولا تتجاوز مساحته عشرة أذرع . لكنه « محيط أطلسي » لمدينة أغلب سكانها لم يروا البحر

دهش صاحبنا وهو يشهد شباباً يقفزون إلى الماء عراة إلاّ من قميص أو سروال يستر ، ما ستر الله ، من عوراتهم . وهَمَّ أحد الشباب من الرفقة أن يعوم هو الآخر ، فاستأذن الوالد في أن « يُعَوِّم » ابنه . كان الوالد مما لا يسمح لنفسه أن يتعرى إلاّ في الحمام ، ولا يسمح لنفسه أن يعوم أو يسبح على مرأى من الآخرين . وما يدري أحد ما إذا كان ممن يعرف كيف يبطفو على وجه الماء . اقتاد الشابُ صاحبَنا بعد أن نضا عنه ثيابه . حمله على وجه الماء حتى إذا تاقت نفسه أن يعوم مع العائمين أوقف صاحبنا على صخرة بين صهريجين ثانيهما للنساء . أوصاه بالإنتظار وسبح مع السابحين . حاول الطفل الصغير أن يقلّد الكبار فسبح في صهريج النساء ، وليس به نساء . لا يعرف كم من الوقت ظلّ تحت الماء لعل رئتيه امتلأتا حتى الثمالة . لا يدري أحد أي إلهام نبه أحد السابحين فبحث عن الطفل الذي كان يقف بين الصهريجين فلم يجد . وكان الإنقاذ في آخر لحظة ، والطفل بين الموت والحياة

لو كانت الأولى لما كان لصاحبنا لقاء مع قارئ هذا الكتاب

مغامرة أقنعت صاحبنا أن الماء غدّار وأن السباحة قد تكون فيها النهاية

ولكن الصحبة تفضي إلى ما لم يألفه ، وتدفع به إلى أن يجرأ على ما لم يكن يرتكب من « الكبائر »

الأصدقاء الذين تعرّف عليهم بعد ذلك في المدرسة أو في القرويين كانوا يرتادون المتنزه الوحيد في المدينة « جنان السبيل » وربما زلّت بهم الأقدام فزاروا المقهى في عشية من عشايا يوم جمعة ربيعية . صاحب المقهى جزائري متحرّر « يشنّف أسماع » زبائنه بأغاني عبدالوهاب وأم كلثوم من الحاكي ذي بوق مكبّر :جفنه علّم الغزل . أمانا أيها القمر المطل »

كانت المقهى ، فيما استقبلت من أيامها ، مرتاداً لبعض تلاميذ القرويين والمدرسة الثانوية . وفي ركن منها يتحلّق مجموعة من الأساتذة الجزائريين في المدارس الإبتدائية . صاحب المقهى مغتبط بهذه النخبة من رواد مقهاه ، سعيد بخدمتهم ـ ولو طالبوه بإعادة نفس الأسطوانة مرات ومرّات كان صاحبنا يشعر بسعادة غير ذات أبعاد وقد أتيح له من الحرية ، التي أدركها

بعد تقدّمه في السن ما لم يكن ليتاح ، لولا هذه الصحبة المتحرّرة التي زاغت بأقدامه عن أن تنحبس في الحي الذي ولد فيه وترعرع

حر فاس يخنق الأنفاس . كانت رغبة من خال له يتاجر في وهران أن يرى ابن اخته ، وقد يفع ، كانت تتردد بين الوالد والوالدة على السواء . وقد آن الأوان ـ والصيف مناسبة ـ لينطلق الفتى إلى قطر آخر

انتقل صاحبنا إلى وهران . كانت غير فاس . طافحة بالحركة تجوب شوارعها السيارات والحافلات والعربات ، يعيش الجزائري فيها والمغربي (العَرْبي) شبه غريب الوجه واليد واللسان . يبدو كأن أغلبية سكانها من الفرنسيين واليهود والإسبانيين . العرب فيها معزولون في أحياء معينة بضاعتهم مزجاة من العملُ والتجارة وطيب العيش . ميناء تفد إليه البواخر ـ حيث يعمل الجزائريون حمالين وشغالين ـ ينطلق من الباخرة فريق من بحارتها العسكريين شباب تعلو محياهم العافية والصحة والشبق . يسكرون في ليلتهم تلك ، وسيدعون في غدهم إلى رحلة أخرى ، ويتضورون جوعاً جنسياً في المدينة يبحثون عن المرأة . يملأون الشوارع ضجيجاً بالغناء والإنشاد الجماعي . ولعل طوافهم ينتهي بهم إلى غرفة دافئة في حي من أحياء اليهود

وجد صاحبنا في وهران مدينة أخرى بدت له أكثر تحرراً . الباعة يتجولون يملأون الشوارع صياحاً ببضاعتهم : بطاطا ، طماطم ، تيناً ، صحفاً نعم تباع صحف ـ طبعاً بالفرنسية ـ ويقرأ الناس الصحف دون خوف من شرطي ، ويتحدّثون بصوت جهوري مع اليهودي والإسباني والفرنسي دون أن يلاحقهم الرعب ، ويسكنون شقة لا داراً . صُدم صاحبنا واعتراض يواجهه

ـ يسكن المسلم شقة وفوقه يسكن نصراني أو يهودي ؟

ـ وماذا في ذلك . . . ؟

ـ أرأيت لو كان بين يديّ المسلم مصحف أو كان يصلي والنصراني أو اليهودي يسكر فوق رأسه . . . ؟

بهت صاحبنا . منطق المعترض لا يقاوم

سمع عن البحر . قيل له أن بوهران بحرا . ترى كيف يكون البحر؟ في فاس يتندرون بالعربي في الشماعين . والشماعين سوق يباع فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من تمور وجوز ولوز وتين مجفف . يسيل لعاب العربي يندهش لكل هذا الخير العميم ، يتيه ويضيع . وكذلك كان صاحبنا وهو يسأل عن البحر . لم تكن أسئلته فريدة في سذاجتها ، فلو سألت في فاس أكبر الناس سناً وأوفاهم قدراً من الذكاء عن البحر لوقف فاغراً فاه أمامك ، كما يقول العربي في « الشماعين »

فوق ربوة تكسوها حديقة منسّقة جميلة هادئة اكتشفت عيناه البحر في زرقته الصافية وأمواجه الهادئة يتجلّى كبساط مسالم يغري بالإختراق . فتن صاحبنا بهذا الذي يرى . تطلّعت عيناه إلى الأفق البعيد الواسع . بدا له الأفق نهاية البحر

وكان له لقاء آخر مع البحر في زاوية أخرى من زوايا وهران في شاطئ سباحة . كان صاخب أقوى ما يكون الصخب ، غاضباً أعنف ما يكون الغضب . يوم قائظ هرع فيه سكان المدينة ـ جميعهم فيما يحسب الرائي ـ إلى شاطئ السباحة ، كان الشاطئ حانة للسكارى والمشاغبين من الأوروبيين ، حتى إذا غابت الشمس أو كادت تصارعوا على عربات القطر (الترام) ، وانفجر غضبهم كما علمهم البحر الغاضب أن ينفجر . وكان من بينهم ضحايا يقعون من القطار ـ وهو يتحرّك ويحمل أكثر مما يطيق ـ ثملين على وجوههم فتتعفّر بالدماء والتراب والقذارة

ـ لا يمثّلون شعب فرنسا الهادئ المتحضّر المسالم

هكذا فكّر صاحبنا . ولم يكن يعرف عن شعب فرنسا إلاّ أنه شعب الحضارة

في وهران فتح عينيه على قوم لم يكونوا يختلفون في شيء عن الذين عرفهم في مدينته بسطاء وفقراء متدينين يعرفون أنفسهم بالمسلمين والعرب ، لا تكاد تسمع « جزائري » « مغربي » يبدون مستسلمين ، ألفوا السلطة الأجنبية . كل همهم أن يسعوا إلى رزقهم البسيط في هدوء لا جلبة ولا إثارة

أغلبهم أميون أو أنصاف أميين غزت لهجتهم العربية كلمات فرنسية يرطنون بها كما اتفق . المغاربة يعيشون بينهم وكأنهم في بلادهم . اصطدمت أذن صاحبنا بالكلمات الأجنبية تختلط بالعربية في لهجة بعض الجزائريين والمغاربة . لغة الخطاب في فاس كانت ما تزال نظيفة سليمة ، ولو أن كلمات : « الكايي » و « الكريون » «لوليڤر » و« لا ريكل » بدأت تتسابق إلى لسان تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان

بعض الفتيان المغاربة من أبناء التجار ارتادوا المدرسة الإبتدائية فأطلقت لسانهم بالفرنسية . وتشبه اليافعون منهم بالنصارى فأعفوا شعور رؤوسهم ، وحلقوا لحاهم وتجرأ بعضهم ـ وهم قليل ـ فلبس البذلة الفرنجية وكانوا من الضالين

مدينتان أخريتان عاشتا في ضمير صاحبنا تاق إلى زيارتهما كلما فكّر في الإنعتاق من مدينته حينما يرهقه صيفها المثير

جرّب صاحبنا رجولته واستقلاله الذاتي سافر وحده لأول مرة إلى طنجة تسبقه فكرة مضبّبه عنها . العاصمة الدبلوماسية للمغرب المستقل ، المتحررة من النفوذ الفرنسي ، دولية لا فرنسية ولا إسبانية ، المدينة المتحضّرة يتحدّث فيها الناس عدة لغاب ويتداولون عدة عملات ، ويلبس بعضهم الجلابة و«الشد والشاشية » ، وبعضهم البذلة الأوروبية ، تتوزع فيها المقاهي في كل مكان ، تتجوّل السيارة والعربة في شوارعها ولو ضاقت ، ويحتضنها البحر أو تحتضنه فهي مدخل البوغازه

نزل صاحبنا في طنجة كالعربي في الشماعين ، لا يعرف ـ وقد لفظته الحافلة ـ أين يضع قدمه . أبصر قدامه طريقاً فمشى . سأل عن السوق الداخل . إسم ظل عالقاً بذهنه . وجد نفسه في السوق الداخلي . مقهى صغير خيّل إليه أنها كبيرة ، حافلة بالروّاد ، يتحلّق حول موائدها عشرات ، يتكلّمون لا يسكتون ، يدخنون الدخائن والسبسى يلعبون « الدوميو » و«الضامة» . لم يتعرّف على أحد في المقهى استأنس باللهجة الطنجية الدقيقة في نطق حروفها ، وكأن كل متكلّم معلّم في مدرسة . شغل نفسه بالناس ،

بالمارة وهم يقتلون الزمن كله ، تجوّلت عيناه في الدكاكين التي ظلّت مفتحة رغم بداية الليل ، بائع الدّخان قريب من المقهى يعلق أوراقاً . اقترب منه ، اكتشف من بينها مجلة « الرسالة » . اقتناها ، جلس يقرأ . تخلّص من الذين يتحدّثون بصوت عال ولا يفكّرون في أنهم يزعجون الآخرين . لأول مرة يجلس في مقهى على قارعة الطريق دون أن يخشى رقابة من أحد يمكن أن يبلغ والده أنه رآه رأي العينين يجلس في المقهى . الحرية في طنجة . أول ليلة فيها أدرك حريته فجلس في المقهى يحتسي كأس قهوة ويقرأ مجلة

بدأ الزقاق الضيّق يبتلع رواده . انتبه . لعله كان غافلاً . لم يفكّر في مشكلة اعترضته . أين يقضي ليلته . لأول مرة يفتقد فراشه الوثير . لم يكن يسأل من قبل : أين ؟ وفي أي فراش سيقضي ليلته ؟ أقفر زقاق السوق الداخل أو كاد . رفع عينيه عن مجلته وقد عاش فيها ساعتين أو ثلاث مع طه حسين والزيات وأحمد أمين وعبدالله عنان وأنور العطار وربما الزهاوي والرصافي اصطدمت بجار ما يزال يقتل الليل على كرسي متهاو يدخن السبسى

ـ أتعرف ـ أيها الأخ ـ فندقاً يؤويني ؟

كان الرجل بشوش الوجه حلو المنطق خدوماً ، عرف أن صاحبه غريب غشيم . اصطحبه ليدله على فندق قريب . قدّمه بلغته الإسبانية ، ربما كانت مكسّرة ، لا يدري ، إلى السيدة صاحبة الفندق

ـ نظيف ورخيص . ريال واحد . إدفع لها ريالاً قبل أن تسلّم لك مفتاح الغرفة

لعلها حدّثته بكل ذلك بلغتها الإسبانية

كانت سعيدة مرحة فلعل صاحبنا كان الضيف الوحيد في الفندق الكبير . غرفة واسعة من دار شبه مغربية . دخلها وبه من نعاس قدر ما به من جوع . لم يبحث عن مطعم فهو لا يعرف طريقه إلى مطعم . لعله لم يجرب في يوم أن يتناول طعاماً في مطعم عام . فضّل النوم على أمل أن تسفر طنجة له عن يومها المشرق الصبوح ، عن بحرها الهادئ أو الصاخب ، أطفأ النور ، التحف

جوع . لم يبحث عن مطعم فهو لا يعرف طريقه إلى مطعم . لعله لم يجرب في يوم أن يتناول طعاماً في مطعم عام . فضّل النوم على أمل أن تسفر طنجة له عن يومها المشرق الصبوح ، عن بحرها الهادئ أو الصاخب ، أطفأ النور ، التحف بغطائه . بدأ خدر النعاس يغتال عينيه . شعر بشكة في عنقه كما لو كانت شكة إبرة . حك ظفره جلده . لسعة أخرى أقوى ، أشد حدة ، في ساعد لم يتفح عينيه فما في الغرفة غير بعد واحد هو الظلام اللانهائي . وهل يخفي ظلام الليل آلام النهش والعض ؟ . أسرج النور كانت أسرابه تتداعى . أحسّت جميعها أن الغرفة تؤوي صيداً ثميناً ، من يدري لعلّها لم تظفر بصيد منذ أيام؟ . تذكّر قصيدة شاعر الحمراء

إن كان في طنجة ما تشان به ... فإن طنجة فيها المطعم البلدي
تلقاك راقصة بالباب قائلة ... يا مرحباً بيوف المطعم البلدي
والبق كالغول حجماً إن جهلت به ... لعله في سرير المطعم البلدي
تبيت روحك بالأحلام في رعب ... إن بت فوق فراش المطعم البلدي

فكّر في فتح الباب والفرار ، إلى أين ؟ كان مرعوباً من الهدوء يعم الدار الكبيرة . منذ استقبلته على الباب السيدة الإسبانية لم تتحرّك في الدار الواسعة قدم ولا سمع صوتاً ولا انفتحت أو انقفلت باب . أسرج النور جلس يصارع حشوداً تهاجمه ، تتداعى من كل صوب ، تعلّم أن يستعمل الوسطى والإبهام وأن يقذف بكل جريئة تقصده إلى حيث تأخذ طريقها من جديد إليه . كانت الحرب سجالاً . والمنهزم فيها هو صاحبنا

وضع أخيراً السلاح مع صوت المؤذن : أصبح ولله الحمد

حمل حقيبته . تلمّس طريقه نحو الباب

ـ الصبح لله : مالك مستعجلاً ؟

هتف به الحارس النائم إلى جوار الباب متلفعاً بجلبابه . لعله لم يأو إلى فراشه « الناعم » إلاّ قبيل الفجر بقليل ، فتح له الباب وهو يلعن الصباح الذي

رأى فيه وجه هذا الغريب

وفتحت طنجة له قلبها الصبوح منذ ذلك الصباح الذي غادر فيه الفندق دون أن يذوق طعم النوم

كان استغرابه شديداً والحافلة تقف به في ساحة منيرة بيضاء رائعة جميلة . بدأ الركاب ينزلون حتى بقي وحده ومساعد السائق يهتف به انزل ، هذه تطوان

كان يحسب أن تطوان بعيدة عن طنجة بعد طنجة عن فاس . ساعة وبعض الساعة في طريق منعرجة أشد ما يكون الإنعراج ، ووصلت الحافلة إلى تطوان . كانت المدينة حلماً سمع عنها الكثير ، وتردد في ذاكرته أسماء لامعة علماً ووطنية قبل أن يغامر ويقفز إليها وفي نيته أن يقصد صديقاً للوالد كان يرحّب باستضافته . فيها التقى لأول مرة بزعماء قياديين وأساتذة . وفيها زار نادي جمعية الطالب . استمع إلى خطب ومحاضرات . شارك في رحلة طلابية إلى قرى بعيدة يحتضنها الجبل تجمّع فيها السكان يرحبّون بشريف وزان (سيدي التهامي) وصحبه . كان الصحب نحو ثلاثين . أقسموا ليذبحون حتى لا يتهموا بالفقر أو البخل . زيارة مرور اقتضت من الزائرين نصف يوم ننتظر الذبيحة والطهي لنأكل قبل أن نغادر

في تطوان زار مع نادي جمعية الطالب الشاطئ جرّب أن يسبح مع السابحين . أن يعبث بالرمال مع العابثين أن يكون شاباً متحرّكاً لأول مرة في حياته

الحمامة البيضاء التي بشّرت بالحياة والسلام والمعهد الحر . . . عروس الحرية هكذا رآها

12

يجتاز صاحبنا فترة مثيرة أخرى لا تقل إثارة عن الفترة المضطربة التي يعيشها كتلميذ يمر بتجارب مثيرة في حياته . كان فتى ، ككل فتيان سنه ، يعيش فترة مراهقة عنيفة يصطدم فيها ـ داخل نفس واحدة ـ جيلان كأقوى ما يكون الإصطدام : تجتذبه اليفاعة والشباب اجتذاباً قوياً شديد القوة ، من صبى وفتوة عرف فيهما الوداعة والإطمئنان والرضى والمسالمة . لم يعرف صباه ولم تعرف فتوته بعض هذا الذي يعرفه الصبيان والفتيان من صراع ومغالبة وعنف أحياناً . لم يكن يعود إلى أمه من المسيد أو المدرسة ممزّق الثياب مشروخ الرأس دامي الأنف مخموش الوجه . لم يكن يلعب مع لداته في الدرب والحومة لعبة عنيفة تفضي إلى مغالبة ومصارعة ، وإنما كان طفلاً هادئاً لا يثير ولا يُثار ، لا يغالب ولا يغالَب ، لا يضرب ولا يخمش ولا يُضرب ولا يُخمش . قد يكون ذلكَ من طبيعة التربية التي لقيها في المنزل حيث يكون « الأدب » والهدوء السيرة المثلى للكبار والصغار على السواء . قد يكون لأن المنزل لم يكن يعج بالأطفال من أقرانه حيث يمكنهم في لحظة غفلة من الكبار أن يتصارعوا ويتضاربوا فيخرج منهم غالب ومغلوب . قد يكون من الحكم الصارم الذي أحاط به طفلاً وفتى لا يغيب عن البيت إلاّ في المسيد ثم المدرسة ، ولا يغيب عن المسيد أو المدرسة إلاّ في المنزل . قد يكون من هذا الروح الديني الذي نفثه فيه جده ، وهو بعْد صبي لا يعرف شيئاً اسمه الدين ، حينما كان يأخذه من يده يوم الجمعة لأداء الصلاة في القرويين ، وحينما أخذه ـ وهو بعد طفل لا يعرف له سناً ـ إلى زيارة ضريح مولاي إدريس الأكبر بزرهون في موسمه السنوي ـ وكانت أول مرة يكرب فيها سيارة ـ وحينما كان يسأله كل مساء أن يدلف إلى مسجد الدرب ليصلي المغرب جماعة ، وليجمع المغرب والعشاء مع الجماعة

كلمـا أمطرت السـمـاء وأوحلت الأرض . لقنه ذلك عن طريق المثل دون أن يتحدّث له بشيء : كيف يكون الرجال المهذبون الذين يسعون إلى الصلاة في هدوء دون أن يشعر أديم الأرض بوطأة أقدامهم ، كيف يكون الرجال المسالمون الذين يرحلون ـ رحلة شاقة على نحو ما كانت الرحلات في ذلك الزمان ـ إلى ضريح فاتح المغرب المبشّر بالإسلام فيه ، الثاوي على قمة جبل زرهون ، لينعموا في ضريحه بالصلاة والدعاء والزيارة ، ولتحلّق أرواحهم في سماء الملكوت

شيخاً كان في طفولته ، كما لم يكن أي طفل شيخاً ، هادئاً مسالماً بعيداً عن المغامرة ، عن الإثارة ، عن التمرد ، حتى إذا أطل عليه هذا العالم الجديد ، الذي لم يكن يدري كيف تربّص به ، انتزعه من هدوئه النفسي وراحته الجسدية ووحدته الذاتية أي شيطان عبث بكل ذلك فجعله يثور لغير ما سبب . لا يعرف كيف يصرف الطاقة الجديدة التي حرّكت شخصيته الناعمة الهادئة المطمئنة . لا يلعب كرة كما يلعب لداته في الدرب بكرة الخرق البالية ، لا يصارع كما يصارع الصغار ، وكما رأى مرة الكبار يتصارعون ، وهم يتبارون ، في ضريح مولاي إدريس الأصغر بمدينة فاس يوم موسمه الكبير ، ولا يضرب كما كان يرى « صعلوك » الحي ـ وكان طفلاً كبيراً قوي الجسم مفتول العضلات ـ يضرب كل طفل وقف في طريقه ، لا يركب دراجة كما رأى بعض لداته في المدرسة يركبون « يسابقون الريح » راكبين « عود الريح » يطوفون بالساحة الكبيرة في لحظة عين ، يغيبون عن ملتقى نظراته ثم يعودون وكأن شيطاناً مريداً بعثهم ، وإنما كان يفتقد كل ذلك ، فلا يستطيع أن يفجّر هذه الطاقة الجديدة التي تسرّبت إلى جسمه ونفسه من حيث لا يدري إلاّ في التمرّد أحياناً ، أو في الثورة الغاضبة التي لا تتجاوز مداها في كثير من الأحيان .

يعيش في المدينة المقفلة كما لو كان في بيت من زجاج . لا يستطيع أن يتخلّص من أعين الفضوليين والملاحظين والناقدين . الإنسان هو عدة الإنسان في سهراته وأحاديثه الفارغة وملاحظاته وانتقاداته . أنت صديق حبيب ، ولكن لا تسلم من لسان صديقك وحبيبك ، هو ، وأنت ، لا يعتبر حديثه

عنك غيبة أو نميمة ، لأنك لا تعتبر حديثك عنه غيبة أو نميمة . ولذلك يسلقون الأصدقاء والأحباب بألسنتهم قبل أن يسلقوا الغرباء والأعداء . فراغ فكري ، غياب « الشخص الثالث » في الزمن العاطل ، أعني الصحيفة والمذياع والتلفاز تتحدّث إليك بما يمكن أن يكون موضوع حديثك ، توحي لك بأشياء وقضايا تمتص طاقتك في الغيبة والنميمة والنقد والملاحظة

في هذا البيت الزجاجي ، المقفول المفتوح ، لم تكن للفتى قدرة على تصريف الطاقة الجديدة التي تسرّبت إلى جسمه ونفسه وإحساساته جميعاً . لا يملك أن يغادر « حومته » إلاّ كان هناك من يلاحظهْ وينتقده ويبلغ عنه . لا يستطيع أن يتطلّع بعينيه ، أو بجسده ، إلى الآخر إلاّ كان مراقباً مُنتقداً معاقباً ، يتحدّث عنه الناس بما لا يرضي العائلة ولا يتفق مع كرامتها . وهو من أجل ذلك يضع نفسه مكان الآخرين ، ينتقد نفسه ويحذّرها مما قد لا يشين ، يقهر رغباته ، يكبت تطلعاته الجسدية والنفسية وحتى الجمالية منها . . . هو في ذلك مأخوذ بـ « العيب » الكلمة التي تتردد على كل لسان من أمه وأبيه حتى الشيخ العجوز الذي يقضي فترات من وقته مقرفصاً بباب مسجد الحي ، عيناه تتحرّكان مع كل المتحرّكين ، فكره يختزن كل « عيب » يأتي به الآخرون . وهو في ذلك لا ينسى أنه جلس في عشية من عشايا صيف لاهب على باب المسجد كما يفعل الشيخ العجوز . وكان حديث عهد بوضع طربوش يدفئ رأسه المحلوقة في الشتاء . التهبت رأسه من شدة الحر فنزع طربوشه ليستروح من لهيب الحر . كان ذلك « عيباً » لاحظه الشيخ العجوز وهو يمر بباب المسجد ، وأبلغ هذا « العيب » ـ الذي لا يغتفر ـ لولده . كان مبعث ملاحظة بريئة لم يستحق عليها أي عقاب

وهو في ذلك مأخوذ بهذه الدروس الفقهية الدينية وخطب الجمعة ، التي يأخذ بعضها بتلابيب الحرية الشخصية والإنسانية ، يجعل من الفتى والمرأة والشاب مجرمين إلى أن تثبت براءتهم ، وهيهات أن تثبت . العين تزني واليد والرجل تزني . والشاب ، وهو يعاني الكبت والحرمان ، زان ينتظر الحد بالرجم . كان صاحبنا يخاف الحد ويخشى الزنا ، ويرتعب وهو يتصور النار التي

أعدت للفاسقين . يطير النوم من عينيه وهو يتصوّر الصراط : أرق من الشعرة وأمضى من السيف ، يهوى منه الذين زنت عيونهم أو أيديهم أو أرجلهم سبعين خريفاً إلى قعر جنهم ، وبئس المصير . يخاف من « العيب » يتملّكه الرعب من المصير . يعيش دون نافذة ضوء يطل منها على شباب الجنة الذين ينعمون بالحور العين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يفعلون

وتظلم الدنيا أمام عينيه . يدفن نفسه في الكتب . يقرأ أي كتاب وقع بين يديه . فهمه أو لم يفهمه . يطفئ عذاباته النفسية والجسدية في الحرف ، في الكلمة . تشغله عن التفكير في الآخر ، عن التطلع إلى الباب المسدود ، تحجبه عنه نار جهنم أعدّت للكافرين والفاسقين والمتمسحين بجدار العيب

الكلمات « الفاجرة » ينطق بها بعض لداته ، بعض فتيان الحي ، تغرقه في الخجل . يحمل لهم كثيراً من الاحتقار ، ينأى عنهم مخافة أن يصيبه رشاش العيب . يتحدّث آخرون عن القصة كاملة ، يجد نفسه منساقاً إلى سماع جزء منها قبل أن يستيقظ في جسمه الخوف من سياط تهوي به إلى الجحيم . الأذن تزني . . . قال خطيب الجمعة . يود لو عرف النهاية . كاد يتأكد من أن الراوي يحكي من تجربة سينمائية . كان الراوي يرتاد « طياطرو طريانة » ويشهد شريط « العريبي وبثينة » ويجعل من نفسه « عريبي » يتخيّل بثينة تملأ أحلامه بالليل فيملأ بها حكاياته بالنهار . ويبتعد عن مجموعة الصعاليك

يمر بالتجربة التي تعلمها علماً عند فقيه العلم . هو ذاك الذي وصفه الفقيه وحلله ، وعلى فمه مشروع ابتسامة جادة . أرهقه أن يُصَبِّح كل صباح ، قبل ساعات الدرس ـ على معلم الحمام ، أن يختلس فوطة من المنزل ، دون أن تدري أمه ، أو هي تدري ـ رسمياً لا تدري ـ كل صباح لينشف جسمه بعد أن يغتسل . يخجله أن يجد في حمام « الحومة » رجالاً في عمر أبيه ، أصدقاء الوالد . يود لو لم يره أحد . الحمام يدخله فتى في مثل سنه ، في صباحه ذاك مظنة « العيب » . اعتاد أن يتعرّف عليه الرجال في ظلام الحمام ذاك . يحاول أن يختفي في « المطهرة » لا مكان في المطهرة إلاّ للرجال ا لمعتبرين . قال له

معلّم الحمام يوماً : لا تدخل الحمام . ابتعد . عد بعد ساعة . فهم . في الحمام ما يخجله أن يواجهه . دخل يوماً دون أن ينتبه معلّم الحمام . كان وجهاً لوجه مع والده . كاد يغمى عليه . أسرع فاغتسل . خرج يتعثّر . لاحظ معلّم الحمام

ـ مرة أخرى لا تدخل قبل أن تستأذنني

غير الحمام ليكون على مبعدة من الحرج والخجل والمواجهة . . . كان معلّم الحمام الثاني شرساً سليط اللسان ، عيناه كعيني صقر . يراقب ويأمر عمال الحمام أن يراقبوا . دخل فتيان ، وهو يستريح من عناء القاعة الساخنة الجهنمية المخنوقة الأنفاس ، جهر معلّم الحمام لعامل من عماله : أن راقب كن حذراً . . . لم يفهم صاحبنا ، والمعلّم يوري ، يكاد يصرح . تكرر المشهد أمامه . فهم . . . الحمام أيضاً مكان العيب

ضاقت المدينة . اختنق بضيقها ، بالعيون المراقبة ، بالذين يتحدون فيعاكسون سيدة محترمة متلفعة في « حائكها » الأبيض متلثمة ببرقعها لا يرى النور غير عينيها . قد تكون ملاكاً ، قد تكون شيطاناً . الحائك الذي يلف الملك يلف الشيطان . تعلمن أن يتحدين خلف لثام الحشمة والوقار . بعضهن كن يجتذبن الرجال بعيونهن الجميلة . يسرها أن تسمع كلمة من هذا ، كلمة من ذاك . وتجيب بعينها فيفهم العاشقون . تتحرّك لغة أخرى . يختفي الرجل من دكانه . كل شيء ممكن في مدينة « العيب » في ممر قليل رواده يتحدّث إليها ، تتحدّث إليه ، خلف حجاب سميك . يعود الرجل إلى دكانه مبهور الأنفاس باسم الثغر ، سعيداً بالذي حدث . يهتف به جاره في الدكان ، يورى ، يكاد يصرح . يجيب معتزاً برجولته ، بحظه مع النساء . تعود المرأة إلى المنزل

ـ وجدت الحمام مزدحماً . أجلّت إلى الغد

تعيش المدينة تجتر أسراها . لعبة الرجل والمرأة تجد لها مسرحاً في السطوح ، في الحواري المهجورة ، قليل روادها . في القيصريات وأسواق البلغ وسوق النقرة « الفضة » . تبقى الآذان مرهفة ، العيون مفتحة تراقب ، تنشر

الرعب في نفس فتى يرتعب من العيب ، من كلمة انتقاد توجه إليه ، وقد نضا طربوشه عن رأسه مخافة أن تنفجر وقد غم عليها في يوم قائظ

ظل صاحبنا يتحمّل عذابات الجحيم النفسي والجمسي . يتحمّل وهو يعد نفسه ليكون القدوة في الخلق الكريم . وهو من أجل ذلك يخشى ـ تلقائياً دون أن يعي ـ أن تثلم كرامته أو كرامة العائلة من العيون النافذة وراء بيت الزجاج

شبّ الفتى وهو يعاني مجموعة من العقد النفسية والجسمية جميعاً يخشى المرأة ولا يقوى على التطلّع إلى وجهها ، فيسدل عينيه ، ولو كانت عيناها مركزتين في وجه ، يكاد ـ دون أن يعي أو يتقصّد ـ أن يسدل ستار أذنيه وهي تتحدّث إليه . الأذن تزني . . . قال خطيب الجمعة في يوم من أيام طفولته

يفتح أذنيه في الشارع تصدمهما كلمة غزل فاضح يوجهها هذا لتلك ، لا تكاد تتلفت إليه ، تسرع في خطواتها كأنها تفر من وحش يكاد يتخطّفها ، تتعثّر في حائكها ، تتقلص كفها وهي ترتجف ـ تكاد تخنق عنقها بقبضة حائكها ولثامها ، تعود إلى منزلها مبهورة الأنفاس مقسمة ـ في سرها ـ ألاّ تمر من طريقها ذاك . تصطدم أذناه بكلمات غزل فاضح يوجهها ذاك لهذه . تجيب بعينيها الكحيلتين خلف لثامها الشفاف . يدرك أنها ابتسمت له . لها موعد معه ، يسعى إليها أو تسعى إليه

وتلف صاحبنا دوامة الخجل : يحدث هذا في المدينة التي تكاد تغرق في التقاليد والملاحظة والنقد ، لا تبتعد كلمة العيب عن لغة الخطاب في كل حديث

في الزقاق الذي يؤوي منزل العائلة الكبير يهد منزل ليبنى مكانه آخر بين عمّال البناء تفد فتاة ممن ضواحي المدينة « عروبية » ربعة مكتنزة تلبس مرقعات معفّرة بتراب وجير وحجر تحمله بيديها وعلى أكتافها ، تلف شعرها بمنديل ملطّخ « بالبغلى » تحمل قفة منه على أقذالها لتعود بأخرى فارغة بين يديها . لفتت أنظار الخياط البقال والجزّار وهي تروح ، وقد هد كيانها يوم عمل

في « دار البناء » وتغدو صباحاً وقد استعادت بهاءها ورؤاها وشبابها الطافح لم يكن صاحبنا يرى فيها غير عاملة بدوية من البنات العاملات اللائي يفدن على المدينة يبعن التراب لصقل الماعون ، أو الطين لبناء الكانون . أخذ شباب ، رجال من الحي يتوافدون على « دار البناء » في أوقات الفراغ من العمل ، وقت غدَاء ، أو بعد انتهاء العمل . كلمات جديدة أخذت تتردد في الزقاق ، مداعبات كان صاحبنا يعتبرها غير بريئة . نضت الفتاة عن وجهها برقع الحياء والخشية والبراءة . . . ابتسمت . . . بدت أسنانها جميلة منسقة بيضاء ، عيناها تخلصتا من بؤسهما . بدتا جميلتين مغريتين . بدأ منديلها ينحسر عن شعرها . بدا في تعفّره نابضاً بالحيوية ،

ـ أبعد عني . سيراني الناس . المعلّم قد يطردني

صكت الكلمات أذني صاحبنا ، وهو يدلف إلى المنزل تقولها فاطمة في غنج للخيّاط ويداه تمتداه في شره إلى صدرها . تتمنع وهي الراغبة

تعلّمت كيف تتحدّث ، وقد كانت تعمل في صمت . تعلّمت كيف تداعب بحركتها بعينيها ، وقد كانت لا ترفع عينيها إلاّ مع حملها من التراب والآجر والجير

انتهى البناء . غابت فاطمة البناءة عن الحي بملابسها الممزقة ، وملامحها المعفّرة ، ومنديلها الترابي ، لتظهر في الحي بعد شهور ترفل في حائكها الأبيض الناصع تحيط وجهها الجميل بلثامها الشفاف ، ولو تكن ملثّمة وهي عاملة بناء ، يكشف عن عينين كحيلتين جميلتين مغريتين ، تخطر في غنج . وعيون العاشقين تتابعها . كلمات الغزل تلاحقها . ترد على التحية بأجمل منها بعينيها . وتلك لغتها

13

دعي صاحبنا ليكون مع زملائه جماعة من الطلبة تتدارس كتباً ومجلات وتناقش أفكاراً ومبادئ ، لم يكن يُدرك أن تلك الجماعة كانت بداية خلية وطنية سرية أو شبه سريّة . الاجتماع مع ثلة من الطلبة تختلف أعمارهم ومداركهم ومعارفهم في أصباح الجمعة من كل أسبوع كان يعوضه عن كثير من دروس الأدب والتاريخ والفقه . يسود الاجتماع جو من المنافسة الفكرية والعلمية . كل من الحاضرين كان يتحدّث بما قرأ خلال الأسبوع ، أو يقدّم كتاباً جديداً اشتراه ، أو مجلة حصل عليها . ولم يكن أحدهم يبخل بما عنده ، بما قرأ وتعلّم

تعلّم في الخلية أكثر مما تعلّم في المدرسة . أصبح في إمكانه أن يناقش من هم أكبر سناً وعلماً وتجربة . أن يُدلي بالرأي ، بالفكرة أمامهم دون أن يخشى اعتراضاً واستخفافاً . أن يقرأ كتاباً فوق مداركه ومستواه ليستطيع الحديث على نحو ما يستطيعون ، لينافس في مكان ، وبين جماعة ، تعتبر المنافسة من حسنات الخلية

عاش في صغره فترة ركبه فيها خجل شديد . قد يكون سبب ذلك جو العائلة المحافظة ، جو المدينة المنطوية على نفسها . حاولت الخلية أن تمنحه شخصية جديدة يستطيع بها أن يتحرر من بعض خجله ، أن يتجرّد من بعض صبيانياته ومحدودية أفكاره

هل استطاع ؟

في الخلية كانوا يتنقلون من حديث العلم والأدب وأخبار الصحافة ، الوافدة من مصر والشام وفلسطين وتونس ، إلى حديث السياسية . وما كان

أحد يدري كيف ينزلقون من حديث العلم إلى حديث السياسة ، وهم ، جميعهم ، تلاميذ في الصفوف الثانوية من القرويين . ولكن سن بعضهم ومداركهم كانت تقترب من السياسة بفضل ما يقرأون من مجلات وصحف سياسية أكثر منها علمية وأدبية . ويتسرّب إلى أفكارهم كفاح مصر في سبيل الإستقلال ،كفاح فلسطين في مقاومة الإحتلال الإنجليزي والهجرة الصهيونية ، شيء ما كان يصدم مشاعرهم دون أن يدركوا كنهه هو « وعد بلفور » . كفاح سوريا ضد الاحتلال . صراع العراق ضد القاعدة الإنجليزية في الحبانية كلمات جديدة كانت تتردد في اجتاعاتهم : الإصلاح ، الإستقلال ، التحرر ، الحكومة ، الحزب ، السلطة الوطنية ، المظاهرة ، الاعتقال ، السجن ، النفي . . . يخلو كل منهم إلى نفسه ، وقد تسرّبت كل هذه الكلمات ، بمفاهيمها الغامضة ، الواضحة ، المضطربة ، إلى فكره ونفسه وقلبه جميعاً يعقد كل منهم مقارنة بين المغرب وبين هذه البلاد التي كانت تبدو وقد تحررت من احتلال الإنجليز والفرنسيين والصهيونيين . أليست تناضل في سبيل ذلك وتقدّم مزيداً من الضحايا ؟

طريق طويلة هذه التي يسلكها المغرب ، بعد فورة « الظهير البربري » ، ثم الصمت العميق ، فيما يبدو لهم ، إلاّ ما كان يتحدّث به هذا الأستاذ أو ذاك من ضرورة العمل للتحرر ، الصمت لا يعني أن النار قد خمدت تحت الرماد ، خطوة تحررية ما ينتظرها المغرب

وتتحدّث العينان الذكيتان تلمعان في وجه الأستاذ عبدالعزيز ، في سخرية ؟ في ثقة ؟ في إعجاب بتطلعات تلاميذه إلى شيء جديد ؟

ـ لا تستعجلوا الأمر . المغرب ليس مصر ولا سوريا ولا العراق . تلك بلاد خطت قبلنا خطوات إلى الأمام وسنلتحق بها

في الخلية كانت تتردد كل هذه الأفكار دون أن يشعر المجتمعون بأنهم انتقلوا من دراسة قصيرة للمتنبي إلى قراءة مقال في مجلة « العرب » إلى مناقشة الحركات التحررية في مصر وسوريا وفلسطين والعراق

لم يكونوا يعرفون أن خليتهم كانت إحدى الخلايا ليس غير ، وأن خلايا

أخريات كانت تجتمع في هذا المنزل أو ذاك سراً يشبه العلانية ، علانية تشبه السر . ولم يكونوا يدرون أن كلاً من الأساتذة الشباب مكلّف بالخلايا التي تضم تلاميذه . الأستاذ عبدالعزيز كان يخرج من منزله في بعض الأصباح المشرقة ، يقصد باباً من بوابات المدينة دون أن يختار إحداها ، ويركب حافلة من الحافلات ، التي تغدو الأسواق والقرى ، دون أن يختار هذه السوق أو تلك القرية ، يدخل السوق دون أن يكون متسوقاً أو متاجرا ، يجلس إلى أحد المتاجرين أو المتسوقين يشرب معه الشاي ليتحدّث إليه في شؤون التجارة أو الفلاحة . ومن السوق إلى أقرب قرية بها مسجد . بعد الصلاة يتحدّث إلى جاره أو القريب من مكان مصلاه في شؤون الدنيا والدين . من حديث التجارة والفلاحة والدنيا والدين يكون خليّة أو خلايا في القرية يظل يرعاها لتصبح مجموعة خلايا يتكوّن منها فرع لكتلة العمل الوطني

هكذا انضافت القرية إلى المدينة تنقل هذه إلى تلك الفكر الوطني التحرري السياسي ضد الاستعمار ، كما نقلت تلك لهذه الفكر النضالي المجاهد بالسلاح ضد الإحتلال الأجنبي

قد لا يكون عبدالعزيز وحده سلك هذا الأسلوب . به تحرّكت قبيلة بني يازغة لتقض مضجع الإستعمار ، تحرّكت تيفلت والخمسيات ، تحرّكت آزرو ، تحركت بوفكران ، وتحركت أخيراً القرية التي ضربت المثل في التضحية والفداء : وادي زم . تحرّكت كل قرى المغرب ووقفت المواقف الحاسمة التي عرفتها الحركة الوطنية وهي تناضل للتحرر

بعض الخلايا اختارت سبيلاً في العمل السياسي غير السبيل التي اختارتها معظم الخلايا . كان الأستاذ مربياً سياسياً . والذين انتموا إلى مدرسته ما اختلفوا عن الذين انتموا إلى غيرها . وبقدر ما كان للمدرسة الحرة أثرها في تكوين الأطر السياسية كان لها أثرها في اختلاف الإتجاه السياسي ، بعد أن أصبح اختلاف الإتجاه ظاهرة مبكّرة في العمل الوطني التحرري

الخلية كانت نقلة نوعية انتقل صاحبنا عن طريقها من تلميذ يدرس العلم إلى تلميذ يدرس السياسة . لم تكن السياسة علماً يدرس في الجامعات ،

كانت سلوكاً يتعلّم الفتيان والشبان أن يسلكوه ليتعرفوا فيه على وضعية بلادهم في ظل الإستعمار ، دروس التاريخ والجغرافية لم تكن تتيح لهم أن يتعرّفوا على الممارسات التي تقوم بها سلطات الحماية لتستلب من المغرب سيادته واقتصاده وإمكاناته ، ولتمارس سياسة التجهيل والتفقير والتخلّف لصالح مجموعة من المعمرين المستعمرين والإداريين والإقتصاديين ، الذين جعلوا من المغرب أرضاً يرتعون فيها باعتبارها جزء من امبراطورية ما وراء البحار

الخلية كانت تبث الكراهية ضد الإستعمار في العقول الصغيرة والساذجة . لم تكن تبث كراهية الفرنسيين والإسبانيين ، كانت تفتح عقول روادها على « الإنجليز في بلادهم » والفرنسيين والإسبانيين في بلادهم يقودون الحضارة ، والعلم ، ولكنهم مستعمرون ظالمون . نقلت الخلية الفكر السياسي من العداء للنصارى إلى العداء للإستعمار . والعداء للنصارى لم يبق منه إلاّ أن بعض النصارى مهدوا الطريق للإستعمار . زاد في تركيز هذا المفهوم الظهير البربري الذي قام على أساس التفرقة العرقية واللغوية والدينية والقضائية والحضارية بين سكان المدن ، باعتبار أكثرهم « عرباً » وسكان الجبال باعتبار أكثريتهم « أمازيغيين » . المضمون الذي منحته الحركة الوطنية « للسياسة البربرية » يكاد يقتصر على التفرقة الدينية . بذلك استطاعت أن تعبئ الشعب ضد الإستعمار وسياسته عموماً باعتبار السياسة البربرية مفتاح السياسة الاستعمارية . منح هذا المفهوم قوة دلالة أن بعض المسيحيين مهدوا للإستعمار سبيل التسرّب إلى قلب المغرب ، وأن الإستعمار مهّد للتبشير المسيحي سبيل العمل في المدن والقرى عن طريق الكنائس ، ومحاولة استقطاب الأطفال ـ اليتامى بالأخص ـ للهجرة بهم من الإسلام إلى النصرانية

الخلية علّمت صاحبنا كثيراً من مفاهيم السياسة تلك . علمته سبيل النضال من أجل التغيير . أتستطيع تغيير وضعية بلاد متخلّفة علمياً واقتصادياً وفكرياً تعيش على مبعدة بعيدة من البلاد التي تستعمرها ؟

سنصل . . . ذلك هو الأمل الذي كان يردده مسيّر الخلية كلما اجتمع إلى أعضائها أحد المسيرين . متى . . . ؟ ذلك هو السؤال الذي يجيب عليه

بابتسامة أمل تعني : لا يهم متى . . .؟

ربما كان اختيار العمل السياسي موازياً لاختيار العمل العلمي

نشأ صاحبنا في عائلة حرفية ثم تجارية . لم يُغْرِه التفكير ـ منذ البداية ـ كما كان يغري الفتيان من أقرانه بالعمل ـ حرفة أو تجارة ـ ، رغم أن وضعية العائلة لم تكن مريحة جداً ، ولا كانت أقرب إلى الفقر . ورغم أن أحداً ممن عرفهم من العائلة لم يكن من « العلماء » ولا كان من السياسيين والمغامرين في الحقل الوطني . كان اختياره للعمل الوطني السياسي نتيجة حتمية لاختياره ـ أو اختيار والده ـ للمدرسة ، والإنتقال من المدرسة إلى الخلية ، ومن الخلية إلى العمل في الحزب ، والإنغمار مع الحزب في العمل النضالي ، السياسي والديمقراطي الذي ما يزال يستغرق بقية حياته

الخلية كانت الخطوة الأولى . كانت خطوة الكثيرين ممن تحلّقوا في خلية للعلماء ، للتجار ، للحرفيين لكبار الموظفين ، لصغارهم . جميعهم تحَلّقوا حول الخلية تلاميذ صغاراً ليتعلموا فيها ما لم تعلّمهم المدرسة والعمل والكتاب ومنهم جميعا تكوّنت الخلية الوطنية الكبرى التي كوّنت الشعب المناضل في سبيل الإستقلال

كانت الخلية طريق الحرية . أعضاؤها لا يتعرّفون على الحرية الفكرية من خلال ما يقرأون وما يسمعون وما يناقشون . ولا يتشبعون بالفكر الوطني الذي يقوم على « كراهية » الإستعمار والإسهام في مقاومته فكرياً وعلمياً فحسب ، ولكنها كانت طريق الحرية الشخصية . وبيئة فاس كانت منغلقة على نفسها يشب الشاب فيها وهو لا يعرف غير فاس ، لا يكاد يتحرر من انقفالها وتزمتها إلاّ بثورة أو تمرّد في شبابه المبكّر ، أو حينما يبلغ سن الرجال الذين يعتمدون على أنفسهم

14

وتتكرر كلمة « السلفية » في كل درس من دروس الأساتذة الثلاثة ، وفي دروس أخرى كان يتلقاها على أساتذة آخرين ، كان يجمعهم مع أساتذته الرئيسيين السنُّ والتوجه والتطوع للتعليم

وما السلفية ؟

كان ، وما يزال ، به حرج من أن يسأل عن مضون كلمة تبدو من خلال استعمالها بديهية . يردد الكلمة جاهلاً مضمونها ، ويترك للمضمون طريقه يتسرّب إلى نفسه ، ولو على مهل . وتقترن الكلمة بأسماء أعلام كانوا أساتذة جيل . سمع عنهم كثيراً ، ولم يحظ بالجلوس إليهم والإستماع إلى دروسهم في سنواته تلك كانوا قد اختفوا من القرويين . غادر بعضهم المدينة إلى مسؤولية أخرى . ربما تقصدها الذين أبعدوهم عن الدرس وعن كل ما يجمعهم بجماعة من الطلبة ، بعد أن اتضح أنهم يثيرون الرأي ، ويحرّكون السواكن من الأفكار ، ويدعون إلى ثورة فكرية جريئة تهدد « الإستقرار » ، وهو البيئة الصَالحة لحياة النظام السياسي . وهم يدعون إلى التغيير في العقيدة الجاهلة والإيمان الأعمى . ويصفون المجتمع المتعلّق بالأولياء والصالحين بأنه مجتمع مشرك ، يشرك بالله من غَيَّبتْه القبور ، ولا يعطي محتاجاً ، لا يقمع طاغياً ، لا يدفع ضراً ولا يجلب نفعاً

ويكاد يدرك أن السلفية ثورة على الحاضر . ولكن ارتباط بالسلف أليس الأولياء والصالحون من السلف الصالح ؟

يتجلّى مفهوم السلفية أكثر بأنه ارتباط بالعقل الأول ، بالمفهوم الأول للإسلام في نقائه الفكري والعقدي ، كما يستمد من القرآن أولاً ، ثم من

صحاح الأحاديث

أهناك من الأحاديث ما ليس بصحاح ؟

ويأتي مفهوم السلفية ليؤك أن بعض الأحاديث المنسوبة للرسول هي الأخرى مليئة بالخرافات والأضاليل

والمجتمع كيف يتصرّف ؟

الضلال لا يقف عند مجتمع الأميين والجهّال . وإنما يتناول ، فيمن يتناول ، مجتمع « العلماء » ، والريادة لهم في تبليغ الرسالة . وضلالهم ، أخطر من ضلال عموم الشعب التائه في الخرافة والأسطورة والغيبيات

الشك فيما تواضع عليه المجتمع بدأ يغمره . كان يزور الأولياء ـ ضريح الولي الصالح مولاي إدريس بالأخص ـ ليساعده على حفظ اللوح « غير المحفوظ» من القرآن ، عله ينجو من عقاب الفقيه وعوده السفرجلي . اختفت الزيارة من حياته . السلفية تعتبر مولاي إدريس أدى مهمته ورحل . كان يقضي ساعة من ساعات مراجعة دروسه في « مسجد ـ ضريح » سيدي أحمد التيجاني ، مع بعض زملائه ، فهو مسجد يتيح الهدوء ـ في غير ساعات «الوظيفة » ـ لمن أراد أن يدرس أو يتدبر أو يستريح من عناء العمل ، أو يتقرّب بصاحب الضريح إلى الله ، اختفى « التقرّب » من التجائهم إلى الضريح يراجعون دروسهم ، ويتفكهون بالسخرية الصامتة من هذا التجاني أو ذاك وهو يتوضأ فيبالغ في تنظيف وجهه ولحيته ، حتى إذا انتهى من وضوئه داخله وسواس بأن وضوءه غير صحيح ، ويقضي بعضاً من ساعة يغمر وجهه ويديه ورأسه وقدميه بالماء يدلك ويعرك علّ صلاته تكون صحيحة مقبولة ـ جداً ـ عند الله . . . ويصبح التيجاني المثال الحي للذين تثور السلفية في وجوههم

وتثور السلفية على التقاليد المجتمعية في الأفراح والأحزان فتدعو إلى التخفيف من المصاريف في الاحتفالات ، وإلى اعتبار الموت سنة من سنن الحياة لا تكسف الشمس ، لا تخسف القمر ، ولا تغير مسيرة الإنسان . و يبدأ الخوف من الموت يختفي من حياة صاحبنا ، حزن حتى الإكتئاب على الذين

ماتوا من العائلة ـ جده مثلاً ـ وهو بعد صبي لا يقدّر الحياة ولا الموت . وبدأت الموت تساوي الحياة . فالروح باقية والجسم فان . فنيت أجساد الصالحين والأولياء والعلماء والمفكّرين . انقطع عملهم إلاّ من ثلاث في مقدّمة الثلاث : فكر أو علم أو كتاب ينتفع به

كذلك تقول السلفية

وتدعو السلفية إلى التحلل ، إلى حد ما ، من الإلتزام بالمذهب في الفقه والعقيدة . السنة أوسع من آراء من اجتهدوا ، أصابوا أو أخطأوا ، ولو كان أحدهم مالك بن أنس . والمتغيرات أقوى من الثوابت . والمجتمع يخلق من المشاكل ما لم يفكّر فيه مالك ولا ابن القاسم . تصطدم السلفية في ذلك بأن المالكية مذهب الدولة ـ إلى جانب مذهب الدين . ولكن رواد السلفية كانوا يحذرون من أن يصطدموا مع الدولة ، وإن اصطدموا مع العلماء المحافظين على مذهب الدولة وعقيدتها . يخرجون من « مشكلة » الإصطدام بالدعوة إلى الرجوع للقرآن والسنة . وهي حجة لا يقوى على صدها « الجامدون » ـ وذلك هو الوصف الذي يطلقونه على الرجعيين من العلماء ـ وإن أكدوا أن فهم القرآن ليس في متناول كل أحد . والإعتماد على السنة رأساً اجتهاد . وباب الاجتهاد أقفل منذ الصحابة والتابعين وتابعيهم

وتثير السلفية باب الاجتهاد في الفروع . فقد تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور . وتغري فكرة الإجتهاد القلوب الواعية و العقول المتفتّحة من شباب الطلبة الذين أصبحوا أساتذة ، يُعَمقون قراءتهم في كتب ابن حزم وابن تيمية

يغري اسم ابن حزم صاحبنا فيندفع إلى قراءة كتابه « الفصل في الملل والنحل » . تشده إلى الكتاب كلمتا « الملل » و « النحل » فيطمح إلى أن يتعرّف على ملل ـ ديانات الأنبياء والرسل وغير الأنبياء والرسل جميعها ونحل كل شعوب الأرض ـ يقرأ الصفحات العشر الأولى والثانية ، ولعله أصرّ على الإستمرار والمعاناة ـ وقراءة بعض الكتب وبعض الكتّاب معاناة ـ ولكن لم يفتح الله عليه بشيء فترك ابن حزم وملله ونحله . واكتفى بأن يعتبره من المجتهدين

«السلفيين »

ترك ابن حزم ليلجأ إلى شخصيات أخرى ، كتب أخرى أقرب منالاً وأقدر على مخاطبة عقول لم تنغمر بعد في مجاهل العقل والمعرفة وفلسفة الديانات . إسم ظل يتردد على لسان كل أستاذ من أساتذة الشباب مصحوباً بوصف الأستاذ الإمام . مجلة ترددت بين يديّ الكثيرين من الذين انغمروا في السلفية : « المنار » ويقترن إسم الأستاذ الإمام باسم استاذه جمال الدين الأفغاني ليصبح فرسان السلفية الثلاثة : جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا . يقرب صاحبنا من الأستاذ الإمام والأستاذ المجدد يقترح دراسة تفسير جزء « عم يتساءلون » الذي كتبه محمد عبده وتفسير سورة « والعصر إن الإنسان لفي خسر » تقرب السورة ،على قصرها ، العقل من مضمون السلفية : الإنسان في خسر إلاّ الذين يعملون الصالحات ، وينطلق الأستاذ في توضيح مضمون الخسران ، ومضمون العمل الصالح ليربط مصير الإنسان بعمله لا بعمل الآخرين . ويبرز ، وهو يحلل شخصية الإنسان وكرامته ليدين الخرافة ومنطق الجامدين فكراً وممارسة

دراسة جزء مما كتبه محمد عبده يفتح أمام صاحبنا باب السلفية على مصراعيه . كان إماماً أثار عليه الأئمة من الأزهر . وكان يتخذ القلم وسيلته كتب يجادل عن الإسلام الصحيح ، من سموا بالدهريين ، ضد بعض المستشرقين ، أو من تعاطوا الإستشراق ليطعنوا الإسلام . ناضل مع الحكم الوطني ضد الإستعمار . تشبع بأفكار أستاذه ـ جمال الدين ـ الثورية : ولكنه كان أقل ثورية منه ، عملياً إلى حد التعاون . بث الثورة على العقول الجامدة والأفكار المتحجّرة في كل ما كتب . أوذي هو الآخر بالمطاردة من الأزهر والنفي خارج الوطن ليصدر مع أستاذه ـ الذي شردته الأحداث وثورته العارمة ـ « العروة الوثقى » . كانت مجموعة المجلّة رسالة السلفية للذين « يتسلفون » .

ويحمل المشعل رشيد رضا فيما كان يكتب بـ « المنار» وفي تفسيره المتحرر للقرآن

آفاق جديدة انفتحت أمام صاحبنا . لم تعد السلفية دعوة تنظيرية يسمع

عنها من أساتذته يتعرّف من أحاديهم ودروسهم على ظاهر مضمونها ويختفي الجوهر . « العروة الوثقى » . المنار ، تاريخ الأستاذ الإمام كُتب وضعت بين يديه ، تعرّف منها على السلفية أو ما ثار حولها من نظريات . تصبح السلفية علماً لتحرير العقل وتحديثه . تجمع بين التنظير والممارسة . عرف مما قرأ من هذه الكتب التحررية مصادر التطور الفكري عند أساتذته . كان الثلاثة المشرقيون أساتذة للمغربيين . بلغت الرسالة التي جمعت في مسيرة التحرر مغرباً بشرق كما جمع التخلّف الفكري والعقدي في مسيرته مشرقاً لمغرب

آفاق المعرفة ـ وهي تتفتح ـ ما تزال تبعد به عن حلقات القرويين . ما تزال تشعره بالأفق المسدود في حلقات الدرس في الجامعة العتيقة

ـ يوم تتحرر الجامعة يخرج بها التحرر عن عتاقتها ليطوي ألف عام وتبدأ الألف الثانية بخطوة جديدة

قال لنفسه وهو يبعد شيئاً فشيئاً عن « النظام » الذي التحق به مشدوهاً وغادره غير آسف

وتثير السلفية كثيراً من الشغب في الأوساط الدينية والشعبية على السواء . يبدو أن دعاتها كانوا يقصدون إلى « المعارضة » مهما يكن ما يعارضون فيه ذا أهمية عقدية أو اجتماعية . فهم يصرون على أن يُصَلّوا وهم « يقبضون » أيديهم على بطونهم ، وأخذت « مشكلة » القبض والسدل حظها من خلاف بين المتحررين والجامدين ، كل منهما يدافع عن السنة وعن المذهب ، وكأن الدين لم يعد له من مشاكل إلاّ قبض اليدين أو إسدالهما

ويثيرون « مشكلة » الوقوف عند قراءة قصة المولد ، ورغم ما تحفل به قصص المولد من خرافات وأساطير فإن الوقوف عند ذكر ميلاد الرسول يعتبر بدعة عند المتحررين ، وإجلالاً وتعظيماً عند الجامدين . ويأخذ الصراع حول «المشكلة» دوراً كبيراً في الدفاع عن السلفية وضدها

وتشيع الجنازة بإنشاد تقليدي يردده المشيعون جماعة يذكر بوحدانية الله ورسالة محمد . . . ويعتبر السلفيون ذلك بدعة والجنازة تشيع في صمت

الصمت يتيح الفرصة لبعض المشيعين أن يتحدّثوا عن الفقيد رحمه الله : كم ترك من الأولاد ؟ من النساء ؟ من العقار ؟ من المال ؟ هل يرث الأخوة والأقرباء؟ هل تتزوج أرملته ، وقد ترك لها ما يفتح شهية الطمع على أوسع أبعادها ؟

ويهمس رجل فاضل من المشيعين في أذن جاره

ـ الذكر والإنشاد كان يشغل المشيعين عن ثلب أعراض الميتين . أذكروا موتاكم بخير

يحرّك جاره في المسيرة رأسه إيجاباً دون أن ينبس وهو يفكّر : كان رحمه الله رجلاً بخيلاً لا يؤدي الزكاة في عاشوراء

كانت السلفية ثورة تشجع على الصدام والمواجهة . لعل القائمين عليها تدارسوا سيرة ابن تيمية ، وتملوا مواقفه النضالية من خلال كتبه ومحاوراته حدث أحد الأساتذة قال

ـ الشيخ محمد بن العربي العلوي لا يعرف المجاملة والكلمة المعسولة دخل مرة على جماعة من زملائه العلماء وهو يحمل بين يديه كتاباً لابن تيمة . سأله أحدهم : ـ وما ذاك بيمينك ؟ أجاب الشيخ : ـ هذا كتاب لن تقرأه حتى تسلم وتؤمن . . . وضحك القوم فقد ألفو أن يصدمهم وهو يخاصمهم مبتسماً وضاحكاً وساخراً

وكانت السلفية ـ الثورة بداية فكرية في توجيه الحركة الوطنية . تحرّك الداعون الأولون لها لإصلاح التديّن . وتحرّك معتنقوها من شباب القرويين والمدارس الجديدة لتغيير الواقع السياسي . فكر هؤلاء تحرّك في الاتجاهين : اتجاه الدعوة إلى الإصلاح ، واتجاه الدعوة إلى تغيير واقع الحكم السياسي والإقتصادي والاجتماعي . تجمع الإتجاهين الحركة الثورية . ومن ثمة كانت الإدارة تعمل على قمع الحركة السلفية ، ولو بتغيير مراكز القائمين عليها واستقطابهم في الوظائف التي لا تتيح لهم فرصة الإلتقاء بالطلبة عن طريق التدريس ، وبالجماهير عن طريق دروس الوعظ ، وتحاول أن تقمع الفكرة السلفية

بتشجيع مجموعة « العلماء » الجامدين لمعارضة الأفكار التحررية التي تتعلّق بالإسلام ، ولو أنها لا تمس جوهره . ابتدعت الإرهاب والإرعاب من زحف الوهابية في صورة السلفية . والرؤية عن الوهابية كانت مضببة . فهي ثورة على الدين وعلى الحاكمين باسم الدين . وهي حنبيلة المذهب أو قريبة منه ، وهي متشددة إزاء الآخرين تأخذهم بالقمع والعنف . ولا شيء كان معروفاً عن الوهابية عند المتحررين والجامدين على السواء

ظل الإرهاب بالوهابية يتابع السلفية حتى خضع صاحبنا مرة لاستجواب غير عسير من والده

ـ وهل يبشركم الأستاذ بشيء اسمه الوهابية ؟

ولم يكن صاحبنا يدري : ما الوهابية ، ولو أنه كان قد تلقى بعض سطحيات السلفية . أجاب

ـ لا . . . أبداً

وانتهى الإستجواب . فالمسؤول عنها (الوهابية) لم يكن أعلم من السائل

والذين أثاروا هذا الإرهاب من الوهابية كانوا على بيّنة من بداية الفكر السلفي . كانوا يعرفون أن المبشّر الأول الشيخ شعيب الدكالي قضى مدة في الحرمين يدرس ويُدرِّس ويتلقى عن علمائها بعض المبادئ التي تركها محمد بن عبدالوهاب رغم سطحية ما بقي من أفكاره . ولكنه كان ـ لعله ـ من الاجتهاد ما جعله يقرأ في كتب السلفين القدماء

وكانت السلفية عند معتنقيها وسيلة تطوير للفكر من صراع داخلي على قضايا يتفق الناس عليها أو يختلفون ، تتعلّق بأصول الإسلام ومبادئه وممارساته ، إلى صراع مع الخصم الحقيقي (إدارة الحماية) وهو صراع حسبوه طويلاً ، ولن يفضي إلى اتفاق إلاّ بهزيمة الخصم في ممارساته ثم في وجوده . وكانت السلفية مدخلاً لاستقطاب الفكر وتوحيد الرأي (الثوري) ضد الاستمرارية ، سواء تجلّت في التقاليد ، أو الأفكار ، أو العقيدة المنحرفة أو التبعية للفكر

الإستعماري .

هكذا كان الإنطباع الذي بقي في فكر صاحبنا عن السلفية التي تتحوّل بسرعة إلى وطنية

أصبح سلفياً أو وطنياً ؟

هما معاً وفي نفس الآن

15

السياسي والثقافي لم يكونا عنصرين متباعدين في تكوين الشخصية الوطنية عند المناضلين الذين نهضوا بعبء الحركة الوطنية في بدايتها . ولعلهم تعلّموا الوطنية من الكتاب وهم يتعلّمونها من الفعل . فما قرأوه عن صراع الإسلام ضد الإنحراف العقدي والسلوكي لم يكن ديناً كله ، ولم يكن فكراً كله ، ولكنه كان سياسة إلى جانب المذهب الفكري والثورة العقدية ، وما قرأوه عن الثورة الفرنسية لم يكن سياسة لتغيير نظام بنظام فحسب ، ولكنه كان ثورة في الفكر والممارسة السياسية في نفس الآن . وما تتبعوه من حرب الريف أو ثورة الأطلس ومقاومة الصحراء لم يكن سياسة فحسب ، ولكنه كان ثورة فكرية وعقدية إلى جانب ثورتها السياسية . وما عايشوه ، عن بُعد ، من ثورة الهند ومصر ـ مثلاً ـ لم يكن سياسة تجريدية بمقدار ما كان ثورة لاستعادة القومية الهندية والمصرية المستلبة . وما تعرفوا عليه من نهضة سياسية في تونس لتحرير السيادة التونسية بالدستور ، أو تحرير التعليم بالتعميم والتونسة ، أو تحرير المرأة أو الطبقة العاملة . لم يكن ذلك سياسة أو وطنية فحسب ، ولكنه كان ثورة فكرية واجتماعية وتعليمية إلى جانب العمل السياسي لتنظيم تونس وإخراجها من التبعية . وما تعرفوا عليه من نهضة مغربية فكرية دستورية علمية تنظيمية ، في آخر عهد استقلال المغرب وقبيل الحماية ، لم يكن درساً في التاريخ ، ولكنه كان ثورة على التخلّف ، وتطلعاً إلى الوقوف في وجه الإستعمار الزاحف . وما تعرفوا عليه في الجزائر لم يكن سياسة بالمعنى الضيّق للسياسة ، ولكنه كان وقفة ضد استلاب القومية الجزائرية بالمفهوم الإسلامي للقومية ، ومحو الشخصية الجزائرية ، لإدماج أو إلحاق شعب الجزائر ـ بكل مقوماته وقيمه ـ بوطن لا يقبل عملية الإلحاق أو الإدماج

السياسي والثقافي كانا يتحاوران في نفس النخبة المناضلة . لذلك كان الكتاب والدرس في مقدّمة ما يشغلهم . وكانت الخلية التي يكونونها من التلاميذ والطلبة تبدأ بالكتاب ، وديوان الشعر ، كتاب في السيرة ، بحث تاريخي اجتماعي ديني سياسي . . . حول هذا تجتمع الخلية لتبدأ مسيرتها النضالية . ولا تلبث أن تجد نفسها في عمق العمل السياسي

وقد كانت خلية صاحبنا ـ أو هي خلايا ـ تجتمع حول الكتاب . ولكن المناقشة بين أعضائها لا تلبث أن تتحوّل إلى التفكير السياسي وإلى مناقشة أوضاع المغرب والبلاد العربية والإسلامية . ديوان الشعر يأخذ برقاب الكتاب ، والكتاب يأخذ برقاب المجلة والصحيفة . ويذكر صاحبنا أن زملاءه في الخلية ، وكلهم كانوا أكبر سناً منه ، كانوا يتقدّمون القافلة ـ بحكم السن ومزيد الخبرة ـ بالتفكير في السياسة وفي العلم أيضاً ، ولكنه لا يلبث أن يلتحق بهم . ما من مجلة تقع بين أيديهم إلاّ استعارها وقرأ فيها ، وحاول أن يكتب لها . في الخلية قرأ مجموعة (« العروة الوثقى ») وفي الخلية تعلّم أن يقرأ كتب قاسم أمين عن تحرير المرأة ويكتب عنها ، وفي الخلية تعرّف على مجلات مختلفة لا يربط بينها خيط لقاء ، ولكنها جميعاً نهضوية يثير بعضها موضوعات إسلامية وكثير منها موضوعات سياسية . تختلف السبل بينها ولكنها تلتقي في تحريك السواكن من الأفكار في المجالات التي تتحرّك فيها عقول أعضاء الخليّة

كان المنزل الذي يستضيف الخلية لأحد رجال القيادة [1] ، من المنازل العتيقة البسيطة التي تسكنها العائلة الأب والأم والأخ والأخوة . كان القيادي أعزب والغرفة المخصصة له في المنزل كانت تشهد معظم الاجتماعات السرية الوطنية ، ولعلها لم تكن تخلو من اجتماع في ساعة من ساعات الليل أو النهار ، إن لم يكن اجتماع قيادة فهو اجتماع خلايا استقلالية تختلف مستوياتها بين الحرفيين والتجّار والعمّال والطلبة ، ولكنها تلتقي في عمل واحد هو العمل الوطني تفكيراً وممارسة

كان صاحب المنزل يملك مكتبة متواضعة ، ولكنها حافلة بما يحتاجه

(١) الأستاذ المناضل الهاشمي الفيلالي

الأساتذة والطلبة من مراجع وكتب للقراءة يضعها رهن إشارة القارئين المستعيرين ، لا يحاسبهم إذا استعاروا الكتاب في أي يوم سيعيدونه . لا يحاسبهم إذا لم يعيدوه

الخلية مدرسة . ماذا كان يتعلّم صاحبنا في هذه المدرسة ؟

الوطنية إلى جانب الآفاق المفتوحة على الإسلام والعربية

مفهوم الوطنية التي كان يتلقاها على يد أساتذته وفي خلية زملائه ؟

لم يكن يلقي على نفسه هذا السؤال . ولكن الذي يذكره وهو يلقي السؤال بعد سنوات الرشد أن المفهوم كان بسيطاً ساذجاً بقدر ما كان عميقاً معقّداً . كانت الوطنية تعني الحفاظ على القيم والمقومات الوطنية التي كرّسها الإسلام ، وركزها التاريخ . وكانت تعني مواجهة التحدّي الإستعماري الذي يتجسّد في الحماية كاحتلال عسكري وإداري واستغلال اقتصادي ، واستلاب للقيم ومحو للشخصية ، ومحاولة تغيير الجذور التي يعتمد عليها الوطن في إقامة كيانه

كان التاريخ هو منبع الفكر الوطني . المغرب حافظ على كيانه طيلة تاريخه المعروف قبل الإسلام ، وبعد الإسلام ، وقاوم كل الغزاة والإمبراطوريات . ولكن ما هو الوطن الذي حافظ عليه ؟ ومن هم المواطنون الذين حموا هذا الوطن وكونوا هذا التاريخ ؟

مفاهيم القومية لم تكن قد تبلورت بعد في الفكر السياسي العربي ولذلك لم تكن كلمة « القومية » تعني غير الوطنية . وكانت تستعمل في مصر أو تونس ـ مثلاً ـ لهذا المفهوم . ولم تكن العروبة تعني غير الإسلام . فالمفهوم العرقي أو القبلي أو الإقليمي الضيّق لم يكن يتسرّب للفكر الوطني . كان الإسلام يجمع المغرب والمغاربة جميعهم في مفهوم الوطنية . لم تكن هناك عقدة في الفكر الوطني ، وحتى العقدة القبلية أو الجهوية التي لم تأخذ طابعاً شبه عرقي (وبغير مضمون فكري) في الأوساط الشعبية لم تتسرّب إلى الفكر الوطني . كانت التربية الوطنية لا تفرّق بين الأمازيغي والعربي . الأناشيد

الوطنية التي كانت إحدى وسائل التكوين الشعبي الوطني كانت تؤكد كلية الشعب ووحدته من مازغ ويعرب

كان ذلك رداً على النزعة الإستعمارية التي ابتدعها الفرنسيون في الجزائر والمغرب ، وحاولوا فيها تقسيم الوطن والمواطنين إلى مناطق أمازيغية سوسية وأطلسية وريفية ، ومناطق عربية . كما حاولوا « علمياً » أن يعودوا بالأمازيغ إلى أصول أوروبية ، فينقضون بذلك النظرية التي تبناها معظم علماء الأجناس ، الذين يعودون بهم إلى أصول شرقية تلتقي مع الأصول العربية ، ثم يعودون باللغة إلى أصول غير حميرية . وبذلك يمهدون لفكرة إدماج السكان «غير العرب » في جذورهم الأوروبية ، ويفصلونهم عن جذورهم المغربية ، وعن بقية شعبهم « العربي » بالمفهوم الواسع ، بل عن الإسلام الذي يعتبرونه «عربياً» ـ وعما كرّسه الإسلام من قواعد لبناء المجتمع ، وفي مقدّمتها نظم بناء الأسرة والقضاء والقواعد الإسلامية في مسيرة المجتمع

مفهوم الوطنية إذن بسيط ، لا يعني أكثر من استعادة الوطن ومقوماته من مستلبيه ومواجهة تحدياته . ولكنه كان معقداً بدرجة محدودة لأن كثيراً من الأسئلة التي فجرها تطور العصر ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد استقلال كثير من الدول العربية والإسلامية والإفريقية والآسيوية لم تكن تثار ، ولم يكن الوطنيون مضطرين للتفكير فيها والإجابة عنها ، إلاّ ما كان الاستعمار يثيره من تشكيك في وحدة المواطنين ، وبالتالي وحدة الوطن ، عرقياً ووطنياً وإسلامياً . وكان الوطنيون يجيبون على هذه الشكوك بالمنطق الذي يستمدون أصوله من التاريخ ، ومن الفكر الإسلامي الذي لا يفرّق بين المواطنين المسلمين ، بين العرب والعجم بالمفهوم الإصطلاحي لكلمتي العرب والعجم

لم يتلق صاحبنا الدرس النظري ليكون وطنياً سلبياً بين زملائه وفي الأوساط المقرّبة إليه فحسب . ولكنه كان ـ لا يدري كيف ـ يبلور هذه التربية الوطنية في الفعل

كان هناك صراع أجيال تجلّى بخاصة بين شيوخ القرويين وشبابها والشباب كان يأخذ على أغلبية الشيوخ أنهم يسايرون « المخزن » [1] ويتلقون

(١) الحكومة . وتطلق في هذه المرحلة حتى على سلطات الحماية الفرنسية أو الإسبانية

تعاليمه دون أن يفكروا في القيام بمسؤولياتهم الإسلامية ، و « السياسية » باعتبارهم « أهل الحل والعقد » وحراس نظام الدولة والمدافعين عن القيم الإسلامية

يأخذ عليهم أنهم تخلّفوا علمياً فلم يطوّروا الدراسات الإسلامية ، ويأخذ عليهم أنهم لم يستطيعوا مسايرة الركب في دراسة الكتب التي أقرها النظام الجديد للقرويين

وكانت القرويين ، آنذاك ، ما تزل تضج بالأفكار الثورية التي تلقاها شباب الطلاب المتنورون عن شيخهم [1] الثائر المتمرّد على التقاليد والخرافات والأساطير التي كانت تخدّر المجتمع ، وكان بعض علماء القرويين على رأس هذا المجتمع المخدّر الذي يحني هامته للهزيمة الفكرية والسياسية والاجتماعية

كان صاحبنا من الجيل الثاني ، يتلقى دروسه عن الجيل الأول الذي تعلّم الثورة والتمرّد الفكري والإجتماعي من الشيخ ، وأضاف إلى ما تعلّم الثورة والتمرّد السياسي ضد نظام الحماية ، وضد الممارسات السياسية والإقتصادية والعدوانية التي يقوم بها هذا النظام

الثورة والتمرّد كانا الدرس الأول الذي تلقاه الجيل الثاني

مراهقة فكرية أطلقت زمام التمرّد في نفوس هذا الجيل . الثقة تزعزعت فيما يدرس في القرويين ممن جراء زعزعة الثقة في شيوخها . كان مما يزعزع الثقة ما يقرأه من شعر للمتمردين من الشباب ضد بعض الشيوخ

وكنت أرى تحت العمائم حاجة فما هي إلاّ أن يدوم المرتب

واتخذت الحركة الوطنية القرويين مركزاً للتجربة السياسية ولاختبار القوى مع إدارة الحماية . فالقرويين باعتبارها دار « علم » لم تكن تبعد في تاريخها عن أن تكون دار سياسة حينما كان علماؤها ـ وطلابها ـ يقومون بدورهم السياسي إلى جانب دورهم العلمي . من هنا كانت الحركة الوطنية تتجه إلى الارتفاع بروح المسؤولية والاهتمام بالقضايا العامة . إدارة الحماية سعت إلى أن

(1) محمد بن العربي العلوي

تسقط عن علماء القرويين مسؤولياتهم « السياسية » إزاء الدولة التي تستمد مشروعيتها من مسؤلياتهم العلمية الإسلامية . وكان أن تزامن إقرار « النظام » مع صدور « الظهير البربري » الذي فجّر الحركة الوطنية فحدث اضطراب في الرأي العام الذي اعتبر « الظهير البربري » مساساً بالعقيدة الإسلامية وبوحدة المسلمين إزاء العدالة والقضاء الإسلامي . وقامت الحركة الوطنية في فاس - التي عارضت الظهير البربري وأحدثت اضطراب الأمن إلى جانب اضطراب الرأي العام على عاتق شباب أغلبهم من القرويين . وخشيت إدارة الحماية أن تتسرّب عدوى المقاومة من الشباب إلى الشيوخ ، فبادرت بإقرار « نظام » القرويين الذي يربط علماءها بالوظيفة والمرتب ، فيعطلهم عن العمل إلى جانب الشباب الذي اجتاز الامتحان وهو يقاوم فيتعرّض للجلد والسجن والنفي والحرمان من حقوقه العلمية كالشهادة الجامعية (1)

كانت القرويين مركزاً للتجربة ، فكان شباب الحركة الوطنية ينتهزون كل فرصة لاختبار قوة الطلبة لزعزعة « النظام » ولإبراز حدة الصراع ضد تحكّم الإدارة في مسيرة القرويين ، وأمرت الحركة الطلبة بتكوين دفتر مطلبي أعقبته بتنظيم إضراب لتأييد مطالب الطلبة . وكان صاحبنا من لجنة الدعوة إلى الإضراب وتنفيذه

كان الإضراب عملية جريئة فاجأت إدارة الحماية التي فهمت أنه إضراب سياسي ، وفاجأت إدارة الجامعة التي اعتبرته فوضى بين الطلاب ، ولم تكن قد سمعت من قبل عن شيء اسمه الإضراب ، وفاجأت الطلاب غير المسيّسين الذين أدركوا أن شيئاً ما يحدث في القرويين . عليهم أن يفتحوا عيونهم وأفكارهم لملاحظة ما يحدث خلف ستار الإضراب ، وعليهم أن يفتحوا عقولهم ليفهموا أن السياسة دخلت من جديد إلى الجامعة من حيث أريد لها أن تخرج . ولكنه كان شبه « إهانة » للأساتذة الذين كانوا منهمكين في دروسهم ، فإذا بدعاة الإضراب يقفون على رؤوسهم مجاهرين بالإضراب فينصرف عنهم

(1) حرم من الشهادة العلمية رغم النجاح ثلاثة من علماء الشباب : علال الفاسي ، عبدالعزيز بن ادريس ، ابراهيم الكتاني ، اشترط عليهم (« التوبة » من العمل السياسي)

الطلاّب دون ما استئذان ليظلوا جالسين حيث هم يسندون ظهورهم إلى «سارية» المسجد أو على « كرسي العلم » تتحجر الكلمة في حلوقهم وقد انصرف الطلاب والمستمعون

وقدّم ، مع زملائه تقريره الشفوي ، في مساء ذلك اليوم إلى الزعيم كان شبه متجهّم وهويستمع إلى التقرير ، وكأنه في غرفة العمليات يستمع إلى تقرير ضباط أتوا من معركة . ا متدت يده إلى التلفون يخابر زميله في الرباط ويذكر صاحبنا أن كلمات دلفت إلى أذنه وهو يتسمّع إلى حديث يلغز أكثر مما يفصح ، فهم منها أن الإدارة تتابع الإضراب ، وأن عملاء عبد الحي يقومون بدور لإفشال الإضرب ، ويطلب من الزميل أن يستقصي ردود الفعل لدى الإدارة ليرى ما إذا كانت قد انزعجت ، أو سخطت ، أو قررت أن تقوم برد فعل انتقامي من الطلبة . أو من القيادة التي قررت الإضراب فنفذه الطلبة

عاد صاحبنا إلى المنزل ليجد لدى والده تبليغاً من محكمة الباشا تستدعيه صباح الغد

16

كان مع زميل له ، المدعوين الوحيدين إلى محكمة الباشا

فكّر والده وقدّر . علم بأن ابنه تزعّم الدعوة إلى الإضراب فأغضب الإدارة « والمجلس العلمي » والشيوخ جميعاً . وأنه غامر ، وهو في المقدّمة يرفع عقيرته بالإضراب ، ويحرض الطلبة على مغادرة « مجالس العلم » ويدمع عيني الشيخ الطيب الذكر . اعترف الوالد لنفسه أن ابنه تجاوز الحد وغامر . ولكن لا يملك سبيلاً إلى صده عن مغامرته . لا يعرف ـ معرفة يقين أو لعله يعرف ـ أن القرار ليس قراره ، وأن ابنه يخوض تجربة تنفيذ القرارات ، وأنه لن يطيع له أمراً لو نهاه أو بَصّره بالعاقبة . وما من شك في أن الوالد لم يذق للنوم طعماً تلك الليلة . فهو يعرف أن دار الباشا لن يكون وراءها غير المكروه ، ولا يستطيع صداً لهذا المكروه . وأغلب الظن أنه كان راضياً كل الرضى عما يفعل ابنه ، وهو لا يستطيع أن ينهاه ، لا يستطيع أن يعترف له برضاه

انتظرا في محكمة الباشا طويلاً . قد يكونان دعيا في الثامنة ، ولكن «الباشا » لا يحضر إلاّ في الحادية عشرة . هناك في المحكمة من يقوم بالمهمة ، ويسيّر الأمور ويصدر الأحكام ، ويتولى أمرالمدينة ، الباشا باشا ، وليس ممن تناط به صغار القضايا وتافه الأمور . . . هناك المندوب المخزني المستعرب الذي يتكلّم عربية ضباط الأمور الأهلية ، ويعرف جيداً مكان المدينة والقضايا الأمنية التي تتحرك فيها . والقضايا السياسية التي أخذت تحرّك الشباب الطائش . ثم إن الباشا ليس ابن البغدادي يعيش مع الشمس ، ينام إذا نامت ، ويستيقظ إذا استيقظت ، وينافس ابن عروس في أيهما يسبق لدار الباشا بعد أن يكون قد صلّى الصبح وأفطر بالإسفنج والعسل وزيت الزيتون . واستروح قليلاً على باب

داره يملأ خياشيمه بالنشوق يستعد به ليوم عمل شاق ويراقب المدينة وهي تتثاءب ، فيؤكد لها وجودَ السلطة وعينها التي لا تنام . هو ابن « الأكابر » ورث المجد من أطرافه ، فما من أب أو عم له إلاّ كان « وزيراً » وما من أخ أو قريب إلاّ كان باشا أو مندوباً أو موظفاً كبيراً من موظفي المخزن . وهو بعد يعتمد على المندوب المخزني الذي يسهر ـ بالنيابة عنه . . . ـ على كل القضايا ، وسعادته يبارك ويوافق ، وإن اقتضى الأمر أن يصهل صهلة عارمة أو ينطق بحكم مخزني ، في غيبة شيء اسمه القانون . . . وهو من أجل ذلك ، وحتى تكون دار الباشا امتلأت بالوافدين : الراغبين والطامعين والخائفين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . . . عند ذلك يفد سعادته في سيارة فارهة ، فتحت الطريق إليها ، كما لم تفتح من قبل لبغلة ابن البغدادي ولا لبغلة غريمة «المحتسب » . ويقف المنتظرون والمتداعون والمتخاصمون . . . يوحدهم الصمت المطبق ، ويحنون هامتهم تقديراً واحتراماً للباشا ، وهو يخدع (يعرج) بإحدى قدميه ، على صوت « المخازنية » وهم يهتفون بصوت منغم .: الله يبارك في عمر سيدي

حضر الباشا . . . هكذا قيل لهما ، وهما ، في ممر هوائي ، ينتظران تحت ملاحظة « مخزني » بقلنسوته الحمراء « متحرّفاً » خنجره معقوداً بطرفي حبل حريري مظفور مدلى على جنبه الأيمن ، وكان حرياً أن يكون على جنبه الأيسر حتى يسهل استلاله عند المفاجأة أو المغامرة أو حاجة الاستعمال
يبدو أن الخنجر الأليف الناعم اللمس استام على الجانب الأيمن فنام في غمده نومة أهل الكهف . ومع القلنسوة الحمراء والخنجر المسالم كان المخزني يرتدي سلهاماً يرتد بأحد جناحيه إلى وراء ، تحسبهما جناحي نسر ألف ألاّ يحلّق في سماء . . . مظهر عدائي . ولكن الرجل كان أليف المعشر رقيق الكلمات يتحدّث لسانه بما يجتره واقع بؤسه ، ويبتسم وجهه وقد زانته لحية سوداء تؤكد شبابه ، رغم بطنه المتضخّمة وشدقيه المملئين . تضحك عيناه الجميلتان دون أن ترتدا إلى وراء فيملأهما رعب واقع الدار ، أو الدارين . . . ينتظر ـ مثل صاحبنا ـ الساعة الموعودة قد تكون الحادية أو الثانية عشرة وهو ينتظر أن يفتتح

يوم عمله بالصيحة المعهودة

ـ الله يبارك في عمر سيدي

كان يهتف بها ـ من يدري ـ لابن البغدادي الذي كان يصر على أن يكون في دار الباشا قبل أن تتثاءب المدينة متحررة من نعاسها . وهو اليوم يصرخ بها ، وقد اقترب الظهر أو علت الأعلام مآذن المدينة

واستمع صاحبانا للصحية المعهودة ترتفع بها أصوات المخزنيين فعرفا أن الباشا حضر

كان عليهما أن يجترا مزيداً من الإنتظار حتى يدعوهما المخزني الطيّب الوجه إلى غرفة مفتحة البابين وراء المكتب فيها جلس رجل وقور تحسبه عدلاً يجلس في دكان « بسماط العدول » جوار القرويين . لا ينم وجهه عن سلطة ، ولا يبدو أن وراءه ـ ولا قدّامه ـ عملاً يشغله . لعله لم يكن يدري لم أتي بهما إليه . مع ذلك فتح دفترا (كناشا) لا يختلف كثيراً ولا قليلاً عن كنانيش العدول . سأل عن الإسم والعائلة وتوقف . فهو يعرف العائلتين ، ويستطيع أن يحكي عنهما ويكتب ما يشاء أن يكتب لو كان يطلب منه أن يكتب شيئاً ودخل الرجل مع الشابين في حديث بعيد عن مهمته وما طلب إليه أن يسجله . والحديث ذو شجون . ومن يدري فلعله كان يطلب من الله أن يأتيه بإنسانين يطردان عنه الملل والوحدة والفراغ . ومكتبه ، وربما عقله أيضاً ، لا يوحيان بغير الوحدة والملل والفراغ . قضى معهما ساعتين يتحدّثون في كل شيء ـ وربما في سعر الخضر والفول ـ دون أن يسألهما عما أتى بهما إليه . كتب ما كتب لا يدري أحد « التحقيق » الذي قام به . وأغلب الظن أنه يعرف من تجربته الطويلة أن أحداً لن يسأله . فلو كان الأمر جداً لما احتاجوا إلى « تحقيق » وتسجيل وشهادة دفتره . القضايا الساخنة تمر من فوق سبع سماوات ، ولا يعلم بها الباشا إلاّ عندما يحال عليه حكم مكتوب ينطق به

كان الجو هادئاً غير مثير في مكتب « الكاتب المحقق » . في منزلي الشابين ، وبين أفراد العائلة ، والوالدان في المقدّمة ، كان الأمر يعني الكثير فقد قاما « بما من شأنه أن يهدد الأمن العام » أثناء سير الدراسة في القرويين ،

وتزعما الدعوة إلى الإضراب الذي أدى مهمته وانتهى ، بعد أن عاد الطلبة إلى دروسهم . وحتى لا يعودا إلى « ما من شأنه » أن يهدد الأمن العام وسير الدراسة كان على إدارة دار الباشا أن تقوم بتهديد قد يحسبان لما بعده حساباً إن هما عادا إلى « ما من شأنه . . . »

انتهت الأزمة بسلام . وكانت إحْدى تجارب الإحتكاك مع السلطة

17

في الخلية الصغيرة ، أخبر بأن كتلة العمل الوطني ستعقد مؤتمراً في الرباط . والرباط أبعد ما تكون عن فاس ، في رؤية الفتى الذي لم يعرف غير فاس إلاّ حينما تسنح الفرص ليتخلّص من أسرها

لم يعرف الرباط . لم يزر من قبل المدينة « العاصمة » التي تعتبر مقر «المخزن» والإدارة و « حكومة » الحماية والمقيم العام

المؤتمر هذا التجمع الذي لم يحضر مثيلاً له من قبل . ماذا يكون ؟ ماذا سيدرس ؟

أسئلة لم يمنحها فرصة الإستقرار والرسوب ، ولا حاول أن يسأل فيجاب . ما يزال يربأ بنفسه عن أن يبدو غراً يجهل ما كان ينبغي أن يعلم

دعي صاحبنا وزميل له في الخلية لحضور المؤتمر ـ لا أدري كيف وقع عليهما الاختيار من بين الزملاء لحضور المؤتمر ـ . قد تكون فكرة التمثيل المعيّن وقد يكون ما عرفت عنهما الاستخبارات الوطنية من شدة كتمان للأسرار ولكنه ـ وزميله ـ لم يفكرا في كل ذلك بقدر ما فكرا في الحصول على إذن للسفر خارج فاس من والديهما ، وللقيام بعمل سياسي قد يكون محرجاً لهما وللوالدين . ولا يدريان كيف تدبرا الأمر ، أمر المال ، ولكن التجربة الكبرى كانت هي التفكير في كذبة بيضاء يمكن أن تبيح لهما السفر ـ ولهدف سياسي ـ دون أن يكون في ذلك إحراج للوالدين ، ودون أن يمتنعا عن الإذن في ذلك

من الصعب ابتكار كذبة ناجحة ، فما ألفا أن يرتكبا آثاماً تحتاج منهما إلى ممارسة الكذب وإتقانه . ولكنهما وفقا إلى كذبة بريئة لعل الجو الذي كان يعيشه الطلاب في القرويين أوحى بهما

ـ سنذهب يومين إلى الرباط لتقديم مذكرة عن أوضاع الدراسة في القرويين إلى وزير العدل في الرباط نيابة عن الطلاب

لم يفكر طويلاً ولم يكثر من الأسئلة . ولعله اغتبط وشعر باعتزاز وهو يأذن لابنه وينفق ويوحي بالعودة السريعة بعد إتمام المهمة

ضم المؤتمر نخبة من ممثل الحركة الوطنية في مختلف المدن المغربية . كان سريا ، كما لا احتاج أن أقول . ولكن تنقل وجوه الحركة ، من شمال وجنوب وشرق وغرب إلى مدينة الرباط ، كان مما لا يطمئن الاستخبارات التي تشدد الحصار على المدن والقرى على السواء . كانت خطب القيادات الإقليمية تؤكد على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والوضعية المزرية التي يعيشها الشعب في ظل سياسة الميز التي تعانيها البلاد . لم تكن لغة الخطاب علمية ، ولا كان الخطاب في حاجة إلى ذلك لخروج المؤتمر بقرارات أغلب الظن أنها كانت محضّرة . العائلة الوطنية كانت تعيش في مناخ مفتوح عن طريق الرسالة الشفوية والمكتوبة في « النشرة السرية » ، في غياب الصحافة ، التي كانت تجمع شمال المغرب بجنوبه وشرقه بغربه بأفكار ومضامين محددة ، مخطط لها .

واستطاع المؤتمرون في ساعات محدودة من ليلة ربيعية ـ وعمل مثل هذا لا يتم إلاّ في الليل ـ أن يرسم صورة واضحة عن معاناة الشعب وعن وضعية الحركة الوطنية

استطاع صاحبنا في ساعات محدودات ، هي ساعات المؤتمر ، أن يعي درساً جديداً خرج به من نطاق التفكير المحدود في القضايا الوطنية من خلال مدينة ، إلى تفكير أكثر سعة من خلال أقاليم المغرب جميعه . وأن يتسع مفهومه للمعاناة من خلال ما يعرفه في مدينة إلى ما تعرف عليه من معاناة شعب . لم يخنه وعيه الوطني حينما قدم إليه الوطن بدلاً من المدينة ، والشعب بدلاً من سكان ، والسياسة العامة لإدارة الحماية بدلاً من السياسة الخاصة للجنرال حاكم المدينة والباشا منفذ تعليماته

تعرّف في المؤتمر على وجوه وطنية كان يسمع عنها . كانت المخيلة ترسم له عنها صورة أكبر مما كانت ، أصغر مما وجدت ، هي صورة مختلفة على كل

حال . الصورة التي رسمها المؤتمر عنها جعلت منها صديق العمر . اتخذ من بعضهم أستاذاً في الوطنية ومن بعضهم رفقاء كفاح . ما يزالون في سويداء القلب ولو أن الكثيرين منهم غابوا عن وجوده : اختارهم الله إلى جواره

قرارت المؤتمر تلخّصت في المطالب المستعجلة لتكون الحلقة الجديدة للتحدي الذي لا يمكن أن يطفئ جمرته المقيم العام ـ هذه المرة ـ في كأس ماء بارد

كانت « الحرية » جماع هذه المطالب ، وهي الكلمة التي لا يمكن أن تقبلها سلطات الحماية عنوان المستعجل من المطالب ، بعد أن قبلتها في غمرة المطالب العامة « مطالب الشعب المغربي » . وكانت حرية الصحافة في مقدّمة هذه الحريات . وإدارة الحماية ، منذ بداية عملها ، لم تكن تخشى شيئاً قدر ما كانت تخشى الصحافة ، التي كانت حلالاً للمستوطنين الفرنسيين حراماً على المواطنين

ولعل حرية الصحافة هي « الرسالة » الأولى التي حملها معه من مؤتمر الرباط .

عاد ـ وزميله ـ إلى مدينة فاس ، وقد حققا « أكبر » تطور في حياتهما الوطنية ومستقبلهما السياسي . شخصان آخران غير ما كانا في حلقة الخلية أو حلقة الدرس . ولعلهما شعرا باعتزاز أضفى على « رجولتهما » ـ وهما بعد فتيان ـ طابعاً جديداً يتسم بالرجولة والمسؤولية

على مائدة العشاء خضع صاحبنا لاستفسار من والده وعمه عن مهمتهما في الرباط ، وعما إذا كان وزير العدل ـ الشيخ محمد بن العربي العلوي ـ قد استقبلهما ؟ وما إذا كان قد تقبّل المذكرة التي قدماها له قبولاً حسناً ؟ أضاف العم ـ وقد اتسعت ابتسامته وضحكت عيناه ، أكثر مما كان يحدث معه وهو يحدّثه في أمر جديّ ـ : إذا وافق الوزير على ما في المذكرة من مطالب هل ستتغير أوضاع الدراسة في القرويين ؟

أحس بأن الحصار أخذ يضيق عليه . ومن طبيعته أن ينهزم إذا ضاق

الحصار عليه بحق أو بباطل . تخلّص من الهزيمة بهمهمة أدرك أنها لن تنقذ الموقف . تمنى لو انكشف الأمر فتخلّص من عذاب التحقيق الذي كان يخفف من حدته عذوبة كلمات الوالد وإشفاقه ربما عليه في مأزقه

اتجه عمه إلى الوالد يحدّثه ـ وكأنه يروي له القصة لأول مرة ـ

الفقيه ابن العربي موجود في فاس منذ أكثر من أسبوع . الوطنيون عقدوا اجتماعاً مهما في الرباط ترددت أصداؤه في كل أنحاء المغرب . . . كذلك تتحدّث المدينة

تلفت يسأل في ابتسامته الساخرة وبلهجة الظافر

ـ أكنتما في الاجتماع ؟

لا أعرف كيف كان لون وجهه . الوقت ليل . شعر بأن كل دمائه انسحبت من ملامحه وكيانه جميعاً ، حرّك رأسه إيجاباً . عاد إلى صوابه بعد لأي . أخذ يحكي ـ تحت إلحاحهما ـ قصة المؤتمر

باكتشاف اللعبة دخل صاحبنا مرحلة جديدة من النضج . تخلّص من حدة الوصاية ، وقد أصبحت تقليداً أكثر منها قانوناً ، بدأ يدرك حريته تدريجياً ولكن بإصرار . الحرية في أن يفقد الحرية أحياناً في سبيل تحقيق الحرية

18

رغم الإغراق في الدرس والتحصيل كان يجد نفسه في القراءة الحرة في الأدب والتاريخ والفلسفة . صرف نفسه عن كتب التراث ، هذه الكتب التي تحفل بها مكتبة القرويين والكتب التي تباع بالمزايدة العلنية ظهر كل جمعة ـ بعد الصلاة ـ في جامع الجنائز ـ ولكنه كان يتتبع معظم ما يطبع في الشرق ـ مصر بخاصة ـ والشام . ومصر كانت عاصمة النشر . وكتابها والمؤلفون فيها أكثر الكتّاب والمؤلفين شهرة في الوطن العربي . لم يكن يصدر كتاب للمؤلّفين المعروفين ، أو من كتب التراث المطبوع على ورق أبيض ، إلاّ كانت المكتبات في المغرب تسعى إلى استيراده . إدارة الحماية لم يكن يهمهما أن تصل هذه الكتب إلى المغرب . فهي في أغلبها لا تثير قضايا سياسية ، ولا تحرّض على الإخلال بالأمن العام ، بقدر ما يهمها ألاّ يصل إلى المغرب كتاب يتحدّث في السياسة أو يحلل قضية عربية أو إسلامية أو يرد فيه إسم المغرب في وضعه الإستعماري . أسماء كانت كتبها ممنوعة في المغرب تعمي الذاكرة منها إسمي شكيب أرسلان الشيخ طنطاوي جوهري . فقد كانت كتب الأول ومقالاته تثير قضايا الإستعمار والفرنسي بخاصة ، وكتب الثاني في تفسيره للقرآن صفحات من قضية الظهير البربري . ومثل الكتب كانت بعض المجلات تحظى باهتمام الشباب آنذاك . الهلال الرسالة من مصر والعرفان من دمشق ، العرب من فلسطين ، الأقلام ـ ربما ـ من تونس . ثم بعض الصحف التي تصل من هنا وهناك في أعداد قليلة يتداولها الطلاب رغم قدم تاريخها

هكذا تعرّف صاحبنا على عالم آخر في القراءة والدرس عوضه بعض العوض عما افتقده في دروس القرويين وغير القرويين . عالم جديد ينفتح على

تاريخ الإسلام وأدب العربية ، قد ينفتح على فلسفة اليونان وأساطير أدبائها الأقدمين . أسلوب جديد في الدراسة والبحث والإستنتاج ومحاولة الوصول إلى نتائج علمية ونظريات توحي بها نصوص الأقدمين وتصل إليها أساليب المحدثين . وتعرّف صاحبنا على معظم ما أبدعه المبدعون : كتّاب مقالة وقصاصون وروائيون وشعراء ومترجمون ارتقوا جميعهم بالإبداع الأدبي في العربية من مرحلة التقليد والإتباع إلى مرحلة التجديد والإبداع . إذا كان المنفلوطي وقصصه ورواياته الوعظية في مقدمة ما أعجب به أسلوباً وروعة بيان ، فإنه سرعان ما اجتاز مرحلة المنفلوطي إلى مرحلة طه حسين والعقّاد والمازني والزيّات بين المبدعين ، ومرحلة أحمد أمين وعبدالله عنان وحسن إبراهيم وزكي مبارك وكرد علي بين الدارسين وأحمد زكي بين العلماء ومرحلة محمد عوض محمد ولطفي جمعة ودريني خشبة بين المترجمين ، ومرحلة يوسف كرم وزكي نجيب محمد بين مؤرخي الفلسفة اليونانية . وشوقي وحافظ والزهاوي والرصافي والشابي وأنور العطّار وجماعة أبولو بين الشعراء

عالم جديد من المعرفة والأدب والذوق الفني انفتح عليه بقديمه وجديده إسلاميه وشرقيه وغربيه . هؤلاء كانوا يقربون التراث بدراسة جديدة وفهم جديد للدراسات الفكرية والعقلية والأدبية ، تعرّف فيها على الفرق الفكرية والسياسية الإسلامية ، على نشأة الفلسفة الإسلامية إنطلاقاً من العقيدة وعلى هامش العقيدة ، وبتأثير من السياسة وعلى هامش السياسة . تعرّف فيها على تطور الفكر الإسلامي بعقلية البحث اليوناني وبمفاهيم إسلامية . وتعرّف على أرسطو من خلال ابن رشد ـ مثلاً ـ وعلى علم النفس عند المسلمين من خلال ابن سينا ، وعلى طب أبقراط من خلال ابن سينا أيضاً . وتعرّف على فلسفة التاريخ من خلال دراسة ابن خلدون ، وعلى الأدب الجاهلي ليس فقط من خلال نصوص المعلّقات التي درسها ، ولكن من خلال دراسة هذا الأدب بالمفهوم الجديد الذي كتبه طه حسين ثم على الأدب الإسلامي أو العربي في العهود التي تلت ذلك من خلال « حديث الأربعاء » ومن خلال الدراسات الجادة للمعري والمتنبي وابن الرومي

عالم جديد لم تكن الدراسة في القرويين وخارج القرويين تتيحه لصاحبنا ، وللشباب الذين تطلّعوا إلى الجديد في العلم والدراسات الأدبية

فتح هذا العالم عينيه على آفاق جديدة . عرف الأقطار ، كثيراً من الأقطار ، عن طريق الدرس الجغرافي مسطحة على خريطة ملونة ، ولكنه من خلال ما قرأ في الكتب التي فتحت آفاقه على العالم الجديد ، عرف هذه الأقطار عن طريق الواقع المعيش ، أو الذي كان معيشاً في قرن ما ، في سنة ما . عرفه متحرّكاً يصنع التاريخ في أوروبا وأسيا وأمريكا . أما أفريقيا فقد كانت العالم المجهول ، انطلاقاً من المثل السائر : مجاهل أفريقيا . . . عرف الوطن العربي : مصره وشامه وعراقه وحجازه . . . ولم تكن كلمات الممالك والجمهوريات قد تصدّرت أسماء هذه البلاد بعد . تعرف على الشعوب في حركاتها التحررية من خلال كتب التاريخ الحديث ، والمجلات الحديثة . تعرف على مسيرة البناء السياسي : دول شبه مستقلة تحكم حكوماتها (ذاتياً) البلاد ، وتتطلّع إلى مزيد من السلطات تغتصبها من إدارة الإحتلال وجيشه وهي في ذلك تناضل وتكافح ، وتتقدّم خطوة إلى الأمام لتعود خطوتين إلى الوراء . تعرف على التاريخ ما قبل الحديث حينما كانت البلاد العربية تتحرّك لتتخلّص من السلطة العثمانية . اصطدم المنطق كأقوى ما يكون الإصطدام في فكره الذي بدأ يتفتح : هذه بلاد إسلامية تحرّكت لتتخلّص من ا لخلافة العثمانية الإسلامية . وهذه مجموعة من المناضلين يكافحون في سبيل وحدة عربية . تسرّبت إلى رصيده اللغوي كلمات كبيرة مشحونة بمفاهيم جديدة اهتز لها المنطق : الخيانة . . . حكام كبار مسلمون خانوا الخلافة الإسلامية ليكون كل منهم أميراً أو ملكاً على جزء من أقطار الخلافة . . . وما الخلافة . . . ؟ ولم كانت هدفا للخيانة . . .؟ ويدخل التاريخ العربي منطقة الإضطراب والغموض والتشابك . وينجو الفكر ، حديث التفتح ، من هذا الغموض و التشابك ليكتفي بواقع معيش : ملك هنا . . . أمير هناك . . . حكم جمهوري تحت الإنتداب . . . حكم ملكي تحت الوصاية . . . جيش وطني يقوده جنرال أجنبي . . . وتبقى مع ذلك ظلال للحكم الوطني وللسيادة الوطنية في هذا البلد

أو ذاك من بلاد العربية تتيح للحكومة فيها أن تجتمع وتقرر ، وتتيح للدولة الوطنية فيها أن تنشئ هذه المدرسة أو تلك ، تتيح للمثقفين فيها أن ينشئوا مجلة ويكتبوا مقالة ويديروا صحيفة ، وتتيح للسياسيين أن ينشئوا الحزب ويخطبوا في النادي والشارع ويطالبون بالحرية والإستقلال والجلاء

عالم مغاير للعالم الذي يعيشه ، يفرض عليه في كثير من الأحيان أن يخفي الكتاب تحت جلبابه وهو ينقله من منزل الذي أعاره إياه إلى منزله ، مخافة أن يشم رائحته جاسوس ينقل خبره إلى الإدارة ليكون مصيره بين يدي ابن البغدادي ، كما كان مصير طالب ضبط يقرأ تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهري . وكما كان مصير كتبي مشهور اقتادته الشرطة الخاصة من المكتبة إلى مخزن الكتب حيث كان يخفى ، فيما زعموا ، كتاب حاضر العالم الإسلامي الذي كتب تعليقاته شكيب أرسلان

عالم مغاير هو الآخر مهتز ، ما كاد صاحبنا يضع ثقته فيه حتى تضببت الرؤية . تحررت هذه البلاد أو معظمها . ما يزال بعضها يطالب بالإستقلال والجلاء ، ما يزال الحكم فيها ـ رغم الملك أو الرئيس والبرلمان ـ تحت سيطرة الأجانب . وهذه بلاد تطورت فكرياً وأدبياً يحاكم فيها كاتب كبير أو يصادر كتاب جيد ، أو تثار فيها ضجة ضد رأي في الإسلام أو في أصول الحكم أو في الأدب الجاهلي . وهذه بلاد مستقلة تحرّم فيها الصحيفة أو المذياع ، ويشكّ في حلية الهاتف

وتدور به الدوامة من أي عالم يفر ؟ إلى أي عالم يلتجيء ؟

وتفتح فكر صاحبنا كأقوى ما يكون التفتح على عالم آخر ، وهو يقرأ عن تاريخ فرنسا الحديث : تاريخ الثورة أو الثورات الفرنسية : مباذلها ومحاسنها العنف والمذابح والمقصلات تطيح الرؤوس الكبيرة . وأبواب الباستيل تتمزّق ليتحرر الذين أطاح عهد ما قبل الثورة حرياتهم وحياتهم . ويقرأ عن ثورة الفلاحين ضد الإقطاع ، ثورة السياسيين ضد الحكم المطلق ، ومن أجل بناء عهد المؤسسات . . . ثورة الاجتماعيين من أجل إقرار حقوق الإنسان ، من أجل الحريات والمساواة والسيادة للشعب . . . وينفتح فكره على رجل اسمه

نابليون ، تتجسّد فيه بطولة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع . . . ؟ يطارد سلطات الإنجليز من أوروبا ، ويفد « زائراً » إلى مصر ليبني امبراطورية العلم والمدنية العصرية وليسلّم على يد شيوخ الأزهر فيما تزعم الأساطير

وينفتح فكره على « الإنجليز في بلادهم » من خلال كتاب ترجمه فتحي زغلول ليرفع من مقام الإنجليز كدولة بنت امبراطورية استعمارية لا تغرب عن علمها الشمس ، إلى شعب يتمتع « بأخلاق الملائكة » . ولم تكن بعد فضائح « هايد بارك » وآل ويندسور قد زكمت الأنوف . جاء الكتاب في ذلك العهد - ربما - ليخفي الوجه الحقيقي الذي عرفه قرّاء العربية عن الإنجليز في غير بلادهم . ولم يكن صاحبنا ليشذ عن أولئك الذين ضبب الكتاب الرؤية التي كانت لديهم عن الإنجليز

وانفتح فكره على رؤية اضحة عن الحياة العقلية عند المسلمين : كيف انتقل فكرهم من القرآن في شمولية وبساطة نظرته إلى الله والكون والإنسان ، إلى التفكير في الله ، ما هو ؟ وأين يكون ؟ ما قدرته ؟ ما إرادته ؟ التعرّف إليه عن طريق العقل ؟ عن طريق الحس ؟ عن طريق السمو الرحي ؟ الفرق الإسلامية التي نشأت عن هذا التفكير العقلاني في الإلهيات . كان يقرأ التوحيد في القرويين . وكان يسمع من الأساتذة : الخوض في هذه القضايا ، غير التي خاض فيها ابن عاشر في بداية منظومته ، بدعة وضلالة . . . كان يسمع : وقال المعتزلة قبّحهم الله . . . تساءل وهو يقرأ عن المعتزلة والرافضة والخوارج والشيعة : لم قبحّهم الله ؟ تجرأ مرة على أستاذ التوحيد في القرونيين فواجهه بالسؤال . أجاب الأستاذ : لأنهم مبتدعون ، ضالة ، مضللة . . . ما هو الضلال في قولهم ؟ أين زاغ بهم الفكر أو القول من مقولات التفكير الإلهي حتى أصبحوا ضالين ؟ ولم يقبحهم الله ولا يهديهم ؟ وانتفض الشيخ ، وكاد يخرج به الغضب عن طبعه الهادئ . قال : اسكت . . . الخوض في هذا بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . وخشي من النار فسكت لسانه ، وما سكت منه الفكر ولا الضمير

أخذ يتحسس رأسه مخافة أن يكون لهيبها قد سبق لسان الفقيه ، تساءل ـ وهو يقرأ عنهم في كتب أحمد أمين ـ : لم هم مبتدعون ؟ لم هم ضالة مضللة ؟ لم قبحّهم الله ؟ أقنعه أحمد أمين دون أن يجيب عن أسئلته : هم مفكرون انطلقوا من الكتاب والسنة يحكمون العقل كما يدعو الكتاب والسنة . وصلوا إلى نتائج ، كافحوا من أجلها كما كافحت كل الفرق الفكرية التي أوجدتها الحياة العقلية التي لم تكن تخلو من تأثير سياسي ، وصلوا إلى اقتناع يستند إلى العلم والمنطق كان صواباً أو خطأ . العلم لا يحاسب على الخطأ والصواب بقدر ما يحاكم أسلوب البحث والإستقامة الفكرية في التنظير . وقد كانت معظم الفرق تتسم بهذه الاستقامة . ولن يضير استقامتها دعوة أستاذ في القرويين ـ في الثلث الثاني من القرن العشرين ـ أن يقبحّهم الله . لم يكفروا لم يقل عنهم أحمد أمين : من الكفر فروا ، كما كانت تقول بعض كتب وبعض فقهاء القرويين . وإنما كانوا مؤمنين مفكّرين يخطئون ويصيبون ككل المفكّرين

كان هذا إقتناعه وهو يقرأ كتب أحمد أمين عن الحياة العقلية عند المسلمين في العصور الأولى للإسلام ، عصور ازدهار الحركة الفكرية

كان وهو يختلف إلى الدرس يقرأ نصوصاً شعرية جاهلية وأموية وعباسية لا تزيد على أن تعرفه بأسماء الشعراء وبلون من ألوان الشعر العربي قد يختلف في مفردات اللغة وبعض المشاعر ، ولكن النماذج التي تقدّم بين يديه ، سواء عند أبي علي القالي ، وهو ممن جمعوا مختارات من الشعر في أمالية قبل أزيد عن ألف عام ، أو عند المحدثين ممن يقدّمون مختارات سهلة المنال لتلاميذ المدارس ، هذه النماذج لم تكن تزيد على أن تقدّم النموذج التعليمي ، فلا تقدّم الشاعر كمؤسسة شعرية ، ولا ما يحيط به من بيئة شعرية وحياة موحية كانت زاداً لكل الشعراء الذين عرفتهم العربية

وفي عالم الكتب تخلّص من وصاية الاختيار . أخذ يقرأ عن خلفيات الشاعر والظروف التي أنجبته أكثر مما يقرأ عن النصوص ، ويقرأ عن الجديد عند كل شاعر في المفاهيم الشعرية وفي إيحاء الحياة التي تحررت قليلاً من ضغط

البداوة ، وتحررت أكثر من ضغط المجتمع المحافظ ، وتحررت أكثر من هذا وذاك من ضغط الفكر المحافظ ، فكان الشاعر الذي تحرر من البداوة يتحرر في نفس الوقت مما كانت تفرضه من تعامل مع الجنس برومانسية كان يفرض بعضها المجتمع ، ويفرض أكثرها ضيق أفق الشاعر ، فانطلق في واقعية تفرضها الحياة المترفة التي لم يستطع الدين أن يقمع جماحها ، وتحررت في نفس الوقت من سيطرة الدين ورقابة علماء الدين . ثم أخذ يقرأ عن إسهام كل شاعر في تطوير القصيدة إنطلاقاً من تطوّر الحياة نفسها وتطوّر الثقافة وتطوّر منزلة الشاعر في المجتمع ودوره في الحياة السياسية ومدى قربه من القيادة

عالم جديد عن الشعر انفتح أمامه امتزج فيه تأريخ الأدب بالنقد ، وامتزجت فيه أرضية الشعر بالشعراء وبالقصيدة نفسها

ونقله هذا العالم من القديم إلى الجديد . كان يعرف أسماء من الشعراء المحدّثين . أصبح يبحث عن دواوين كاملة للبارودي وشوقي وحافظ ويقرأ للزهاوي والرصافي ، ولا يكاد يفهم شعر شكري ولا العقّاد . وهو مع ذلك مأخوذ بهذا النوع من الشعر الجديد الذي لا يتحدّث إلاّ قليلاً عن مضامين الشعراء الآخرين بينما يضع « الموسيقى » ـ مثلاً ـ عنوان قصيدة وموضوع شعر . يفلسف الشعر ، وينعى على الذين يبسطون القصيدة ، مأسورين بخلفيات قديمة عفى عليها الزمان . ويكاد يؤخذ بهذه الحملة التي شنها المحدثون ـ العقّاد والمازني بخاصة ـ على الشعراء التقليديين ، خاصة منهم الذين تربعوا على إمارة الشعر ، فلم يتركوا لهم مجالاً يتحرّكون فيه كشعراء ، وإن ظلّت لهم مكانتهم ككتاب وباحثين ، لم يبايعهم في فنون النثر أحد بالإمارة ، وإن كانوا قد تربعوا على عرشها عن جدارة . لعل لقب « إمارة » الشعر كان مما يثير حفيظة شعراء لم يجدوا شعباً يؤمرهم

بقدر ما بدأ الشك يأخذ طريقه إلى يقينه عن بعض المسلمات التاريخية والتاريخية الأدبية بما قرأه عند طه حسين عن الشعر الجاهلي ، أخذ الشك يأخذ طريقه إلى يقينه عن الرؤوس الكبيرة في الأدب والشعر . كان شوقي قد مات عندما أخذ يقرأ ما كتبه العقّاد عنه إلى جانب ما كتبه الآخرون مثل طه

حسين ، وكانت كتابات العقّاد تزعزع يقينه بشوقي ، وما يدري كيف كان يعجب بقصائد ترفع مكانة شوقي إلى سماء وهو ينشد

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرّجة يدق

وتنزل بهذه المكانة وهو يقرأ « الديوان » للعقّاد والمازني . تعلّم أن الرؤوس الأدبية مهما ارتفعت فستجد من ينزل بالفأس على هامتها لتخفض من مكانتها ،تعلّم أن يكون مع العقّاد ضد شوقي إلى أن يجعله الشعر الجيد لأمير الشعراء مع شوقي ضد العقّاد

وانفتح فكره على عالم آخر تعرّف فيه على اللغة العربية : كيف تطورت من عهد الكتب الصفراء ، التي كاد يغرق فيها وهو يدرس في القرويين ، إلى العهد الذي كتب فيه طه حسين الأيام ـ حديث الأربعاء ـ على هامش السيرة . . . وكتب العقّاد : ابن الرومي من شعره وساعات بين الكتب وكتب المازني : حصاد الهشيم ـ إبراهيم الكاتب . . . وكتب الزيّات : في أصول الأدب وترجم آلام ڤيرتير ثم روائعه في الرسالة . لغة أخرى لا تربطها باللغة التي يقرأها في الكتب الصفراء رابطة . سلسة ، طبيعية ، غنية ، شاعرية ، واضحة . . . عميقة . . . معبّرة . . . شلال من الأفكار والصور والمضامين تتراقص الألوان من خلال الكلمة والجملة والفقرة . لا تحتاج إلى شارح أو محشى أو معلّق . أنت في غير حاجة إلى أستاذ تجلس إليه لينقل إليك الفكرة ويبسطها . . . لا تحتاج إلى قاموس يحل لك رموزها . وأنت بعد أمام فيض من المعلومات لا تستطيع أن تجمعها من مجموعة كتب تراثية ، أمام منطق في التفكير المستقيم الذي يصطنع الشك أحياناً ليصل بك إلى اليقين أمام الرفض لكثير من المسلمات يعلم فكرك الإبتعاد عن الإستسلام للمقولات ، لمجرد أنها مقولات وردت في كتاب ، ولو كان لكاتب مشهود بعلمه . علم ولغة وأسلوب وطريقة في البحث وجرأة على التفكير والإفتراض والإستنتاج

وكان ، وهو يقرأ ويختار ما يقرأ ، يتنقّل بين التاريخ والبحث الفلسفي والعلمي والعقلي وتاريخ الأدب ، وتحليل النص والقصة والرواية والمقالة

والقصيدة . أطلّ من خلال ما قرأ على معارف إسلامية وعربية وشرقية فارسية وهندية . على آداب عربية وأجنبية . تعرّف على شعراء وكتّاب يونانيين وفرنسيين وانجليز وروسيين . كان يتنقّل بين الماضي العريق في الماضوية وفلاسفة وشعراء ومفكّرين يونانيين بنوا مجد اليونان الفلسفي والفكري ، وعلى شعراء النهضة وكتابها من روما حتى باريس . وكانت الثقافة الفرنسية ما تزال تستبد بأضواء ما بين الحربين . وعلى كتّاب وشعراء ومفكّرين انجليز يطفح شعرهم بالفكر والعمق والتأمل ، وعلى كتّاب وشعراء روسيين مهدوا للثورة وصوّروا المجتمع الروسي القديم في صراعه مع التخلّف ومع طغيان الحكم . وكان يتعرّف على فلاسفة مسلمين كتبوا الفلسفة بالعربية . شرحوا أفكار أرسطو وأضافوا إليها ، تحدّثوا عن النفس والروح بأسلوب يجمع بين الفلسفة والعلم والأدب ، فكانوا أصدق معبّر عن روح العصر الذي عاشوا فيه

وانفتح فكره على دائرة ضوء تسلّمه إلى عالم العلم : تعرف مثلاً على كوخ الألماني وهو يجهد ليكتشف المكروب فيفح أمام الإنسانية سبيلاً لمقاومة كثير من الأمراض المبيدة في مقدّمتها السل الرئوي . وعلى باستور الفرنسي وهو يكتشف التلقيح

وكان ، وهو يتحدّث إلى لداته من فتيان وشباب المدارس الثانوية «العصرية » التي تتخذ الفرنسية سبيلاً إلى المعرفة ، يبهرهم ، يشككهم في المقولة التي تلقن إليهم بطريق مباشر أو غير مباشر : الفرنسية هي وحدها القادرة على احتواء المعرفة ، من : واحد زائد واحد يساوي إثنين إلى كوخ العالم الذي كان الإطلاع على آرائه لا يتم إلاّ عن طريق الفرنسية

لم تكن هذه القراءة الجادة التي كانت تشغل صاحبنا عن كثير من الدروس ، وتشغله عن كثير مما يشغل به الشباب أنفسهم من متع الحياة ولذاتها ، لترضى نفسه ، أو لتملأه ثقة واطمئناناً ، وإنما كانت ـ فيما يحسب ـ تزيد من عنف الدوامة وقوتها . دوامة الشك في جدوى ما يشغل به نفسه ، ما يدرس في القرويين الذي لم يعد يتجاوب معه ، فلن يكون فقيهاً ، ولن يعد نفسه ليكون مدرّساً في القرويين ولا يسعى للحصول على شهادتها ، وما يشغل

به نفسه من هذه الكتب والمجلات التي لا يكاد ينتهي من أحدها حتى يدلف إلى المكتبة ، ينفق ما عنده أو يستعير من صديق و زميل أو من مكتبة خاصة لأستاذ ، أو موسر اتخذ من اقتناء الكتب تعويضاً عما فقد من متعة قراءة الكتب

19

على مبعدة من القرويين ، وفي الحدود الفاصلة بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، كانت تقيم المدرسة الثانوية الوحيدة في مدينة فاس . إحدى ثلاث أو أربع في المغرب جميعه . أقامها نظام الحماية الجديد كاستمرار «لمدارس أبناء الأعيان » حتى يتاح لهم أن يدرسوا اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا ، إلى جانب ما يرضى به رغبة « الأعيان » في أبنائهم من دراسة اللغة العربية ومبادئ الفقه . كان ليوطى ـ حكيم الاستعمار ـ يسعى إلى تحقيق أهدافه من الباب الواسع . لم يكن يقدم على خطوة نحو صميم العمل الاستعماري يعتقد أنه قد يصطدم فيها مع « النخبة » و « الأعيان » و « رؤساء القبائل » والبارزين في « العائلات المعتبرة » إلاّ كان يكسوها بما يمكن أن يحببها إلى القلوب ولذلك كانت المدرسة الابتدائية لأبناء الأعيان ، وكانت المدرسة الثانوية استمراراً لها ، لا تكاد تجد فيها غير أبناء الأعيان . وكان أبناء الأعيان هؤلاء ينظرون ـ في غالبهم ـ من « فوق » لأبناء غير الأعيان . كان انفصام أو شبه انفصام في مجتمع الشباب بفاس ، بدأ هذا الإنفصام يظهر بوضوح بين تلاميذ القرويين وتلاميذ المدارس ـ التي لم تكن تعدو أصابع اليد ـ إحداها كانت ثانوية مولاي إدريس التي لا تتيح من التعليم إلاّ المرحلة الأولى من الثانوي ، لتتوزع تلاميذها الوظائف الصغرى في البريد والبنك والإدارات التي يرتادها المغاربة لقضاء مصالحهم . والذين تطمح عقولهم الصغيرة من التلاميذ أن يزدادوا علماً كان عليهم أن يهاجروا إلى الرباط . وقليل ـ جداً ـ منهم من هاجر إلى فرنسا ليحصل على شهادة البكالوريا

الحركة الوطنية هدمت السد الذي كان يفصل بين شباب القرويين

وشباب المدرسة الثانوية . كان من أولئك شباب أدركتهم الوطنية من بقايا الوعي الوطني في المجتمع المغربي ، وما عرفوه وسمعوا عنه من نضال المجاهدين في الأطلس والريف ، ثم مما قرأوه من تاريخ المغرب وما تعرّفوا عليه من نضال الحركات الوطنية في مصر والشام والعراق والهند . وارتبط الفكر الوطني عندهم بالفكر الإسلامي ، فكان انتماء وطنييهم إلى القرويين انتماء أصيلاً . وكان من هؤلاء شباب أدركتهم الوطنية من بعض ذلك ، ثم مما قرأوه في تاريخ فرنسا وثورتها وبعض آدابها الكلاسيكي الذي يشيد بالنضال الشعبي ، وبالثورة على الاستبداد والطغيان . كان يراد لهؤلاء أن يكون الدرس الذي يتلقونه باعثاً على تمجيد النموذج الفرنسي في عقولهم ونفوسهم وضميرهم جميعاً ، وأن ينسيهم النموذج المغربي الذي ما يزال كشبح يتراءى لهم من بعيد . نموذج قديم ، عفى عليه الحديث ، يواجهه نموذج جديد متطور مستقبلي

غير أن الفكر الوطني وضع النموذج الفرنسي في مكانه من خدمة النموذج المغربي

ـ ولم لا نكون مثل فرنسا نسعى لتحطيم الطغيان والإستغلال والإستبداد لصالح الشعب ، حتى ينعم هو الآخر بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة . . . ؟

سؤال وضعه كثير من شباب المدرسة الثانوية « مولاي ادريس » على أنفسهم كما وضعه شباب مدارس أخرى مماثلة في مدن مغربية أخرى . وكان هو القنطرة التي جمعت بين أبناء القرويين ،الثاوية في قلب المدينة العتيقة ، وأبناء المدرسة الثانوية على أطراف المدينة . الجديد والقديم التقيا في حضن الفكر الوطني

كان صاحبنا من الجيل الثاني لهذه الحركة ، وكان نظراؤه في المدرسة من الجيل الثاني . وأغلب الظن أن السد الذي كانت الحركة الوطنية تأكل من أطرافه ما تزال إدارة الحماية تقيمه بما تبث في بعض تلاميذ المدرسة من شعور التفوق والإستعلاء . كان صاحبنا يأنف من هذا الشعور ويبتعد بنفسه عن الذين يغمرهم مزيج منه . أخذ يسعى ليتعلّم الفرنسية ، ولكن ما كان يتعلّمه

لا يمكن أن يجتاز به السد . وكانت بعض الدروس المشتركة التي ينظمها بعض الأساتذة ـ ولم يكن يراد منها العلم بقدر ما كان يراد منها الوقوف في وجه الإستلاب الوطني ـ تفسح المجال لصاحبنا ليخترق حاجز الشعور بالتفوق والإستعلاء ، عند بعض الآخرين . كان يتلمّس طريقه إلى ذلك فيما يقرأ من آداب أجنبية مترجماً ، وما يقرأ من مبادئ العلوم والفلسفة مكتوباً بالعربية كان يوحي بالمساواة ، ويكاد يشعر بالتفوق ، وهو يتحدّث عن بحيرة لامارتين ، عن آلام فيرتير ، عن بلزاك ، عن جان جاك روسو ، عن بعض ما يقرأ في « الرسالة » أو « الرواية » من قصص الفرنسيين والروس والإنجليز ، عن شعراء العهد الكلاسيكي ، عن الرومانسيين الحالمين . كان يحلو له أن يستظهر محاورات أفلاطون . أن يتحدّث عن مأساة سقراط ، عن فلسفة أرسطو ، بل عن جون لوك وديكارت وكانت . وكان قد قرأ قصة المكروب كما كتبها أحمد زكي في « الرسالة » فأخذ يتحدّث عن الذين اكتشفوا المكروب والذين طوّروا البحث في سبيل التعرّف على الميكروبات ومقاومتها . . . كان بكل ذلك يخترق السد ليقف في مقدّمة الصف ، وكأنه يقول : هل مبارز . . .؟

حينما كان يحلو لبعض أبناء المدرسة أن يتحدّثوا بالفرنسية ويتجوّلوا في الشوارع والزقاقات بالكتاب بين أيديهم ، ويفتخروا بأنهم يدرسون الفلسفة أو يعدون أنفسهم للهندسة أو الطب ، ويحملون في أيديهم الصحيفة القادمة من باريس ، كان الآخرون ـ بعضهم ـ يتحدّث بالفصحى ، ويستعمل ما لصق بحفظه من كلمات غريبة ويتمثّل بأمثال الميداني أو ينشد بيتاً من شعر المتنبي أو شوقي ، ويتجوّل بالكتاب المعاصر دون أن يحمل « لبدة » ويقرأ الصحيفة الوافدة من مصر أو تونس . نوع من التنافس الصامت كان بين أبناء الجيل الواحد . كان محموداً ، وهو يدفع بهؤلاء وأولئك إلى التثقيف الذاتي ، إلى ذلك يؤصل خلافاً في العقلية والتوجه ، رغم جهود الحركة الوطنية التي كانت تحاول أن تردم شقة الخلاف

لم يبد على السطح عمق الهوة بين شباب القرويين وشباب المدارس «العصرية » ولكنه كان يتجذّر فيما كان يشعر به هذا الفريق أو ذاك من تميز

فالذين يدرسون بالفرنسية يشعرون بنوع من الاستعلاء في ثقافتهم ، وبأنهم من طينة أخرى غير تلك التي يتكوّن منها الذين يدرسون بالعربية . وقد يتحوّل هذا الشعور من الإنسان إلى الفكر ، إلى اللغة فيشعر المفرنس بأنه يملك زمام الفكر العصري ويتحدّث لغة المتحضهرين ، ويشعر المعرب بأنه يملك زمام الفكر الإسلامي ويعرف لغة « العلم » والدين ، ويبتعد باللغة والفكر عن لغة المستعمر وفكره

وما من شك في أن الذين استقطبتهم الإدارة من مدارسها للمساعدة في هذا المكتب أو ذاك ، في هذه الإدارة أو تلك ، كانوا يشعرون بأنهم « يحكمون » وأنهم أقرب إلى مركز القرار ، مهما يكن هذا « القرب » بعيداً ، بعد مغربي عن فرنسي ، وبعد إدارة بريد أو بلدية عن إدارة حاكم الناحية ، الجنرال « أو المراقب المدني » « الكولونيل » أو « القبطان »

كان خريجو القرويين يعرفون قدرتهم فلا ينافسون في عمل لغتهُ غير ما يعرفون . ولا يتطلّعون إلى أن « يحكموا » في إدارة بريد أو « ترتيب » (الضريبة الفلاحية) ، ولكنهم مع ذلك كانوا يسعون ليأكلوا خبزهم عن طريق العمل في السلطة أو ما يشبه السلطة . كانت خطة العدالة أقرب خطة يمكن أن يسعوا إليها فيبلغون مرادهم إذا كانوا يعرفون من أين تؤكل ا لكتف . وكانت خطة القضاء أعلى مرتبة يمكن أن يصلها الفقيه ، إذا كان مرموقاً في عائلته ، وعائلته مرموقة في قبيلته ، وقبيلته مرموقة في إقليمه عند الحاكمين الذين يختارون القاضي ، كما يختارون القائد أو الباشا ، ولو لم يكن نابغاً في العلم والمعرفة الفقهية ، ولو لم يكن ممن لا يتناوله التجريح الذي نص عليه ابن عاصم في أرجوزته « التحفة » في بداية حديثه عن خطة القضاء

وإذا كان سبيل المفرنسين إلى الإدارة هو نباهة العائلة ورب العائلة (الوالد) من « الأعيان » ، وحسن الأحدوثة في المدرسة بحيث لم يعرف عنه أنه رفع رأسه ولا فاه بكلمة اعتراض على الأستاذ ، فإن سبيل المعربين إلى العمل (إن وجد لهم عمل) هو القرب من الإدارة وخدمتها أباً عن جد . ولم تكن الكفاءة ولا اللمعان في الدراسة المؤهل لهذا العمل أو ذاك

وكان بعض الذين يرشحهم قربهم من الإدارة للعمل في خطة العدالة ، وإن علت مكانتهم فلخطة القضاء في البادية أو في مدينة بدوية ، يتوسلون إلى ذلك « بشراء » « سلطنة الطلبة » التي يتقدّم إليها النابهون عائلياً وقبلياً ومالياً ومن « سلطان » للطلبة إلى خطة عدل أو قاض ، ولو لم يكن قد حصل على شهادة علمية أو « إجازة » من أساتذته . « فالسلطان » لا يليق به بعد سلطنة أسبوع أن يجلس إلى فقيه ، مع مجموعة من « رعيته » ، على حصيرة في مسجد القرويين

وتلك ميزة لم يكن يحظى بها « أبناء الأعيان » من تلاميذ المدارس العصرية . ولا كان يحظى بها طلبة القرويين من أبناء فاس . فالنابغون منهم كان ينتهي بهم المطاف إلى مدرس في القرويين ، أو خطة عدالة في « سماط العدول » أو قاض إن حسنت سيرته ، وكان حاكم الناحية والمراقب المدني له من الشاهدين . وأغلبهم كانوا يذوبون في المجتمع يعملون في تجارة أو حرفة أو إمامة صلاة أو خطابة جمعة

كان صاحبنا يستعرض شريط المستقبل ، ولا يضع نفسه في قائمة هؤلاء وأولئك . الدوامة تكاد تبتلعه وهو يحاول أن يجد له مستقراً فكرياً وعلمياً ومجتمعياً . يتردد على الدروس التي يختارها بنفسه ، وبمساعدة بعض أساتذته . لا يخضع فيها لنظام يفضي به من فصل إلى فصل ، من سنة إلى أخرى ، من شهادة ابتدائية إلى ثانوية إلى عالية . وهو يرفض أن يحمل شهادة من القرويين لأنه لا يعد نفسه ليكون عدلاً أو قاضياً أو مدرّس نحو وبلاغة وفقه . ويرفض أن يجلس إلى « فقيه » يدرس الجغرافية أو علم الاجتماع من مقدّمة ابن خلدون ، وهو يجهل كل شيء عن الجغرافية والتاريخ ، ولا تربطه صلة فكرية بمقدّمة ابن خلدون . وهو يرفض أن يضيّع مزيداً من وقته ليحصل على شهادة ، يعرف مقدّماً ألا شيء عنده يسند هذه الشهادة ليكون في « المقام الأرفع » لدى سلطة نشأ ، ولا يدري منذ متى ؟ - يكن لها الكراهية والبغضاء .

المستقبل ؟

هي الكلمة التي كان يرفض أن يفكّر بها وفي مضمونها . لن يكون عالماً

من علماء القرويين على كل حال . ولن يكون موظفاً في إدارة . مؤهلاته دون أن يعمل في إدارة بريد أو « ترتيب » أو مسجلاً في إدارة البلدية

وماذا بعد ؟

كان يقرأ مرتاح الضمير مرتاح النفس للعائلة التي لم تكن على حافة الفقر ، للوالد الذي يتاجر ويرعى العائلة دون أن يشكو الزمان ، أو يتطلّع إلى أحد من أبنائه ليساعده على حمل همومه . ولم يكن ليتطلّع إلى مزيد مما يوفره له الوالد من غداء وكساء ومأوى وكتب ، إذا لم تكن نفقاتها مما يرهق كاهله ولم يكن في حاجة إلى أن يكون في جيبه ما ينفقه في مقهى أو سياحة أو متعة . كان غنياً لا يملك مالاً ، فقيراً في غير حاجة إلى إنفاق . كان راضياً دون أن تستحثه رغبة على ألاّ يرضى

أرأيت فتى على أبواب الشباب يعيش حاضره دون حاجة إلى مستقبل .

هكذا كان

20

ـ كنا * فتية طموحاتنا أكبر من عقولنا ، تطلعاتنا أوسع من إمكاناتنا ، يجمعنا الدرس ، وتوحّد بيننا الآمال في أن نكون . نلتف حول المثل . وكان المثل كبيراً عظيماً في رؤيتنا الصغيرة ، كان عالماً واسع المعرفة ، شاعراً رائق الشعر ، كاتباً بليغ الأسلوب ، خطيباً مفوهاً فصيح الكلمة قوي العبارة ، قادراً على امتلاك الجماهير وغزو أفكار الكبار والصغار على السواء ، جميل المحيا ، نافذ العينين ، طموحاً انقادت إليه الزعامة بين لِداته في العلم والوطنية والنضال . تجسّد فيه احترام الخاصة العامة . يذكر اسمه فتتداعى كلمات الحب والتقدير والثناء . يجلس طلابه من حوله فيدوى صوته بين أساطين القرويين يستدعى جماهير المتعطّشين للعلم والمعرفة ، المشتاقين لصدق الكلمة التي غابت ردحاً من زمان ، الطامحين في أن يستعيد الوطن على يديه كرامته التي اغتصبت وعزته التي أهينت ، ينفض ا لسامرون وكلهم يتحدّث بما قال ، وبما فهموه مما لم يقل . يتملّكنا كبرياء العربي والإعتزاز بالخصوصية . يستحثنا ذلك لنقرأ ونستزيد مما نقرأ ، وما يشير إلينا بأن نقرأ . يحاول كل منا أن يحتذي المثل ، وأن يرسم الخطة ليكون هو

ذلك هو الطموح الذي جمع بين فتية أغرار ، لا مَغَرَّرين

كان شتاء المدينة يستغرق منا الجهد للدرس والقراءة والاختلاف إلى الدروس ، إلى المكتبات نبحث عن الجديد من الكتب والمجلات ، إلى اجتماع الخلايا نبدأ فيها بقراءة فصل من كتاب وننتهي إلى مناقشة فكرة وطنية أو

* اختفى صاحبنا من هذه السيرة ليفسح المجال « للأنا » صفحة جديدة في سفر التكوين ، تعمد الكاتب أن يساير المرحلة ، فيتحدّث بضمير المتكلّم بدلاً من الغائب الذي غاب في طفولة التكوين

سياسية . . . حتى إذا تنفّست المدينة من كبت الشتاء وزمهرير البرد ، صوصت الطيور في سمائها تستدعي سكانها إلى الحقول والمراعي والجنات الخضر . كان ما حول المدينة يثأر للمدينة وسكانها فيمنحهم الدفء ، ويملأ عيونهم باخضرار الأرض وزرقة السماء واتساع الآفاق ، ويروي نفوسهم بسماحة الريف وجمال الطبيعة وبساطة « العروبية » . . . ويمنحهم وقتاً للتخلّص من ضغظ العمل والكد في سبيل الرزق والتفكير في شقاء العيش

كنا فتية نسعى لنستقل عن وصاية الكبار فنبني عالمنا الذي لا تحده طموحاتنا ولا تَحجّمه آمالنا . ولم لا يكون لنا حظ من ربيع المدينة القصير كما كان لنا حظ واسع من شتائها الطويل ؟ وكان أحدنا يملك والده ضيعة فلاحية على ربوة منها « براكة » قصدير ، كانت ـ لعلها ـ تستغل صيفاً في جمع المحاصيل ، وتستخدم شتاء مرأباً للأكباش أو الأبقار أو مأوى للدجاج . . . وتعد ـ ربيعاً ـ لاستضافة ضيوف البادية ممن كانت تؤويهم دور كالقصور ، ينامون في غرفها « المزلجة » الجدران الوتيرة الفراش المنسدلة الخمائل

كان لنا في « نزهتنا » برنامج عمل يستغرق ما بين إشراقة شمس الصباح وزلف من الليل . وصباح البادية يبدأ مع صيحة الديك وخوار الأبقار وزقزقة الطيور ، وتداعي صغار الأطفال و الطفلات يستعدون للرحيل مع أبقارهم وشياههم إلى المراعي

كان من برنامج العمل أن نسير على أقدامنا صباحاً قبل أن يهيج أوار الشمس ، نستمتع بندى الصبح وطراوة نسيمه ، تخشخش تحت أقدامنا حشائش طرية ندية ، تتداعى إلى أسماعنا نداءات الرعاة ، وهم ، وهن ، يناجون أبقارهم وشياههم ينشون عليها في رفق ، يعيدون الآبق منها إلى جادة الطريق حتى يتعلّم الإنضباط والإمتثال

نعود بعد إجهاد لنتلذذ بقطائر الفلاحين ورغيفهم « وبغريرهم » وحليبهم وزبدهم . ينتحي كل منا ركناً في ظل شجرة يقرأ في كتاب لنجتمع بعد ذلك في جلسة صاخبة للمناقشة والحوار . كل منا كان يقرأ ليشرك الآخرين فيما قرأ . كنا نرضى ، نسخط ، نغضب ، نجادل ، نعاند ، ننتقد ، نفرغ كل رضانا

وسخطنا وعنادنا في الأوراق التي يحتويها الكتاب ، ينقل كل منا حواره الصاخب مع الكتاب إلى لداته ، لتكون الجلسة الصاخبة مع الرفقة بديلاً من الجلسة المتمرّدة مع الكتاب

وتكون جلسة العشية ، ونحن نتحلّق حول صينية الشاي ، مع «ماكينة» الغناء . كل منا كان يستعير أسطوانة ممن يملك . كنا نستعيد ، ولا نمل من استعادة ـ : وحقك أنت المنى والطلب . . . نستعيد ، ولا نمل ، : جفنه علم الغزل . . . ولم يكن في عالم الطرب والموسيقى غير أم كلثوم وعبدالوهاب .

وينتهي الشاي وتقف « المكينة » ويستدعينا الدليل لنمضي فترة في النزهة ، نصعد الكدى وننزل السفوح لنشهد غروب الشمس في الأفق البعيد في المدينة لا نشهد شروق شمس ولا غروبها إلاّ إذا أطلّت ـ وقد قاربت الضحى ـ على رؤوس الجدران السامقة

يعود بنا المغيب إلى « البراكة » لنقضي ساعة أو ساعتين مع هذا الكتاب ، أو ذاك ، وينتهي المساء بالعودة ـ مثلاً ـ إلى دروس المعلّم الأول نستعيد الفكرة والرأي والإشارة إلى ما قال وما أراد أن يقول

كان وقتنا أوسع من عملنا . صخب المناقشة أحياناً يثيرنا . نضجر من القراءة أحياناً نسمع : أمانا أيها القمر المطل . . . نرغب في أن يبقى صوت أم كلثوم الناعم ـ كان ناعماً في أيامنا تلك يدغدغ أحاسيسنا ، نستمع إليه في أعماقنا بعد أن تملته آذاننا . وهتف أحدنا

ـ نضع في جدول أعمالنا اليومي : ساعة للتفكير

استقبلنا الإقتراح بترحاب صاخب . ضحك بعضنا إعجاباً بالفكرة أخذ بعضنا يخطط للتنفيذ . بدأنا ساعة التفكير بعد الاقتراح مباشرة . جلسنا صامتين . كل منا هام في ملكوت الفكر . ما منا إلاّ وله مقام في الفكر معلوم . ومع ذلك لم نكن ، فيما أذكر ، نهيم في خصوصيات الفتوة ومزالق المراهقة . . . الخطوة الثانية كانت ما يشغلنا في المدينة من قضايا يعرضها المعلّم الأول على أنظارنا ، يشغلنا بها بقدر ما يشغل نفسه ، الخطوة الثالثة كانت ما

يشغلنا من معلومات وأفكار وآراء تحفل بها الكتب التي بين أيدينا

جربنا ساعة للتفكير في بقية أيام النزهة التي أتيحت لنا ـ وكانت أسبوعاً ليس غير ـ كنا نحقق ذاتنا في « ساعة للتفكير » نقنع أنفسنا بأننا سنكون مفكرين لو صرفنا ساعة في كل يوم من حياتنا في التفكير بعيداً عن مشاغل الحياة والدرس والعمل

وضعنا ـ فيما أحسب ـ ، ونحن فتية ، مخططاً للحياة التي تستغرق الإنسان عاملاً أو قارئاً أو كاتباً أو مناضلاً . للفكر حظه من حياتي وحياتك ساعة له كفيلة بأن تمده بالزاد وتريحه من متاعبه ومتاعب الآخرين

أقرأ . . أكتب . . أنا الآن وأنا أكتب هذه الصفحات ـ في حاجة إلى شيء خططنا له قبل عقود : ساعة للتفكير

21

لم يكن المؤتمر الذي عقد في الرباط مما يمكن أن تذروه رياح النسيان . فقد رفع شعار التحدي أكثر مما رفع شعار المطالب

كانت التحدي ورد التحديد

كل من طرفي التحدي حقق هدفه في اجتماع آخر بالدار البيضاء ، الكتلة دعت للاجتماع وجنّدت الطبقات الشعبية في أكبر مدينة بالمغرب بدأت تتكون فيها طبقة عاملة وتعتبر مظهراً للنفوذ الإقتصادي ولتكتّل الرأسمالية الفرنسية . الإقامة العامة حققت هدفها فاستعرضت عضلاتها في وجه المجتمعين : منعت الاجتماع بالقوة ، اعتقتل القادة الذين كانوا يؤطرون الاجتماع وسيخطبون في الجماهير التي احتشدت للاستماع إليهم

وكان من المقرر أن يعقب هذا الاجتماع اجتماعات أخرى في مختلف المدن المغربية

كان لخبر الاعتقال وقع أليم مهول . كان منتظراً ، لم يفاجأ أحداً من المناضلين . لم يتردد أحد في أن ينفذ ما يطلب منه

اكتست المدينة طابعاً حزيناً تجلّى على وجه كل إنسان ينبض ضميره بحس وطني . مرت سنوات لم تعرف فيها الحركة الوطنية قمعاً من حجم اعتقال ثلاثة من الزعماء ، اتجهت أنظار المواطنين لهم بالتقدير واتجهت أنظار الإدارة لهم بالعداء

كانت خليتنا في مقدّمة الخلايا التي اطلعت على الخبر . لم تكن في حاجة إلى اجتماع . الأخبار السرية ـ والخطيرة ـ تلقن من فم لأذن . الاجتماع قد يكون بين بعض أفراد الخلية . التعليمات تصدر من القيادة ليطلع عليها كل

المناضلين في لحظات

كنا ثلاثة من أفراد الخلية ندرس مضاعفات الخبر ونتساءل عن الخطوة التالية من التحدي الوطني

ـ قررت الكتلة القيام بتظاهرات احتجاجية تبدأ من المسجد لتنتهي إلى المسجد بعد أن تطوف الشوارع الرئيسية في المدينة يخطب فيها الخطباء يوجهون الدعوة إلى الشعب بالإضراب والاحتجاج

كان القرار صارماً ، وكان على خليتنا أن تستجيب . فما بُلِّغنا القرار لنتردد أو نتراجع

قال أحدنا ، وكان أكبر سناً

ـ أصدقكم القول . لا أستطيع أن أعرّض نفسي للسجن . لي زوجة وطفل . لا أطمئن إلى أنهما سيجدان من يعولهما

السجن ؟ كلمة جديدة لم تكن تخطر في فكري وربما في فكر زملائي الآخرين الذين لم يبلغوا تجربة أكبرنا الذي يعول زوجة وطفلاً . لم نفكّر في السجن ، ولو أننا فكّرنا في المظاهرة كتجربة جديدة نخرج بها من تجربة الخلية والمدرسة والتكوين السياسي واجترار الأفكار . ما تزال مظاهرات الظهير البربري تتراءى لي من بيعد . . . بعيد ، كما لو كانت قد حدثت قبل نصف قرن أو يزيد . الزمن بطئ بطئ في الطفولة سريع سريع في الرجولة ، نعيشه بالطول والعرض ، ندب فيه بقدر ما يدب فينا ، نستمتع بكل لحظاته وطيباته وجزيئاته ملاحظين مستمعين ، يعيش فينا ـ ونحن رجال ـ بكل عربدته وتفاهاته ونقمته وانتقامه ، كما لو كان بيننا وبينه تره

نعده ، ونحن أطفال بالدقائق والثواني . يمر بنا ـ ونحن رجال ـ بعشرياته . يكون حاضراً بين أيدينا ، يصبح حريصاً أشد الحرص على أن يصبح تاريخاً يفلت من الفعل إلى الذاكرة حتى تنسى

أذكر مظاهرات الظهير البربري بعيداً عن معاناتها ومسؤولياتها . كانت تكفيني منها الصلاة في المسجد ، حتى إذا تحولت الصلاة إلى مظاهر صاخبة

في الشوارع وقفت من بعيد فاغراً فمي كما يفعل الأطفال حينما تبهرهم بطولات الكبار

أذكر مظاهرة الإحتفال بمحمد الخامس عند زيارته التاريخية . لا حظته عن قرب يركب فرسه ، يعدو حثيثاً وكأنما يقود المظاهرة التي تحوّلت بعد ذلك إلى عداء سافر للراية المثلثة الألوان

تعود بي الذاكرة إلى هذا النوع من المظاهرات وإلى حصادها الذي لم يكن إلاّ سجناً ونفياً وتعذيباً

السجن . . . ؟ ما أظن أن وقع الكلمة كان مريعاً في نفسي . لا أتهيّب المخاطر . لا أقيم للخطر كبير وزن . شجاعة ؟ جرأة ؟ سذاجة ؟ واقعية ؟ تحمل . . . ؟ قد يكون كل ذلك أوبعضه . جرّبت ، وما أزال أن أستهين بخطر قد لا يبلغ درجة فقدان الحياة . لم أندم على شيء قمت به فقدت فيه حريتي أو عملي أو مالي . أو من بأني قادر على أن أستعيد ما فقدت لأن شيئاً من ذلك لم يوهب لي ، وأنا قادر على أن أحققه مرة أخرى ، ولو كنت السبب في فقدانه

السجن ؟ كان من الممكن أن ترعبني الكلمة . من المؤكد أنها ستكون بالنسبة لعائلتي التي أعتقد أن أحداً من أفرادها لم يعرف السجن منذ عرفت العائلة الحياة

ماذا سيكون موقف العائلة ؟موقف والدي ؟ والدتي ؟

لم أستسلم للتفكير في كل ذلك ، ولو أني أعرف أن ضمير والدي سيكون مرتاحاً . سيكون فخوراً في أعماقه . لأني كنت أعرف عمق وطنيته ، ولو أنه لم يكن يبوح . أعرف أنه كان يعدني لأكون تلميذاً وفياً للأساتذة الذين كان يجلّهم ، ويحثّني على ملازمتهم ويسعد وهو يراني أتردد على حلقات دروسهم . ولو سئل

ـ كيف ترجو أن يكون ابنك ؟

لما تردد في القول

ـ كعلال الفاسي

ومع ذلك سيخضع لمعاناة شديدة يتحمّلها بصبر . « المخزن » يعرفه هادئاً مسالماً ، وقد يأخذ عليه أنه فرط في إبنه فتركه تحت تأثير مهيجي الرأي العام مهددي الأمن . . . بعض « الأصدقاء » الذين لم يتحكّموا في توجيه أبنائهم سيلحّون عليه بإشفاق لائم لأنه ترك ابنه لعبة في يد الذين وصلوا به إلى السجن . سيعرف ـ ذلك تقديري ـ كيف يخرج بالصمت عن : لا ، ونعم

في الساعات القليلة التي كانت تفصلنا عن المظاهرة حاولت أن أتجنّب لقاءه على مائدة غداء أو عشاء تحسّباً لسؤال يفضي إلى جواب ، قد ينم عن شيء ما يدبر لمواجهة التحدي بتحد أكبر . هكذا تخلّصت من شيء ما قد يمنعني من أداء واجبي

كنا ثلة من أفراد الخلية على موعد لنتذاكر دروسنا على نحو ما نفعل في كثير من الأصباح . تركنا الكتب جانباً . فتحنا كتاب الأوضاع السياسية المتأزمة ندرسه ، نحاول أن نغوص في أعماق أسراره . كان الواقع المعيش يطغى على البحث والتفكير في الماضي ، المستقبل . كانت المدينة على موعد مع المظاهرة في غدنا ذاك . لم يكن مضمون المظاهرة يخفى على كل منا . لم يكن مصير المتظاهرين (السجن) يغيب عن توقعنا . بعضنا كان قد شارك في مظاهرة مقاطعة البضائع الأجنبية وعرف السجن . كل منا يذكر المظاهرات السابقة ونتائجها . كان قرارنا بالإجماع

ـ المشاركة

لم يتخلّف إلاّ واحد منا في صباح المظاهرة . انتظرناه حتى يئسنا . لم يكن لنا أن نقبل له عذراً ، غير أنه كان ممن مروا بالتجربة السابقة على حداثة سنه . وقد ترك السجن في نفسه أثراً لا يمحى . ولم يكن ـ ونحن نجمع الكلمة ـ يدبر أمر الغياب . ولكن ـ لعله ـ استعاد تجربة السجن ، وهو يخلد إلى نفسه ، فاقتنع « بما قضاه في السجن كفاية »

تجمّعت المظاهرة في جامع القرويين . . كان على المؤطرين أن يخطبوا في

الجماهير داخل المسجد ـ وتلك جريمة يعاقب عليها القانون ـ ثم تخرج المظاهرة تجوب الشوارع الرئيسة ـ وتلك جريمة يعاقب عليها القانون لتنتهي إلى جامع الرصيف بعد أن تتوقف في كل ساحة أو ملتقى ليخطب آخرون . واحد من خليتنا ـ أحمد بن المليح ـ انطلق من بين صفوفنا ـ وقد انفعل ـ ليخطب في ساحة النجارين مع من خطب من بقية المؤطرين والقادة . كنت أتمنى لو كنت فيها جذعة . كان ألسن مني وأكثر جرأة . ما يزال الخجل يثنيني عن ارتياد المظاهر الجريئة ، ولو أنه لم يكن يثنيني عن اتخاذ المواقف الشجاعة

انتهت المظاهرة إلى جامع الرصيف

الفكرة التي كانت توحى للوطنيين باتخاذ المسجد مكاناً للتجمّع هي التي أوحت لسلطات الأمن بأن تتخذ من المسجد قفصاً لاصطياد المتجمعين والمتظاهرين والنيل منهم . لم يكد الخطباء يبدأون في خطبهم داخل ا لمسجد حتى أقفلت الأبواب وأشرع « حماة الأمن » عصيهم وهراواتهم في وجوه المتجمعين العزل . كانوا يضربون كيفما اتفق . اصطدم بهم المتظاهرون بالأيدي . كثير من المتظاهرين استطاعوا أن ينزعوا من « حماة الأمن » سلاحهم وأن يعيدوا كيدهم في نحورهم . رأيت شاباً أعرج يمشي على قدم واحدة ، الثانية عصا تسنده من تحت ابطه ، استخدمها سلاحاً قوياً صدت كثيراً من «حماة الأمن » عنه وعن بعض زملائه . بدا كأسد في معركة . عيناه ـ في وجه الشاب النحيل ـ جحظتا وهو يقفز على قدم واحد ويضرب بالثانية . غاب عن ناظري بعد أن انتهت المعركة ، فلعله اختفى ، وقد فتحت إحدى بوابات المسجد لتدخل منها فرقة أخرى تنجد « حماة الأمن » من المتظاهرين العزل

أحاطوا بالمتظاهرين ، وقد أقفلوا الأبواب حتى لا يفلت أحد منهم باب واحدة أخرج منها « الأسرى » واحداً إثر الآخر لنجده واقفاً على بغلته الشهباء يحيط به حرسه وجمع من الذين خاضوا المعركة ضد الوطنيين يحقق مع كل من المعتقلين ويأمر بإرساله إلى السجن (سجن دار بوعلي) ،كان خليفة الباشا بوجهه القاسي ولحيته البيضاء وصرامة نظراته ، يتيه عجباً بانتصاره في معركة لم يخضها كان هراً يحكي صولة أسد

لم يفلت منه إلاّ قليل ، أخذ أحدهم ، وكان قاسياً عنيفاً ، بتلابيبي ، ضيّق على عنقي فتحة جلبابي حتى كاد يخنقني ، يدفع بي إلى أمام في عنف ، وكلمات السباب تنطلق من فمه في سفاهة . أكاد أقع على وجهي كلما دفعت بي يداه القويتان ، لولا أن قبضته على عنقي تردني إلى وراء لأندفع ـ بقوة الدفع ـ في طريقي إلى السجن

كان أمامي عشرات ، خلف عشرات ، القافلة طويلة المسيرة مجهدة في عقبات فاس ومنحدراتها جموع المتفرجين وقفوا يتطلعون إلى وجوهنا ، وقد أرهقنا التعب في يوم صيام (الأول من رمضان) تلتقي عيونهم الحزينة المتألمة الدامعة بعيوننا المتورمة الجاحظة . شيخ في السبعين أعرفه من الوطنيين ينطق وجهه بالألم ترتعش لحيته البيضاء من الغيظ ، يتطلّع إلى وجوه الأسرى كما تتطلع عيون أب إلى وجوه بنيه ، حسبته سينطق ، يستنكر ، يطلب الرفق في المعاملة . كانت عيناه تنطقان ، وجهه يعبّر ببلاغة ، صمته أكثر إفصاحاً علمت ، فيما بعد ، أنه كان مبعوث الحركة ليسخبر ويخبر عن أسماء الذين اعتقلوا والذين أفلتوا من الأسر

يعدنا على أصابعه : واحد . . . خمسين . . . مائة

حارس سجن دار بوعلي يجلس على دكته بجانب الباب وحق النشوق بجانبه ينتظر المغرب . لم يعرف سجنه الضيق حفلاً كهذا الذي يشهده في يوم بارد صائم . كانت عيناه محتفلتين بصيده الكبير ، فسيعرف إقبالاً من الآباء و« أولياء الأمور » يحملون طعاماً أو حلوى ومعها « التدويرة » للحارس حتى يكون رفيقاً بنزلاء سجنه . تهاطل الصيد حتى لا تكاد غرفة السجن الوحيدة تحتملهم واقفين . وقفنا وجهاً لوجه ، ظهراً لوجه ، متجنبين كما لو كنا في «حق سردين » . بعضنا يحكي في سخرية ما فعله بعون السلطة وقد رفع «هراوته » على رأسه . بعضنا يفكّر ، في صمت ، في المصير الذي لم يكن ـ لعله ـ ينتظر ، أحدنا بكى . قيل له : ولم تبكي . . . أجاب ـ خجلاً ـ : وجع في عنقي . . . بعضنا يفكّر في العائلة : الزوجة والأولاد والبنات ينتظرون . . ؟ قفة اليوم الأول من رمضان

ـ أمي . . . أبي تأخّر

وتكتم الزوجة مخاوفها وتوقعاتها وهي تجيب

ـ الله يجعله خير

بعضنا يفكّر : الأب . . . الأم . . . ماذا سيقولان وقد نادى المؤذن بآذان المغرب ولم يظهر لي أثر . . . ؟

كثير منا يتحدّثون بحماس

ـ السجن لم يخلق إلاّ للرجال

جميعنا يفكّر

صدرت الأحكام ؟ جفت الأقلام وطويت الصحف ؟ كيف سنقضي أيامنا ولياليا وقوفاً يساند أحدنا الآخر ؟

ساعة . . . ساعتان . . . ثلاث . . . صوت حارس السجن من وراء الباب يؤكد وجوده

ـ أسكتوا . . . أولاد

عم المدينة صمت القبور بعد آذان المغرب . منازل من منازلها عم الحزن سكانها : الآباء والأمهات والزوجات والأبناء . بعض العائلات عرفت المصير ، استسلمت للحزن والغضب والنقمة ضد الاستعمار . بعض العائلات لم تعرف ، استسلمت للقلق . بعض العائلات انتظرت « القفة » وصاحب القفة غائب . « حريرة » وخبز كان كل أكلها بعد يوم صيام

في هدأة المدينة وصمتها القبري ، في الظلام الدامس الذي عم غرفة السجن وقد أنهكنا التعب والجوع والعطش وجهل المصير ، تنصت بعضنا ، القريبون من الباب ، تسمعوا إلى أحاديث مبهمة ، والسجن لا يعرف على بابه غير بوّاب إن لم يجد من يكلّمه هتف بالسجناء يأمرهم بالصمت ويسب آباءهم وأمهاتهم . أصوات أخرى غير صوت السجان

ـ من يكونون ؟ قال أحدهم

ـ أعوان السلطة سيفرجون عنا . . . قال آخر

ضحك ثالث وهو يقول

ـ سيفرجون عنك إلى دار بوعلي حيث ينتظرك « أزفل »

كان خبيراً « بأزفل » دار بوعلي ، ولم يكن يظن أن أزفل مات مع ابن البغدادي

فرقع المفتاح في الباب . عم البشر الوجوه الكالحة ، والضارعة ، واليائسة ، والمتوقعة . . . أي مصير غير سجن دار بوعلي أحب إلينا مما تجرعناه في بضع ساعات من الاختناق والوقوف والإنتظار وألم المجروحين والمرهقين والجوع والعطش

ـ أسكتوا أولاد . . . صاح أحد « المقدّمين » وكلهم يقود مفرزة من رجاله .

ـ واحد . . . واحد

خرجنا في صف متراص . . . كل مجموعة تحرسها مفرزة من أعوان السلطة . . . عرفنا منها وجوهاً كانت تحمل عصيها وهراواتها . عرفت الذي كان يمسك بتلابيبي ، يخنقني ويسبني . كان رضي الأعصاب ، غير صرامة في وجهه الكالح وهو يحرس مجموعة من المعتقلين . أخذنا طريقنا صعداً

فكّر بعضنا : إلى أين ؟ لو كان الإفراج لفتحت البوابة وقيل : إذهبوا حيثما شئتم . فقد غفرنا لكم أولاد . . . وأنتم الطلقاء

قال أحدنا في نفسه : إلى دار الباشا (المحكمة) ؟ . . . دار الباشا لا تعمل بليل . . . إلى . . . ؟ ظل السؤال حائراً يلوكه فكر دون أن يجد جواباً

فكّر المجربون منا (الفكر يجتر ولا ينطق في حراسة الأعوان) : إلى السجن الكبير

صعداً ، صعداً حتى تكشّفت لنا بوابة « باب بوجلود » من بعيد المدينة هادئة خالية من روادها إلاّ جائع متسول يطرق باب هذه الدار وتلك يطلب « زلافة حريرة » . أقدامنا المتهاوية الفاشلة تخرق الصمت . صوت

المقدمين يعلو من حين لآخر

ـ احسبوا مساجنكم . . . آردوا البال مخافة أن يفر أحد من بين أيديكم .

تملّكني صداع شديد لم أعرف له مثيلاً كدت أتهاوى تعباً وجوعاً وألماً . . . تصبّرت ، تجلّدت ، تمالكت ، فكّرت

ـ ماذا يظن بي إذا انهزمت في أول يوم ؟

غَذَّ بنا السير أسر إليّ جاري في المسيرة في همس

ـ اقتربنا من « عين قادوس »

لم أكن ـ ولم يكن كثير منا يعرف ـ ماذا تعني « عين قادوس » بعضنا يعرف الحي ـ في ضواحي المدينة ـ بهذا الإسم . قليل منا من يعرف أن السجن الكبير ـ الجديد ـ يدعى : سجن عين قادوس . . . ربما كنا نحن الذين دشنوه تذكرت

ـ في مطالب الشعب المغربي فقرة تطالب بتحسين وضعية السجون

كان بعض المناضلين يبتسم وهو يقرأ هذه الفقرة ، ويعلّق ساخراً

ـ إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة

استمر تفكيري المتعب ، ونحن نقف ـ متضامّين ـ عند البوابة الضخمة ننتظر فتح الباب

فتحت الباب الصغيرة كجزء من البوابة الكبيرة . إثنان من الحرّاس بقبعتيهما ، شبه عسكرية ، بوجههما الشاب الأشقر الجميل السمح ، فعينيهما الزرقاوين يعدان : آن . . . دو . . . طروا . . . صان . . . وجدنا أنفسنا في ساحة واسعة مضاءة . الطقس بارد سماء فاس العارية من سحبها ترسل صقيعها القارس في عز الشتاء ولا مطر

ـ اجلسوا

لغة الخطاب أصبحت هي الفرنسية . الذين يفهمون يترجمون للذين لا

يفهمون . . . أضاف الصوت الأجش

ـ لا يتحركن أحدكم بغير أمر ـ أنتم الآن في السجن . فهمتم . . .؟

لو لم يكن التعب أخذ منا مأخذه لأجابه صوت ساخر

ـ وهل نتحرّك إذا أمرنا . . . ؟

واستأنف العد من جديد ، مرة أخرى . . . المقدّمون ينتظرون على الباب ليأخذوا توصيلاً بالبضاعة

استمرت المحادثات والمفاوضات . ربما بين المدير والرئيس

الحراس ، زرق العيون ، بقبعاتهم وبذلاتهم الرسمية يحيطون بنا يخافون من الهرب أو من حركة ثورية داخل السجن في أول ليلة به . . . ؟ المهنة تفرض ذلك

أخيراً صدرت الأوامر . . . إلى العنابر حتى الصباح

مرة أخرى يعدوننا كما يعدون الخراف كل منا يسلّم « كاشتين » إحداهما وطاء والأخرى غطاء ، رائحة نتنة تفوح منهما تزكم الأنف . كان العنبر وبلاطه العاري الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين . . . استطاع كل منا أن يوسّد بلغته ويمد جسمه . لم نفكّر في الأزدحام أو في التهوية أو في صلابة الأرض وتفاهة الوطاء والغطاء . لم نشعر بالجوع ولا بالعطش ـ وفي زاوية من العنبر صنبور ماء وثقب لقضاء الحاجة البشرية ، لم نشعر باللسع ، وقد بدا قارساً من أول ليلة . أطفئت الأنوار وراح كل منا في نوم عميق إلاّ صوت ساخر عَزَّ عليه أن ينام قبل أن يفرقع بضحكة عارمة وهو يتحدّث إلى جاره

ـ أيوا قـ . . . صر هذا . . . ؟ قل : يحي الوطن

لم يستجب أحد لسخريته غير صوت الحارس خلف الباب

ـ سيلانس . سكت قليلاً ثم بدأ يشخر بصوت رددته جنبات العنبر

صباح السجن يبدأ مع العمل الإداري . فرقع المفتاح في الباب ، وصوت قوي جديد يزأر

ـ لا بيل

كلمة جديدة كانت الدرس الأول في لغة السجن

وقف عند الباب يحيط به حارس مغربي وقيدوم المعتقلين مجرماً كان . . . ؟ طبعاً . . . عيناه تتطلعان بفضول إلى وجوه « الدجاج الأبيض » عيونهم جميعاً كعين صقور تتفرّس في وجوهنا كما لو كنا مجموعة حمائم بيض . هتف الحارس المغربي : قيام . . . وقفنا صامتين إلاّ الشاب الساخر فقد رفع يده بتحية عسكرية وهو يسر لجاره : واش حنا في القشلا . . . ؟ أخذ «الكاورى » ـ وهذا هو الإسم الذي يطلقه معتقلو الحق العام على الحارس الأجنبي ـ يعدنا من جديد ، لعله ليتأكد أن أحدنا لم تنشق له الأرض ولم يخترق السماء . أصبعه وفمه وعيناه تتحرّك بسرعة حتى إذا انتهى من العد أعاد الكرة للتثبت توقفت عيناه عند الشاب الساخر ، فقد ابتسم في وجهه وغمز بعينه . فتلقى نظرة شزراء لم يشك في أنها وعيد

لم يمر قليل حتى أخرجنا دفعات من خمسة أفراد إلى مكتب التسجيل :

ـ اسمك آش يكون . . . ؟ بوك آسمو . . . ؟ مك آسمها . . . ؟ وتستمر الأسئلة لتنتهي بمنحك خشبة يطلب إليك المسجّل أن تعلّقها بخيط قنّب على رقبتك . وعليها رقم ستصبح هو أنت ، وأنت هو . ضاع اسمك واسم أبيك وأمك وعائلتك في السجلات . وأصبحت رقماً ، احفظه حتى إذا نودي الرقم كان هو أنت . كان رقمي ـ اسمي 18897

من قاعة التسجيل إلى قاعة التصوير وتوقيع البصمات العشر

قال أحدنا ، وكان على خبرة قليلة بالإجراءات القانونية

ـ لم كل هذا ولم نحاكم بعد . . . ؟

ـ هل تنتظر حكماً آخر غير ما نحن فيه . . . ؟ أوتظن أنك في باريس ؟

كانوا يعدوننا كلما انفتحت باب وأقفلت باب . بعضنا كان يزور زملاءه في العنبر المجاور ، وتقفل الباب عليهم وهم في غير عنبرهم فيختل الحساب في العنبرين وتقفل الباب ثم تفتح ليعاد العد ويعاد ، فهناك زيادة في أحد العنابر

ونقص في الآخر . وتلك مشكلة تقض مضجع الحراس . كل رقم ينقص أو يزيد يهدد رأس الحارس أو الحراس جميعاً . كان القصار منا يقفون خلف الطوال ويخفون رؤوسهم فيثيرون الشكوك في نفوس الحرّاس وهم يعدون ليعيدوا الكرة ثم يعيدون . كان الشاب الساخر يجلس خلف الواقفين فتقفل الباب ثم تفتح بحثاً عن رقم ضائع

وكان اليوم الثالث من أيام السجن يوم المحاكمة

22

اقترابه من القصر زاد في ضخامة جسمه . وجه مستدير أشقر تحيط به لحية كثة شقراء ، كأنها ـ ومن يدري ـ خضّبت بحناء ، مرصوصة بذق ، لا شك أن الحلاق زينها بيد صناع . تعلو رأسه الضخمة عمامة ملفوفة على قلنسوة « شاشية » حمراء . جلباب بيضاء حريرية خفيفة في يوم مشمس من أيام الشتاء ، عليها سلهام يحيط جناح منه بعنقه القصيرة . نزل من السيارة يسير الهوينى ، لا يخفى تبختره عرجه الخفيف . نظر إلينا نظرة سريعة شزراء بكبرياء مصطنعة . كثير من الأعوان ينتظرون مصطفين على باب مكتبه يلبسون سلاهيمهم بقلنسواتهم الحمراء الطويلة . يحيط بنا أعوان السلطة يميناً ويساراً في الساحة المكشوفة تحت شمس دافئة . يقف هنا وهناك مجموعات من المتفرّجين . ربما من أصحاب القضايا الذين يتقاضون من أجل أجرة كراء أو إخلاف دين أو كلمة سوء صدرت من أحدهما للآخر . . . بين هؤلاء وأولئك لاحظت وجهاً أعرفه ، شريك والدي في متجره بوجهه المكفهر ولحيته المختلطة وطوله الفارع . لعله قدم إلى المحكمة صباح يوم المحاكمة لينقل لوالدي الخبر ، يرجوه خبر الخير ، ولعل وراءه جملة من « أخبار المدينة » وكلها إشاعات تعتمد الإغراب . لم يجل في خاطره أن يرى ابنَ شريكه ـ الذي لا ترتفع عين في وجهه احتراماً وتقديراً لمكانته الاجتماعية ـ قادماً من سجن إلى محكمة عائداً من محكمة إلى سجن . لعله ـ وبعض الظن إثم ـ كان يعتبر فعلة ابن شريكه وصمة عار في جبينه هو . . . كيف سينظر إليه الناس وهو شريك أب لسجين . . .؟ .

دخل الباشا إلى مكتبه وأصوات « المخزنية » ترتفع بالهتاف المنغم : «الله

يبارك في عمر سيدي » . منحنين في شبه ركوع تحية للباشا . كان قد خلف الباشا « ابن البغدادي » قبل ثلاث سنوات . لم يكن ينعم بالخوف الذي كان سلفه يزرعه في قلوب سكان المدينة بأحكامه الإرهابية ، وعقابه القاسي وهو يجلد من يظنهم مسيئين بسياطه الجلدية . حاول الباشا أن يكون باشا عصرياً يتكلّم قليلاً من الفرنسية ، ويعرف القراءة والكتابة ، وهي ميزة لم يكن يتمتع بها سلفه ، فهو من عائلة أرستقراطية عمل آباؤه وأعمامه وأخوانه في « الإدارة» والحكومة

دخل إلى مكتب الباشا المندوب المخزني . ربعه متوسط العمر نحيف في ملابسه الفرنجية الأنيقة ، أصلع الرأس ، على أرنبته نظارة سميكة ، يتأبط ملفاً ، يخطو خطواته الواسعة الثابتة السريعة . يحاول أن يؤكد السلطة الحقيقية في المحكمة . خفض المخزنية رؤوسهم احتراماً لرجل السلطة والحكم . لم يهتفوا هتافهم التقليدي : الله يبارك في عمر سيدي . هتاف يختصون به الباشا إذا حضر

لحظات وخرج الباشا من مكتبه يصحبه المندوب المخزني . وقفا على عتبة المكتب يحيط بهما الأعوان . تتطلع أعناق المتفرجين وأرباب القضايا إلى رجلي السلطية

ـ أيهما كان أكثر بهاء . . . ؟

يجيب المتفرجون

ـ الباشا بدون شك

ـ أيهما الحاكم والقاضي والمنفّذ ووكيل النيابة . . . ؟

سؤال أجابت عنه معاهدة الحماية . وتستمر اللعبة المضحكة : المندوب المخزني يحكم ، والباشا ينطق بالحكم .

نظرات شزراء تلقيناها من الحاكمين الواقفين على عتبة « دار القضاء » ، فيها الاحتقار والشماتة والعداء . فيها من الكبرياء وانتفاخ القط حينما يحكي صولة لأسد . زأر الباشا بكلمات لم نقم لها وزناً ونحن نخفض رؤوسنا ، اتقاء

لأشعة الشمس ، لا احتراماً للأسد الذي يزأر في وجوهنا . لعلها كانت كلمات سباب :الباشا يشتم ليؤكد سلطته

ـ سترون . . . سنريكم وسنجعلكم تتوبون أو تخلدون في السجون

تلك آخر كلمات الباشا وهما يعودان إلى المكتب

وبدأ النداء على الأسماء ـ القائمة تضمنها ملف المندوب المخزني ـ هكذا أدرك أول مُحَاكَم . الحكم مكتوب إزاء إسم كل متهم . دقيقة ويصدر الحكم دون تحقيق ولا بحث ولا اتهام ولا دفاع . بدأت الدفعة الأولى من « أرباب السوابق » وخطباء المظاهرات

ـ أنت فلان

ـ نعم

ـ خطبت في « الفتنة »

ـ نعم

ـ سنتان سجناً

ويخرج به العون قبضته على رقبته ليدفع به إلى حيث نجلس منتظرين دورنا

ـ ماذا حدث . .؟

هكذا كنا نسأل متطلّعين . يجيب المحكوم باسماً معتزاً مفتخراً وهو يشير بأصبعيه

ـ سنتان

كل الخطباء حكم عليهم بسنتين

ـ جاء دور أحد الخطباء : قال الباشا هو يصهل في وجهه

ـ اسمك . . ؟

ـ العربي بنانى

ـ خطبت . . . ؟

وحرّك العربي كفه ضاماً أصابعه الخمسة وهو يجيب في صوت هامس

ـ شي خطبة صغيرة وكان

وصهل الباشا في وجهه

ـ ستة أشهر

خرج العربي من قاعة العدالة يكاد ينفجر ضاحكاً

ـ ستة أشهر

تعالى استغرابنا : كيف . . . ؟

ـ سأحكي لكم

وكانت حكايته بعد أن عدنا إلى مثوانا في السجن مثار تندُّر . . . ما زلنا نحكيها معه عنه حتى بعد أن انتقل إلى جوار ربه . قصة فريدة من قصص العدالة

استمرت المحاكمة دون النداء بالأسماء بعد أن انتهت محاكمة الخطباء وأرباب « السوابق » . كنا ندخل مجموعة مجموعة من خمسة عشر أو عشرين شخصاً . لا نسأل عن أسمائنا وجريمتنا ، ولكنا فقط نسمع كلاماً أقرب إلى السباب منه إلى التحقيق ، ثم الحكم يصهل به الباشا في وجه المجموعة عام . . . ستة أشهر . . . ثلاثة أشهر . . . حظ . . . ؟ كل مجموعة لها حظ كحظ الصياد . قد يكون سنة وقد يكون ثلاثة أشهر . وذلك أضعف الإيمان

كان حظي جيداً أو سيئاً لا أدري ، فقد خرجت من دار العدالة وفي عنقي ثلاثة أشهر . لم أستطع أن أجهر بالحكم أمام زملائي ، مفتخراً ، كما فعلوا ، كنت خجلاً من الذين خرجوا وفي عنقهم سنتان

ـ عملي في المظاهرة كان أقل من عملهم ؟

تساءلت وأنا أكاد أشرق بالدمع . الحكم كان تافهاً بالنسبة للاخرين أحد أصدقائي شعر بما انتباني من غبن فواساني بكلمة طيبة ، ذابت الكلمة الطيبة وإدارة السجن تقوم بميز عرقي أو شبه عرقي . فقد عزلت المحكومين

بسنتين عنا نحن المحكومين بالأشهر

ـ ما من شك في أن مقامهم كان عظيماً لدى إدارة السجن ؟ ما من شك في أنهم أخطر على الأمن منا نحن الذين استصغر الباشا شأنهم فاكتفى بأن جازاهم بالسجن ثلاثة أشهر ؟

تساءلت وأنا أدخل عنبر مجموعة الشهور الستة والثلاثة

كان أحد المناضلين قد شقي بالعمل قبل يوم المظاهرة ، لعله وجد السجن مكاناً للراحة : الجسدية ؟ النفسية ؟ الضميرية ؟ تمدد على ظهره في المكان الذي سيأويه سنتين مبتسماً ضاحكاً وهو يقول

ـ الله . . . الآن حلّت الراحة

ما أشك في أن كثيرين كانوا يعجبون من هذه الراحة التي حلّت به في سجنه . ذلك شعوره . وما يناقش أحد في شعوره الوطني

كان يوم المحاكمة أحفل يوم في حياة الباشا . لم يسبق له من قبل أن «حكم » بمجموع هذه السنوات في أقل من ساعة . سيحتفظ بذكراه كيوم حافل في تاريخ حكمه للمدينة وسكانها . ما أظن أن التاريخ يهمه . الحاضر أصل التاريخ . المستقبل ابن الحاضر . سيرفع « المندوب المخزني » تقريراً إلى الإقامة العامة عن حزم الباشا وشجاعته وهو يصدر الأحكام ، ستكون الإقامة عنه راضية مرضية ، ستعتمد عليه في الحفاظ على الأمن العام كلما حلا لهؤلاء المشوشين أن يهددوا الأمن العام

لو عاد إلى واقعه لتذكّر الملف الذي حمله معه المندوب المخزني قبل أن يلتحق بمقر عمله بجانب الباشا

لم يتحقق حلم الباشا ولا قرارات الإقامة العامة وأحكامها . قبل يوم من المظاهرة كان عمر بن عبد الجليل على موعد مع الباخرة التي تربط بين فرنسا والمغرب . وحلّ بفرنسا يوم المظاهرة . كانت له اتصالات مع بعض النواب وكبار الموظفين التقدميين في وزارة الخارجية ، والحكم يومئذ للجبهة الشعبية . أقنعهم ، أو اقتنعوا ، بالتقرير لذي قدّمه عن التصرّف المخطئ للإقامة

فأحدثت ضجة ما كان لها أن تحدثها لتحمل مسؤوليتها لحكومة يسارية . وتلقى المقيم العام الجنرال نوجيس ـ وكان جديداً في منصبه ـ أمراً بأن يحل المشكلة ويفرج عن المعتقلين

ما كان لجنرال فرنسا أن ينهزم إذا لبس لامته . ولكنه كان ذكياً يعرف كيف يخفض هامته للعاصفة إلى أن يصفو الجو فينتصب للمعركة . أصدر أمراً بالإفراج عن المعتقلين بعد خمس وعشرين يوماً (ليلة القدر) عدنا إلى عائلاتنا لنحتفل معها بليلة القدر والعيد . وكانت قرارات الإقامة العامة وأحكام الباشا أضغاث أحلام

أصرها المقيم العام في نفسه ، بعد أن أيقن أن مركزه في منصبه ـ والحرب الأهلية في إسبانيا مستَعرَّة ـ أقوى وأضمن على البقاء من منصب حكومة الجبهة الشعبية في بلاد تستقيل فيها الحكومات ، أحياناً قبل أن تؤلّف .

23

السجن كان سنة الرشد . حتى والدي بدأ يستشيرني في كثير من قضايا تجارته وقضايا العائلة ، ويعهد إلي ، في ثقة ، ببعض الأعمال التي كان عليه أن يقوم بها

ما أشك في أنني ازددت احتراماً بين بعض أفراد العائلة ، القريب منهم والبعيد . سأل والدي شيخ « وطني » ، من أصهار العائلة لم يكن يعرفني عيناً ، سأل والدي وقد زرنا العائلة في يوم عيد : من منا ـ أخي وأنا ـ كان في السجن . أشار والدي إليّ مبتهجاً بسؤال الشيخ ، فباركني الرجل وهو يبش في وجهي بكلمات طيبة

شعرت بقفزة نوعية في تكويني وأنا أتحرر بالسجن من كثير مما كان يقيّد حريتي ويعقلني بالخجل عن التمرّد عما كنت أنكره ولا آتيه إلاّ مكرهاً . بدأت أقول : لا ، لن أفعل . . . نعم ، سأفعل . . . دون أن أخشى عقاباً أو أقيم أي وزن للوم أو عتاب أو تغزير أو وشاية . كثيرون قبلي خرجوا من السجن وهم يرتدون حلة جديدة من الكبرياء والعظمة الزائفة . كان من مظاهر ذلك وضع عمامة على الرأس بدلاً من الطربوش ، وارتداء جلابة من الصوف ، وإسدال لحية خفيفة مقصوصة . لم أشعر بالحاجة إلى ذلك ، وقد كنا ، جماعة من الفتيان ، نسخر منهم ويسلقهم أكثرنا سخرية بألسنة حداد

وشعرت بعد السجن بقفزة نوعية في مسيرتي الدراسية ، وفيما أقرأ من كتب وصحف ومجلات . دخل عنصر الكتب والمقالات السياسية في مختاراتي . بدأت أحاول الكتابة في القضايا السياسية كان من أولى المقالات السياسية التب كتبتها فظفرت بالنشر مقال بعنوان : ربع قرن على فرض

الحماية . احتفت به جريدة « المغرب » التي كانت قد صدرت بعد الإذن ببعض الصحف فنشرته في صدر صفحتها الأولى . وقد كان إعجابي عظيماً وشيخ معمم (عالم ـ عدل) يقرأه ـ وكان ضيفاً على والدي وأنا أرمقه من بعيد ـ فلما وصل إلى توقيعي في آخر المقال صاح إعجاباً ، والتفت إليه بكلمات تكريم

تعرّفت على شخصيات من الوطنيين من هم أكبر مني وبعضهم في سن والدي . كان بعضهم من الحرفيين أو التجار . لم أجد ـ بعد السجن ـ غضاضة في أن أتخذ منهم أصدقاء ، وأن أتحدّث إليهم في القضايا الوطنية في الشارع ، ولم يكن من عادة المجتمع أن يتحدّث الصغار إلى الكبار . أخذت أخاطب أساتذتي كند لهم دون أن يدركني الخجل الذي كان يعقد لساني . حديث المائدة في المنزل كان يقتصر على الوالد والعم ، ونحن صغار السن نستمع ولا ننبس . أخذت أشارك في الحديث دون أن أترقّب : أسكت . . . أنت لا تفهم .

اعتبرت من الحرية التي أدركتها بعد السجن أن ألتحق رسمياً بالكتلة دون أن أستشير أحداً . ولو استشرت لما منعني أحد من ذلك . بل أعتقد أن والدي كان قد ابتهج في سره ، وقد عرف أني انخرطت في عمل لم يكن يرضى لي بغيره . فقد ذهب عنه الروع والخوف عليّ إلى غير رجعة

ولكن فرحة الشعب بإعلان الكتلة وفتح مركزها لم تطل . فقد هال الإقبال الكبير على الإنخراط في الحزب السياسي ـ أول حزب علني في المغرب ـ والقسم على الإخلاص له ـ هال المقيم العام الذي خفض رأسه للعاصفة وآن له أن يرفعها . تلك كانت المناسبة التي ينتظرها لكبح جماح الذين خيّل إليهم أنهم انتصروا عليه أمام حكومة باريس . فلم تكد تمر بضعة أسابيع حتى أمر بإقفال المركز العام ومنع الحزب بدعوى أنه غير مأذون له . وأن يخرج عن مألوف العادة في الطاعة للمخزن .

كان تصرّف المقيم العام صدمة للحركة الوطنية لم يقصد منه فقط منع الحزب ،ولكن كان يقصد أن يصطدم مرة أخرى مع الحركة الوطنية فينفذ فيها

ما لم يكن في استطاعته أن يفعل قبل أسابيع معدود وهو يحتج هذه المرة لدى حكومته بأن الوطنيين تمردوا ضد القانون . وتعلّمت الكتلة أن تحني رأسها للعاصفة . فانتقل الحاج عمر وبلا فريج مرة أخرى إلى باريس ليفك الحصار الذي حاول المقيم أن يضربه على الكتلة

وعادت الكتلة لتفتح مركزها في مكان غير ذاك ، وتعلن عن الكتلة باسم « الحزب الوطني » ، وتصدر جريدتها « الأطلس » بالعربية و « العمل الشعبي » بالفرنسية لساني « الحزب الوطني » لا « كتلة العمل الوطني »

●●●

حدثان مهمان كان لهما أثر في إفاضة الكأس

أولهما : كان أخطر من حدث . وقد تبنته الحركة الوطنية بشجاعة نادرة . بدأ بحديث بسيط جرى بيني وبين صديقي وزميلي في الدراسة محمد بن عبود . وفد على فاس من تطوان طالباً بالقرويين في سن أكثر تقدّماً من زملائه . مكنته سنه من تجارب متعددة فتمرس على الجرأة والإقدام والعمل المتميز . بدأ حديثنا معاً عن الحرب الأهلية في إسبانيا ، وكانت قد بدأت من شمال المغرب ، وأخذت فصائلها تهاجم الأراضي الإسبانية وتنتصر في مواقع كثيرة . حكومة مدريد اليسارية كانت غير قادرة على حماية شمال المغرب الذي كان تحت سلطتها ، وأخذت تخشى ، وهي تستعيد حرب الريف ، أن يفلت شمال المغرب من سلطتها ، ولكنها تخشى أكثر من ذلك أن يتكاثر انضمام المقاتلين المغاربة المجنّدين في صفوف قوات فرانكو ، فيكون لشجاعتهم ، والإسبان يعرفونهم جيداً ، أثر في انتصار الثورة الفرانكوية .

في هذا الجو بدت لمحمد بن عبود ـ وقد توطدت علاقتي الدراسية به بعد أن وفد من تطوان ـ فكرة جريئة أفضى إليّ بها

ـ لماذا لا تتفق الحركة الوطنية مع حكومة مدريد على إحداث ثورة مضادة في شمال المغرب ، ضد ثورة فرانكو لتقضي عليها في المهد في مقابل استقلال الشمال إذا ما انهزم فرانكو ؟

أدركت في الحين أن الفكرة رائعة ، لكنها خطيرة أكبر من أن أفكّر فيها أو أمارس جانباً من العمل لإنتاجها . ولم تكن لأبن عبود كبير صلة بقادة الحركة الوطنية فحملت الرسالة لأبلغها إى القيادة . انتقلت سريعاً بالفكرة إلى علال الفاسي ، ولم يكن معي ، ولا مع ابن عبود ، مخطط لتنفيذ الفكرة ، ولا تدارسنا عواقبها وخطورتها . فهي ثورة مسلّحة في حاجة إلى تنظيم وتدبير وتجنيد وتسليح وقيادة عسكرية . استمع إلى علال الفاسي بكامل الوعي والإهتمام . ابتسم كعادته للأفكار الرائدة . لكنه لم يطل الحديث معي في الموضوع ، ربما لأن الفكرة أخطر من أن يدرسها معي ، ربما لأنه لم يتبيّن بعد مدى القدرة على الاستجابة لتنفيذها ، ربما لأنها خطيرة لا يصح أن تتداول بين الكثيرين

ذلك آخر عهدي بالفكرة . ولم أعد للحديث فيها مع علال ولا مع ابن عبود إلاّ ما أكدّته له من أني بلغت الرسالة . لم يسأل بعد عن مصيرها . ولعله لم يعرف

وتمر الأيام . وأعلم بعد ذلك أن الكتلة تدارست الموضوع ، وقررت المغامرة بالإتفاق سرياً مع حكومة مدريد على الثورة المضادة ضد فرانكو في شمال المغرب ، مركز قوته وإدارته العسكرية وزاده من المقاتلين في صفوفه ، بشرط الإعتراف باستقلال الشمال . وبعثت الكتلة بوفد مكوّن من عمر بن عبد الجليل ومحمد بن الحسن الوزاني إلى برشلونة لمقابلة أعضاء من الحكومة الإسبانية . فكّرت إسبانيا طويلاً في الموضوع الذي كان مغرياً بالنسبة لها ، ولكنها اشترطت الإتفاق مع الحكومة الفرنسية ، حكومة الجبهة الشعبية التي كانت تمد الحكومة الإسبانية بالعون العسكري والسياسي ضد ثورة فرانكو ، وكان يستمد العون هو الآخر من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية . كان يمثّل النجاح الفاشي في جنوب غرب أوروبا وشمال المغرب . وكانت نتيجة الإستشارة أن الحكومة الفرنسية حذّرت الحكومة الإسبانية من التعاون مع الوطنيين المغاربة ، ولو لصالح مستقبل إسبانيا ، تحسّباً لأن يكون استقلال الشمال سبيلاً لاستقلال الجنوب ، كما كان استعمار الجنوب سبيلاً لاستعمار

ورغم أن المبادرة الوطنية كان يمكن أن تحقق المصلحة الذاتية للحكومة الإسبانية ، ولو بضياع المغرب من سلطتها ، وقد أصبح بالفعل تحت نفوذ فرانكو ، إلاّ أنها لم تستطع أن تعصي أمر حكومة فرنسا ، وكانت أكبر عدتها في مقاومة الثورة العسكرية التي حكمت إسبانيا بعد ذلك زهاء أربعين عاماً . [1] وخسرت الحكومة اليسارية إسبانيا لأنها ركبت متن الإستشارة القاتلة . ومن يدري . علها كانت ستربح الحرب ، ويتغيّر وجه تاريخ أوروبا الغربية التي واجهت حرباً أكبر من أي حرب عرفها العالم

هذا الحدث ـ الذي ظلّ فكرة لم تر النور ـ لم يكن ليغرب عن فكر الجنرال نوكيس وهو يتعامل مع الوطنيين . فقد أدرك أبعادهم ، ليس فقط من خلال أفكارهم التحررية المقاومة للحماية ، ولكن كذلك من خلال تفكيرهم في تنظيم ثورة ضد ثورة عسكرية خطيرة في شمال المغرب ، كانت ، آنذاك ، تهدد حكومة الجمهورية اليسارية في إسبانيا

ثاني الحدثين : أن الحركة الوطنية بدأت تفلت من المدن لتتصل أسبابها بالبادية . وفي البادية بدأ الوطنيون يقاومون سرقة مياه الري النهري لصالح ضيعات المستعمرين الزراعيين

حدث ذلك في بني يازغة وفي بوفكران قريباً من مكناس . واصطدم الجيش بالمتظاهرين في المنطقة وفي مدينة مكناس نفسها . وبدأ الشهداء يسقطون وهم يواجهون جيش الاحتلال

أحداث مماثلة في منطقة الخمسيات من أهم مناطق الأطلس المتوسط ، وكان مجال صراع مع الإدارة والكنيسة الفرنسية التي كانت تحاول تجربة السياسة البربرية فيها ، وأنشأت فيها كنيسة كبرى نظّمت فيها احتفالات

---

(1) هذا الحدث كان قبل بداية عهد الجنرال نوجيس كمقيم عام بالمغرب ، أواسط 1936 ولعله أخذ وقتاً طويلاً . مهما يكن التاريخ الدقيق للبعثة الوطنية إلى حكومة مدريد ، فقد يكون الحدث من الأسباب التي دفعت بحكومة الجبهة الشعبية في باريس إلى اعتماد جنرال يعرف المغرب جيداً وقاتل في جباله ليكون مقيماً عاماً

رسمية سنوية بعيد القديسة سانت تيريز راعية الكنيسة الكاثوليكية . مظاهر الإحتفالات بهذا العيد ، الذي يحج إليه كاثوليكيون من الجالية الفرنسية ، ومن فرنسا نفسها ، كانت استفزازاً لشعب مسلم ، ولسكان المنطقة . وكانت النتيجة صداماً خطراً تدخّل فيه الجيش الفرنسي وسقط شهداء من الجانب المغربي وقتلى من جيش الإحتلال

أدرك الحزب الوطني مسؤوليته إزاء الشعب في الأخطار التي تحدّق به خاصة بعد الحوادث الدامية التي جددت التضحية بالأرواح . وتأكّد الحزب من نوايا الإقامة العامة الخطيرة بعد أحداث الخمسيات وبني يازغة وبوفكران اشتدت لهجة الصحف الوطنية وهي متأكدة أن أيامها أصبحت محدودة تحددت معالم الصراع بين الإقامة والحركة الوطنية ، عرف كل منهما ما يريده الآخر . أدرك المقيم بأن المغاربة لا تنفع معهم سياسة « الإنفتاح » فهم لا يخضعون إلاّ للقوة ، ولا يردعهم إلاّ القمع والعنف

24

عملية قديمة قدم وعيي بالمعرفة

بدأت مجرباً تجربة الحاح ، وتطاول في كثير من الأحيان حتى أصبحت مدمناً إدمان من لا سبيل إلى شفائه

كالذين وجدوا في بيئة لم يتكون فيها التنظيم العقلاني والمنهجي للحياة العلمية والدراسية والفكرية والثقافية عموماً ، لم أكن أعرف أن « الإدمان » هو الآخر ، في حاجة إلى تنظيم منهجي أو عقلاني يوجه ويرشد ولا يغرق في المتاهات . ولذلك كنت كمن يرمي بنفسه في محيط لجي ، يتعلّم بنفسه السباحة دون إرشاد من سبّاح صناع يعلمه الحركة ويقيه احتمال الغرق ، أو على الأقل بذل جهد وطاقة ، دونهما ويصبح سباحاً ماهراً

هل آسف أني كنت المعلّم وكنت المتعلّم في نفس الآن ؟

أسفت لكثير من الأشياء التي مرت بي ، كنت مسؤولاً عنها أو كان غيري المسؤول . ولكن لم آسف قط على عمل كنت فيه المعلّم والمتعلّم ، لأني ـ أحسب ـ أدركته بعرق جبيني

لا فضل لأحد عليّ فيما أدركت ، ولا مسؤولية لأحد فيما لم أدرك

أنانية . . . ؟ أليس كذلك ؟ أعترف بأني أناني في كل ما أنا مسؤول عنه لنفسي ، ولست مسؤولاً عنه لآخرين . إذا نجوت اعتبرت أني قمت بمسؤوليتي وواجبي نحو نفسي ، إذا غرقت لم أعلّق ذنبي على مشجب الآخرين .

ولذلك كنت المسؤول عن تخبطاتي في الأمواج العاتية ـ أو ما كنت

أحسبه عاتياً منها في سنوات الوعي الطرية ـ وكنت المسؤول عن « الركام » الذي غمرني حتى الإدمان ، وكنت المسؤول عن أني لم أكتشف ـ بنفسي ـ التنظيم العقلاني والمنهجي ، الذي كان سيوفّر ـ ربما ـ علىّ كثيراً من الجهد والطاقة و « التخبط » ويمنحني ـ مع ذلك ـ إدماناً منظماً وممنهجاً يزيد من ترسباته العقلية والنفسية ومن انتظام الحياة التي عشتها

هكذا وجدتني أسبح في عالم القراءة منذ انتقلت ـ نقلة غير متدرّجة ـ من حفظ « الكتّاب » إلى قراءة الكتاب ، منحني حفظ « الكتاب » ولو بدون تعمّق في الفهم ، زخماً لغوياً وقدرة على التعامل مع الأساليب ، مهما كانت غامضة أو مغرقة فيما هو فوق طاقاتي الإدراكية ، ومنحني كذلك أن أستهين بكل ما يحمل اسماً ضخماً من المضامين التي لم يعتد جيلي آنذاك أن يتطاول عليها قراءة وفهماً

كان التاريخ والدراسات الاجتماعية شيئاً جديداً بالنسبة للذين مارسوا التعلّم في المدارس الإبتدائية ، والحرة منها على الأخص . وكان شيء اسمه الفلسفة مما كان يمكن أن يطلق عليه « اللامعقول » . وكانت العلوم البحتة أو الدقيقة مما لا ترقى إليه عقول الفتية المغررين . سمعت مرة أن تلميذاً كان يعد نفسه لامتحان البكالوريا ، وكانوا آنذاك قلة يعدون على أصابع اليد ، وقيل إنه سيجتاز الإمتحان في فرع الفلسفة (كانوا يطلقون على التخصص الأدبي فلسفة) فكبر في عيني وعقلي ومشاعري جميعاً الشاب ـ الرجل . واعتبرت أن الزمن أخذ ينتج العباقرة : فيلسوف في المقدّمة

أكببت على القراءة دون اختيار : أدب ، شعر ، قصص ، مقالات ، نقد . . . وضع بالعربية أو ترجم إليها . تاريخ ، سياسي أو حضاري ، أو عقلي للأمة العربية والحضارة الإسلامية . تعرّفت على ركام من الكتب : قديمة ، حديثة . . . مئات المؤلفين والكتّاب والشعراء والقصاصين . . . بعضهم كان يبيّن ، في منظوري العقلي ـ أتجاوب معه ، أتحدّث عنه للذين كانوا يبادلونني الحديث عما أقرأ وما يقرأون . بعضهم كان ينغلق ـ في منظوري العقلي آنذاك ـ فأركب رأسي ، ولا أفرّ منه من أول صفحة . وإنما أتهمه ـ ولا أتهم نفسي ـ

أمنحه كل طاقاتي ، ولو لم يمنحني بعض معارفة . أتساءل في آخر كل صفحة ـ وقد تبلغ صفحاته المئات ـ : هل انتصر عليّ أو انتصرت عليه ؟ أكون منصفاً وأنا أجيب : أنتصر عليّ بكثرة علمه وتعقيد معارفه . انتصرت عليه لأنه لم يصدني عن قراءته . كان « علماً » وقد قيل عنه قديماً : إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه ، وإذا أعطيته بعضك منع عنك كله وبعضه . كنت قنوعاً . ولكني أعتبر نفسي ظافراً

هكذا كنت أقرأ في كل ميدان . كل كتاب أستطيع الحصول عليه وأتتبع ما يكتب أو يقال عنه . آخذ منه موقفاً ، أكّدت لنفسي بعد ذلك أني كنت متطاولاً يوم قرأت كثيراً من الكتب بكل ما أوتيت من تحدي ، ومتطاولاً يوم اتخذت منها وعنها موقفاً ، لم يكن غيري ليتخذه ، ولكني كنت متحدياً آخذ الموقف ، وأنا دون القدرة على اتخاذه

قرأت الجاحظ ـ بعض كتبه ـ مثلاً واتخذت منه موقفاً

قرأت المتنبي ـ كل شعره ـ بشراحه منهم العكبري واتخذت منه موقفاً ، وقد تتبعت الكثير مما كتب عنه من كتب وأعداد خاصة من مجلتي الهلال والمتقتطف ـ قرأت أبا العلاء ، أخذ بيدي إلى عالمه المظلم طه حسين ، فيما كتب عنه من كتب . واتخذت منه موقفاً . قرأت ابن خلدون . كان أقرب إلى نفسي ، لعله كان يخاطب الحس النقدي في نفسي للحياة والدول والناس ، واتخذت منه موقفاً

معظم مواقفي من هؤلاء القدماء كانت إيجابية

ولكني قرأت شعراً للمحدثين : ابتداء من شوقي وحافظ إبراهيم والعقّاد والزهاوي والرصافي ، وطه حسين وأحمد أمين وأحمد زكي وزكي مبارك والعقّاد والمازني من الكتّاب . واتخذ من جميعهم موقفاً . كان يأخذ بيدي في موقفي من هذا ذاك ، ما يكتبه ذاك عن هذا ، وما يكتبه الآخرون عنهم جميعاً . ولا أكتم نفسي أني كتب مستلباً في كثير من الأحيان . حينما يكتب العقّاد والمازني عن شوقي ، وهما يهدمان ـ أو يحاولان ـ الصرح الذي بناه الشاعر الذي خرج بالشعر من عهد التخلّف إلى عهد القصيدة المتطورة لغة

وموسيقى ومضموناً ـ وأنا أتحدّث عن الثلث الأول من هذا القرن ـ حينما يكتبان فيهدمان ، أو يخيّل لهما ذلك ـ كانا يخاطبان في نفسي ـ مثال لجيلي في مثل سني آنذاك ـ غريزة التسلّق والتحدي واتخاذ الموقف . وحينما يكتب طه حسين عن الشاعرين : حافظ وشوقي ، ويفضّل حافظاً على معاصره ، كان يأخذ بيدي لأتبنى هدم العقاد للشاعر الذي استطال حتى استعصى على الهدم وأسير مع العقاد فأستعيض عن شعر شوقي بشعره . وأجد في موقفي المتطاول الحقيقة التي أبحث عنها ، رغم التضليل الذي كان يغمر الحياة الثقافية في عهدها ذاك ، كما يغمرها في كثير من العهود . ولم أستفق إلاّ بعد أن وعيت فأدركت أن شوقي مثلاً لم يكن في حاجة لمن يدافع عنه لأن انتاجه في القصيدة والمسرحية كان صرحاً ممرداً من قوارير . الذين استطالوا عليه كانوا يجربون طاقاتهم على الهدم . قد يكونون نجحوا في إثارة الضجة ، ولكنهم لم ينجحوا في هدم الصرح الممرد .

هكذا تعاملت مع القراءة إذا كنت قد تحديت العالم المغلق ، فقد نجحت في أني انتصرت . فلم أدع هذا العالم ينتصر على وسائلي القاصرة ، ولا على غياب التوجيه والإرشاد . وغياب المناخ الثقافي المتنوع الذي لم يكن تعليم ذلك الزمان ، فأحرى تعليم هذا الزمان ، يوفره للمغامرين في عالم التثقيف الذاتي

انتصاري منحني الرغبة في أن أقرأ حتى الإدمان . منحني القدرة على ذلك ، منحني المتعة واللذة وأنا أقرأ

أحسب أن الإنتصار في عالم القراءة ليس عملية سهلة . أما أن تكون لنفسك الرغبة والقدرة والمتعة واللذة ، فهو الإنتصار الحقيقي على كل عوامل الإحباط ، التي تمتنع أحياناً عن أن تضع الكتاب في يدك لفقرك وتمنعك أحياناً عن أن تدرك كل ما في الكتاب لقصورك ، وتمنع أحياناً كثيراً من الكتب عن أن تصل إلى بيئتك لأنها محاطة بالأبعاد الزمانية والمكانية والسياسية : سياسة الرقابة والمصادرة

في وجه كل هذه التحديات كنت أقرأ . أحياناً أنقل الكتاب تحت

جلابتي متخفياً كما لو كان مخدراً (مخدرات) حتى لا يكتشف في يدي فيكون مصيري مصير الكتبي الذي قادوه لاكتشاف « المخدرات » في مخزن الكتب

طوّحت بي القراءة في عالم الكتابة . هل رأيت مدمناً فني في إدمان الآخرين ؟ وكتبت

كتبت ثم كتبت . لم أكن أقرأ كتاباً إلاّ وكان له معي حساب . ولا أقرأ بحثاً أو مقالاً في مجلة إلاّ وناقشته محاولاً أن أنقد أو أضيف أو أشاكس

ثلاثة من زملائي تطاولوا على الشعر ، وكان علال يصحح خطواتهم وما زالوا يهذون حتى قالوا الشعر ـ كانوا : عبدالكريم بن ثابت ، وعبد المجيد بن جلون ، ومحمد الجندي . ولكني تخلّصت من هم الشعر ، فلم أكن من الغاوين

لا أدري كيف زرعت الثقة في نفسي ، ولكنها ثقة الخجول الذي يخشى أن تشير إليه الأصابع

كنت أقرأ أسبوعية جزائرية « النور » يتغيّر عنوانها كلما منعت صدورها السلطات ا لفرنسية . قرأت فيها لبعض الشبان المغاربة . تسلّحت بكل شجاعتي وبعثت لها بمقال كان من حظي ـ أو من حظه لا أدري ـ أن نشر . كما كان ذلك من حظ غيرها من المقالات . كان « النور» معي كريماً فشملها بضيائه . ومع ذلك لم أوقع أياً منها بإمضائي

كنت أقرأ « مجلة المغرب » يكتب فيها ـ ويشعر ـ أشهر كتّاب المغرب وشعرائه . كتبت مقالاً لا أدري كيف تطاولت على عنوانه : « الفكر المغربي الحديث » في العدد التالي لإرسال المقالة أشارت المجلة إلى أنها تلقت المقال ، ولكن كاتبه لم يعرف باسمه وسينشر إذا وصلها إسم صاحب المقال (ولو رغب في إمضائه باسم مستعار)

ما أزال أذكر أن الدنيا لم تسعني ، وأني استبطأت الشهر (أو الشهرين المجلة لم تكن منتظمة) وحينما صدر المقال بإمضاء مستعار اقتنعت بأني

خرجت من مرحلة التجربة ، وأن أبواب المجلات قد تفتح في وجهي ، كما تفتح أبواب الجنة في وجه الناجين

قنعت بالصحف الجزائرية والتونسية . كانت يومية « الزهرة » أولى صحف تونس . تقرأ في المغرب بعد يوم من صدورها . ومعها كانت صحبتي نلتقي على الصحفة الأولى (الموضوع الرئيسي إلى اليسار) مرتين أو ثلاث في الأسبوع . ولكن إسمي الحقيقي لم يدرج تحت أي من هذه المقالات . بل ـ لطبيعتي الخجولة ـ كنت أغيّر الإسم المستعار كلما عُرف بين زملائي وقرّاء الصحيفة من الطلبة والأساتذة

كنت أنشر المقال ويهمني جداً أن أعرف الصدى . وإذا كنت أسعد لأي صدى ولو كان سلبياً ، فإن أكثر ما كان يغيظني ألاّ يتحدّث أحد عن المقال ، ولو بسوء

في ذلك الزمان كان القرّاء يتحدّثون عما يقرأون . للقراءة قدسية تبعث على الإعتزاز بما يقرأ القارئون رضوا أو سخطوا

كانت موضوعات سياسية معتدلة . فالزهرة كان مرضياً عنها من الحكم في تونس . كنت أعرف ذلك فلا أجاهر بالقول . ولا أتطاول على محيط لا أتقن السباحة في أمواجه . قرأت مرة مقالاً للأستاذ علي الطنطاوي في مجلة الرسالة المصرية ـ وكان من كتابها اللامعين . موضوعه « الأدب العربي الحديث في سوريا » من العنوان قفز إلى ذهني موضوع « الأدب العربي الحديث في المغرب »

ـ ولم لا . . . ؟

أجبت عن سؤال كان يزرع الرعب في نفسي حتى لا أتطاول على مجلة كان من كتابها : أحمد الزيات وأحمد أمين وطه حسين وأحمد زكي ومحمد عبدالله عنان وكبار كتّاب وشعراء مصر وسوريا والعراق

لا أدري أي مستوى وصل إليه المقال . ولكن الذي أدريه أني بذلت من الجهد والطاقة في كتابته ما لم يكن له من جزاء إلاّ أن ينشر على صفحات

الرسالة بإمضاء (ع .ك) نفس الفكرة راودت صديق العمر : عبدالمجيد بن جلّون . لم يفض إليّ بها ولم أفض إليه . كان كلانا يخشى ألاّ يوفّق فلا ينشر ما كتب . نشر مقاله باسمه الصريح قبل مقالي . وكنا نعزف على نغم واحد

أذكر أني كتبت في « رسالة المغرب » مقالات في الرد على صاحب «لذعات بريئة » عرفت فيما بعد أنه محمد بن العباس القباج . وكان يكتب مقالات نقدية عن الشعر والشعراء في المغرب . وكان مقاله عن شعر علال الفاسي مما لم يرقني فكتبت رداً عليه ، جربت فيه استغلال معارفي في البلاغة و النقد وتذوّق الشعر . وكنت مجنوناً بشعر علال الفاسي الذي كان ينشر في مجلة السلام وكان لي حظ مع الرسالة فكتبت فيها على قلة ، خاصة بعد الهجرة

لم تنشأ الصحف الوطنية في ا لمغرب بعد أحداث « المطالب المستعجلة » سنة1937 : الأطلس ، و « المغرب » حتى كنت قد خرجت من النفق ، وأخذت أكتب في السياسة والثقافة وتحظى مقالاتي بالنشر

كنت معتزاً أن أكتب في السياسة ، لذلك خرجت من منطقة الظل لأكشف عن حقيقتي في بداية خط السير وكتبت عن الحماية بعد ربع قرن من حياتها ربع قرن دونه زمن أهل الكهف ، كل عمري آنذاك دونه بكثير وبدأت من يومي ذاك أسخّر ذاك القلم كمعول صغير يشارك في هدم الصرح الذي أقيم على مدى ربع قرن

أول مقال أسلمني إلى ثاني مقال ، إلى ثالث ورابع

لست أدري أي شيطان أغراني بأن أخصص يوم عطلة المدرسة أنزوي فيه بغرفة بعيدة عن ضوضاء الدار الكبيرة لأكتب وأكتب : أكتب المقالة أشقى في البحث عن الموضوع ـ وكثيراً ما كان يسعفني كتاب أو مقال أو بحث ظل صحبتي طيلة أسبوع العمل ـ أدير الفكرة ، أرسم لها مخططاً ، أضيع وقتاً غير يسير في اختيار العنوان . أرضى عنه . . . لا يرضى عني . أغيّره . لا أرضى ، وقد يرضى . أنتقم لنفسي ، أمحوه ، أمزّق الورقة ، وقد احترت بين بضعة عناوين ، كلها جميل ، كلها سيء . نتراخى أخيراً ، وليس أحدنا براض عن

الآخر . . . أتابع المخطط ، وأنا أكتب ترهقني الكلمات ، وقد صممت على أن أختار بين المترادفات ، أو ما أحسبه مترادفات . أعود إلى المنجد ، إلى الصحاح إلى القاموس المحيط ، وكأني سأعرض بضاعتي على الخليل أو الجاحظ أو أبي حيان . تستقيم الكلمة ، ويبدأ صراعي مع الفقرة ،الجملة والمقطع . . . تريحني «النقطة» لعلي وضعتها حيث لا يجب أن تكون . . . إلى السطر . أشعر بعبء كبير تخلّصت منه . هذا مقطع . أرفع عيني إلى « الحلقة » ـ للتفكير ـ العينان أيضاً تفكران . . .! فيما تكتبان أو تقرآن ـ أو لعلي أرفعهما لتتنسما نسيم الحرية من سجن طال بين القلم والورقة ، لألحظها للمرة العاشرة هي الأخرى مكبة على « الحلقة » تطل من بعيد ، تفر من حريتها على السطح ، تعبر السور في مغامرة ، لا تخشى معها أن تدق عنقها ، لتطل على الحلقة ، ولتلاحظ ، بعينيها المتطلعتين الفضوليتين ، ـ لا أستطيع أن أكتشفت لونهما : سوداوان ، زرقاوان ، خضراوان ، حجليتان . . .؟ لا أدري ـ وأقسم على ذلك ـ لتلاحظ هذا الفتى الذي حبس نفسه بين الورق والقلم ، يلعب ، يكتب « حجاباً » أو رقية » أو لوحة ؟ ربما كانت تفكّر في أن تطلب لهذا الذي يكتب أن يفك «ثقافها» . لعلهاه طال بها الشوق ، وقد لا يقصر من طوله غير « فقيه » يكتب لها « حرزاً » يفتح عيون الغافلين عن جمالها . . .؟ ربما . . . ما أظن أنها اهتدت إلى شيء من ذلك . ولكنه يكتب . ويدعو إلى الفضول للتعرف عليه وهو يكتب . وتلتقي عينان ـ وقد رفعتهما إلى سماء ـ بوجهها ، بعينيها ، برأسها ، بشَعرَها المحاط بمنديل ليس منديل الإسلاميات فيما أحسب ـ وتفر بنت الجيران . من الحلقة ، لعلها لم تكن ترغب أن أكتشف أنها تتلصص على هذا الفتى في خلوته يكتب ، تَكْتَشف ، لا تريد أن تُكْتَشف ، أن تضبط متلبسة بجريرة التلصص على ابن الجيران وهو . . . يكتب

أشغل نفسي بالكتابة ، وما أشك في أنها تشغل نفسها بالمراقبة حتى إذا رفعت عيني إلى سماء فَرّت من ملتقى نظراتي . ما كنت لآسف أو أشقى بذلك فبين يديّ ورقة وقلم . وكنت حريصاً على ألاّ يشسغلني عن ذلك حتى إبنة الجيران ، و قد قفزت سوراً لم يكن يقل عن سور الصين في مفهوم ذلك

كان سيزيف معي ، صديقاً حميماً . أياماً أقضيها في كتابة مقال أقرأه فيروقني . ثم أقرأه فتقل روعته . أعود إليه فأجده غير جدير بأن يقارن بما قرأت في « الرسالة » أو الهلال . . . غير آسف أمزقه أو أحرقه ، حتى لا تداعبني الشفقة على الساعات التي صرفتها مفكّراً وكاتباً ، وسجّاناً وضع جسمه ونفسه وعقله وفكره جميعاً بين أربعة جدران ، دع عنك بوابة الغرفة التي تسلّم عينيه إلى سمائه ، لا يحجبها الوجه الصبوح الذي يطل من الحلقة في فضول بنات الجيران

ينتابني أحياناً شعور بالأسف . لعله لم ينتب سيزيف . كان أكثر الحاحاً مني . أسلم نفسي للقراءة : ميدانها رحب . يتميّز بكثير من الحرية في الاختيار ، في المصاحبة ، في المناقشة ، في الأخذ ، في العطاء . كتاب أديب يسلمك إلى كتاب فيلسوف ، إلى كتاب مؤرخ ، إلى كاب فقيه . . . تعيش مع هذا ما لذت لك المعايشة . تتركه يستريح منك وتستريح منه ، لتصاحب صديقاً آخر يحدّثك بلغة أخرى قد يأخذ بمجامع قلبك فلا تتركه حتى يتركك مع آخر كلمة في آخر صفحة . أستعيد الفقرة ، الصفحة ، الفصل ، إذا ما استطاع الكتاب أن يشدني إليه . أعتبر نفسي متعلماً لا مستفيداً ولا مستمتعاً . أكاد أحفظ الجملة والفقرة . أدهش لهذا القلم الذي سبح في بحره اللاحب دون أن يصدمه موج أو تعترضه عاصفة

قرأت في الفلسفة . استعصى عليه فهم مضامين النظرية يلخصها الكاتب بعربية سهلة مبسّطة ، ومع ذلك يلخص فكر أفلاطون أو أرسطو أو بيرجسون . أفهم نصف ما أقرأ ، ربع ما أقرأ ، عشر ما أقرأ . . . أعتبر نفسي نجحت في هذا الذي تحرم قراءته ، ابتداء من المنطق ـ وهو أداة الفلسفة ـ وقد حرمه ابن الصلاح والنووي ، فكيف بقوم كافرين قال بعضهم بالمثل ، وقال آخرون بما وراء الطبيعة ، وانتحر أحدهم مسموماً ـ والعياذ بالله ـ ومع ذلك أقرأ عن تاريخهم وأفكارهم ، وقرأت عن تلاميذهم من الفرابي وابن سينا وابن رشد حتى إخوان الصفا . أعترف أني كنت أقضي ساعات في الصفحة الواحدة أفك

رموزها وأحاول أن أسبر أغوارها . تستعصي عليّ في كثير من الأحيان ، وأستعصي على نفسي فلا أرحمها أو يدرك عقلي بعض هذا الذي أقرأ

كان الكتاب يصاحبني أحياناً على مائدة الأكل . ولعلي لا آكل ولا أفهم . ولكني مجنون بهذه الضرة التي تنقذني أحياناً من سجني ذاك في غرفتي تلك . فضاء ما بين عيني وورقتي يملأه قلم يتحرّك ، يستقيم أحياناً ، يعربد في كثير من الأحيان . النار أحياناً هي مصير الورقة التي تتخلّص من خربشاته

هذا وجدتني بين ضرتين جميلتين أميل إلى إحداهما . أصاحبها لأروي شبقي منها ، حتى إذا كان لي معها تعاطف ، ود ، حب ، عشق ، فكّرت مع سقراط أو مع أفلاطون في أن الكتابة تدمّر الذاكرة ، تخرجني من هذا الذي قرأت وحاولت أن يترسب في ذاكرتي وعقلي وروحي جميعاً . فكّرت في أني وأنا أقرأ أزداد علماً ، وأنا أكتب : أنفق وما تزال بضاعتي مزجاة مما أنفق أكتب فينفصل عن ذاتي وعقلي وعاطفتي جميعاً هذا الذي أكتب . ثم أطعمه النار أو سلة المهملات . فكّرت في هؤلاء « العلماء » الذين ربطوا أنفسهم بما يقرأون للآخرين ، وبخلوا (مكره أخاك لا بطل) بأن يربطوا الآخرين بهم عن طريق ما كان يجب أن يكتبوا . كانوا أميين ـ أو نصف أميين ـ يقرأون (وهذا نصف) ولا يكتبون (وهذا هو النصف الآخر) فكّرت في أن أكون أنانياً : آخذ ولا أعطي ، أعيش في الرحب والسعة بما أقرأ ، ولست مكلفاً بالآخرين أمنحهم بعض ما ركب في ذاكرتي مما أحب أن أحتفظ به لنفسي لا لغيري

الكتابة تضعف العقل . . . قالها سقراط قديماً ، فعلم تلاميذه أسس معرفة الإنسان لنفسه . كان يعلّم ولا يكتب ، وقالها أفلاطون رواية عنه : فقال ما لم يفعل كتب « الجمهورية » و « لسياسي » و « المحاورات » و«الشرائع» . ولم يرتح أرسطو إلى مقولتهما فكتب وكتب : « المقولات » و «الجدل» و « الخطابة » و « ما بعد الطبيعة » و « السياسة »

هؤلاء علّموا الناس كيف يفكرون ، وهم يدرسون ويحاورون ، ولكنهم علموهم كيف يفلسفون الأشياء والأفكار والأعمال والسلوك والأخلاق وهم

يكتبون ليتركوا بعض ما كتبوا قروناً وقروناً

كتاباتهم لم تضعف العقل ولم تدمّر الذاكرة . فتحت باب الخلود لهم ولأفكارهم وللآخرين

وما يدريني أنني أيضاً لا أريد أن أموت قبل أن أموت كما كان يعبّر علال الفاسي . لا أريد أن ينتهي أجلي مع الدنيا ، ومع دنيا الناس بكلمة رحمه الله ، وهم ينفضون أيديهم من تراب القبر . أريد أن أبقى في الذاكرة ـ ولو كانت نَسَّاءة ـ أحدث الذين معي على ظهر الأرض ، وأحدّث الذين يفدون بعدي أو يبقون بعدي . لأكتب إذن

يبدو أنني أنظر إلى الكتابة بمنظار أخضر . كثير من الذين كتبوا طواهم الزمان وطوى كتاباتهم أيضاً . سألت مرة صاحب دار العلم للملايين المرحوم بهيج عثمان وكان رفيق الدراسة عن كتب المرحوم أبو مدين الشافعي ، وكان باحثاً جيداً من الجزائر درس في كلية الآداب بجامعة القاهرة واستقر بها محللاً نفسانياً حتى اعتدى عليه « غيور » بسكين فأرداه قتيلاً . سألت الصديق الناشر وكان صديقاً أيضاً لأبي مدين عن كتبه ، وقد ألف مجموعة رائدة في علم النفس ، فأشار بيده بما أفادني أنها ماتت مع صاحبها

هكذا كان مصير ما يكتبه الكاتبون . ويبدو أن الذين يتعلّقون بالكتابة يبتغون من ورائها البقاء . ولا أقول الخلود ، يسبحون في بحر لجي من الأوهام فلا هم باقون ولا كتبهم باقية . ويخيل إليّ أنه تكريماً لروحهم يجب أن تدفن كتبهم معهم لعلها تؤنس وحدتهم ابتداء من ليلتهم الأولى في العالم الموحش ، . عالم القبور

ألا يثير كل ذلك في نفسي مكامن الحيرة : أيهما أختار بين الضرتين الجميلتين اللتين عاشتا في حضني ، وأنا بعد في دور المراهقة والشبق ؟ هل أستطيع أن أعدل بينهما ولو حرصت ؟ تلك محنتي

أقرأ وأقرأ حتى إذا مجتني القراءة دفعت بي إلى الكتابة

أكتب وأكتب حتى إذا مجتني الكتابة أو مججتها دفعت بي إلى

القراءة .

كالكرة السهلة المنال عشت بين الضرتين . أحياناً يتصالحان ، يتعايشان ، يتراضيان ، على حسابي ، وتدور الكرة بقذفات بطيئة لتجد نفسها في مرمى الكتابة أو شبكة القراءة حتى كانت رمية من غير رام . ووجدت نفسي على هذا الكرسي ، وفي هذه الدار التي أسمها « العلم » : معمل ، دوامة ، طاحونة ، مادتها الأوراق والأقلام والمطبعة . شعارها : الإستهلاك تكتب فلا يتاح لك أن تقرأ ما تكتب . المطبعة ملحاح ، وقلمك لا يفرح بإلحاحها . وكالعازب الذي تزوجه مساء فيصبح أعزباً ـ كما يقول المثل ـ عدد يدفع عدداً . قضية أرقام . كل صباح تصبح على باب الله الكريم ، وتملأ الصفحات ، وكأنك تملأ حوض الرمال بماء عذب . وأنت أيضاً مطالب بأن تضاعف من عملك وأن تجيد عملك ، أن تجدد وتتابع وتواكب . ويوم يجف فكرك من أن يكون مبدعاً خلاقاً منتجاً تحال على معاش ـ ولا معاش ـ أنت إذن تمتح من معين لا ينبغي أن ينضب ، قد يكون على حساب راحتك ، صحتك ، رفاهك ، متعتك . . . ويوم تتوقف لمرض أو راحة إجبارية بأمر من طبيبك ، يسأل عنك السائلون مستنكرين ، أو ينساك الناسون ، وكأنك لم تفدهم أو تمتعهم أو تسليهم أو ، على الأقل ، تملأ فراغهم

وتلك محنتي

أفر من طاحونة « العلم » لأكتب بحثاً أو قصة أو رواية ، وأنا أقول

ـ هذا لنفسي لا للآخرين

سرعان ما أفكّر في آخرين من الذين يغريهم أن يقرأوا هذا النوع من الكتابة . لأني وأنا أفعل كأني أكتب بالجهر . أنانية ؟ أليس كذلك ؟ أحب أن يسمعني آخر حتى وأنا أخربش على ورق أبيض أو أصفر . ما رأيك أني أحياناً أشعر وكأني أصيح في وادي عميق لا صدى لما أكتب

وقف مرة « غياط » في منتصف رمضان يغيط على بابا دار كثيراً ما آنس ساكنيها في ليالي رمضان الجميلة . ظل يغيط علّ أهل الدار ينفحونه « بريال»

حتى إذا أعياه « التغياط » والانتظار هتف قائلاً

ـ قولوا لي حتى الله يعطيك الرواح

زامر الحي لا يطرب . ويمكن أن تترجم : كاتب الحي لا يفيد ولا يمتع ولا يغري بالقراءة

وتلك محنتي

من بعيد مستشرق كبير في فرنسا (المرحوم جاك بيرك) لا أهديه كتاباً إلاّ كتب لي رسالة ـ شبه مقالة ـ يبدي رأيه في الكتاب ويقوّمه وينقده . تلك أخلاق المثقفين . يبدو أن العالم الثالث في حاجة إلى الثقافة وإلى أخلاق الثقافة في نفس الوقت

اليوم ، وأنا ما زلت أحمل هذا القلم ، كما يحمل البناء « الملساة » أو الهدام المعول أشعر بأني في حاجة إلى أن أستقيل من الكتابة لأرحل إلى القراءة ، في حاجة إلى أن أن أتخلى عن إحدى الضرتين الجميلتين لأني لم أستطع أن أعدل بينهما . قلبي يميل إلى إحداهما . استفيته فأفتاني

سأستخير . فإذا اختير لي فسأودع هذا القلم لأعيش مع الآخرين ، ويكفي ما حاولت أن يعيش معي الآخرون

آمل أن أرضى ، وأرضي أنانيتي الطيبة

هكذا أفكّر . . . مجرّد وسواس فكري

من كتب عبدالكريم غلاّب

في الدراسات الأدبية والفكرية :

- نبضات فكر - بيروت 1961
- في الثقافة والأدب - الدار البيضاء 1964
- رسالة فكر - تونس 1986
- دفاع عن فن القول - طنجة 1972
- صراع المذهب والعقيدة في القرآن - بيروت 1973

ط2 تونس 1979

ط3 بيروت 1989

- مع الأدب والأدباء - الدار البيضاء 1974
- لمحات من شخصية علال الفاسي - الدار البيضاء 1974
- الثقافة والفكر في مواجهة التحدي - الدار البيضاء 1976
- الفكر العربي بين الإستلاب وتأكيد الذات - تونس 1977
- مجتمع المؤمنين - من هدي القرآن 1988
- عالم شاعر الحمراء - الدار البيضاء 1982
- في الثقافة الإسلامية والآداب القرآنية (البيضاء) 1992
- في الفكر السياسي - مطبعة النجاح - الدار البيضاء 1992
- من اللغة إلى الفكر - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء 1993

في الرواية القصة

روايات

- سبعة أبواب - دار المعارف - مصر 1965

أعيد طبعه في تونس 1984

- دفنا الماضي ، بيروت 1966 - الدار البيضاء ، ط 2 1973

ط 4-5 ، 1980

- المعلم علي - بيروت 1971 ، ط 4 ، 1982
- صباح ويزحف الليل - بيروت 1984
- وعاد الزورق إلى النبع - تونس الدار البيضاء (طبعتان) 1989

- دفنا الماضي (طبعة الرباط بالفرنسية) 1989
(طبعة باريس بالفرنسية) 1990
- شروخ في المرايا (دار توبقال الدار البيضاء) 1993

مجموعات قصصية

- مات قرير العين - الدار البيضاء 1965
الأرض حبيبتي - بيروت 1971
- وأخرجها من الجنة - تونس - ليبيا 1977

في الدراسات السياسية والتاريخية:

- الاستقلالية - الدار البيضاء 1960
- في الإصلاح القروي - الرباط 1961
- هذا هو الدستور - الرباط 1962
- دفاع عن الديمقراطية - طنجة 1966
- معركتنا العربية في مواجهة الإستعمار والصهيونية 1967
(بالإشتراك) الرباط
- تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب - الدار البيضاء 1976
ط2 (جزءان) 1988
- التطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1978
ط 2 سنة 1988 ط 3 - 1992 1988
- الفكر التقدّمي في الأيديولوجية التعادلية - الرباط طبعتان 1979
- مع الشعب في البرلمان 1984
- سلطة المؤسسات 1987
- لماذا انهارت الشيوعية - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الدار البيضاء . 1991
- الماهدون الخالدون (كتاب العلم) 1991

في الرحلات

- صحفي في أمريكا
- من مكة إلى موسكو - الدار البيضاء

سِفْرُ التكوين

عَنِ الكاتبِ والكِتاب

■ كان الروائي قد شارك بنشاط في مختلف النضالات. كان يدرس في القاهرة. ولم نصبح أصدقاء إلا فيما بعد خلال سفر مشترك الى جنوب تونس. وكانت له من بين المناضلين الكبار في حزب الاستقلال حصته من المسؤوليات في تشييد المغرب المستقل. وكان عليه أن ينهمك في مهام حكومية عليا، في حين ينشر حوله نشاطا ثقافيا مكثفا: باحث، مؤرخ ، صحفي ، روائي. لا شيء أكثر تنوعا من إنتاجه...

جاك بيرك

(مقدمة الترجمة الفرنسية لرواية دفنا الماضي)

■ ليس من اليسير في شيء ان أتحدث عن شخص يطالعنا بانتاجه الادبي والثقافي والاجتماعي والسياسي كل صباح، ويخوض موضوعات الساعة في نشاط دائب لا يعرف الملل اليه سبيلا. هذا الشخص الذي اصبح عاجزا على ألا يكتب. فهو كاتب مدمن. وكيف يكون مدمنا على الكتابة، ويكون في الوقت نفسه من رواد السجون والمعتقلات حيث لا قلم ولا قرطاس، وحيث يعشش الملل والرتابة والتكرار؟ ولكن عبد الكريم يستطيع ان يحيى في خياله وذاكرته وواعيته. ويستطيع ان يعتصر من الملل والرتابة والتكرار حياة حافلة بالملاحظة والدراسة والتأمل والسخرية.

عبد المجيد بن جلون

منشورات 96

الشهيد عبد الرحيم الحريري

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت ، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكتالي، ه ١/٨٢٧٩..
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٦٧

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب